التصفية

POLITICIDE

حرب أرييل شارون ضد الفلسطينيين

ARIEL SHARON'S WAR AGAINST THE PALESTINIANS

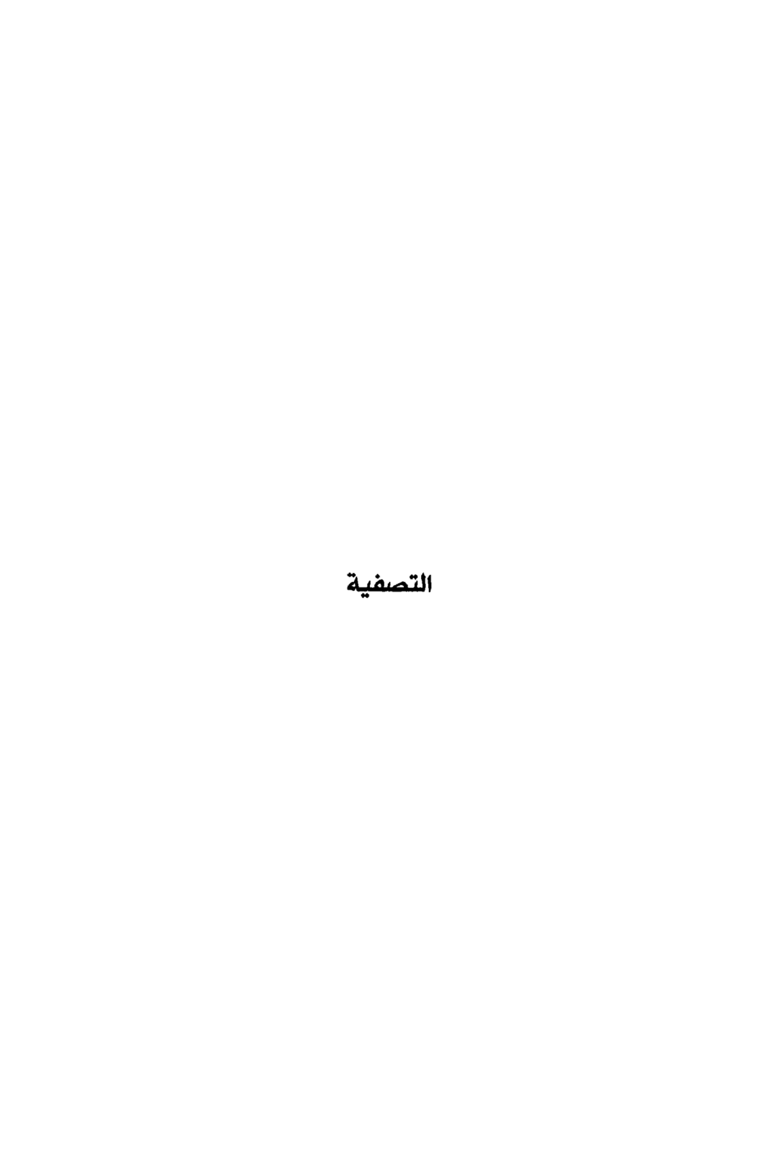
باروخ كِمِّرلِنْك

BARUCH KIMMERLING

لقد نَجَحَ شارون في الانتخابات المباشرة في 6 شباط/ فبراير 2001 نجاحاً لم يسبقه أَحَدٌ إليه، إذ نال 52 بالمئة من الأصوات، فكان هذا النجاح نقطة تَحَوُّل في تاريخ إسرائيل والمنطقة، وتغيراً جذرياً في شخصيَّة الحكومة الإسرائيلية وموروثها السياسي. وتَعَزَّز هذا التغيير في الانتخابات العامّة التي جرت في 28 كانون الثاني/ يناير 2003 فقد فاز فيها الجناح اليميني الذي يتزعَّمه شارون بـ69 مقعداً من مقاعد الكنيست المئة وعشرين. وهكذا صارت إسرائيل في عهد شارون تضطلع بدمار لا يقتصر على البيئة المحيطة بها فحسب، بل بتدمير إسرائيل ذاتها، لأنَّ سياستها الداخليَّة والخارجيَّة سارت نحو هدف واحد هو تذويب الفلسطينيين، والتذويب هو عملية تهدف في غايتها إلى إنهاء وجود الشعب الفلسطيني وكينونته الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية الشرعيَّة.

لم تبدأ تصفية الفلسطينيين مع انتخاب شارون، بل جاءت نتيجة لحرب 1967، وهي نتيجة لطبيعة الحركة الصهيونية وأصولها التي عُزِّزت بسلسلة من الأعمال المحلِّيَّة والعالميَّة. وبذلك جاء انتخاب شارون، وإعادة انتخابه ثانية، والظروف التي مَكّنت من ذلك، والحال السياسي الداخلي الناتج عنه. كل ذلك جَعَلَ هذه الرؤية المرعِبَة أَكثر احتمالاً من أي وقت مضى منذ سنة 1948.

لم تكن إسرائيل أبداً مثلاً للديمقراطية الليبراليَّة، فظروف نشأتها وجذورها لم تكن تسير في ذلك الاتجاه برغم أن بعض المعايير التبريريَّة لسكانها اليهود، جعلت الغرب يعتبرها الديمقراطية الوحيدة في المنطقة. فقد ذكر مؤلف الكتاب مجموعة عناصر تميِّز النزعة الفاشيَّة لإسرائيل.



التصفية

التصفية

POLITICIDE

حرب أرييل شارون ضد الفلسطينيين

Ariel Sharon's War Against The Palestinians

باروخ كِمِّرْلِنگ

Baruch Kimmerling

تعريب

سمر عدنان بغجاتي




شركة الحوار الثقافي ش.م.م.
Al-Hiwar Athaqafi (Intercultural Dialogue) s.a.r.l.
يونيسكو سنتر، شارع ڤردان، بيروت، لبنان
ص.ب. 6750 ـ 13 ـ فاكس 718 790 ـ 1 ـ 961+
البريد الإلكتروني info@interculturalbooks.com
http://www.interculturalbooks.com

Original title:
POLITICIDE
Ariel Sharon's War Against The Palestinians

باروخ كِمِّرْلِنگ
التصفية: حرب أرييل شارون ضد الفلسطينيين
سَمَر عدنان بَعَجاتي : تعريب
1 ـ القضيّة الفلسطينية 2 ـ الصراع العربي الإسرائيلي
مجلد ISBN 9953-67-027-7

تنضيد الحروف والإخراج: محمد نبيل جابر
طبع في لبنان
الطبعة العربية الأولى 1 2 3 4 5 6 7 8 9 10

إن الكتب التي نُصدِرُها لا تُعبّرُ بالضّرورة عن رأينا، وإنما قصدنا من نشرها نَقل ما فيها، بامانة، إلى القارئ العربي حتى يُسْهِمَ بِدَوْرِهِ في «الحوار الثقافي».

أهدي هذا الكتاب:

إلى كل السيدات الشجاعات اللاتي وقفن أمام نقاط التفتيش الإسرائيليّة في ساعات الصباح الباكر لمنع الجنود من الإساءة إلى الرجال الفلسطينيين الّذين يبحثون عن عمل في إسرائيل.

إلى كل الرجال والنّساء داخل إسرائيل وخارجها الّذين قاموا بتأمين الحماية لعمليّات توصيل المؤن والأدوية للأطفال الفلسطينيين الجياع في البلدات والقرى ومخيمات اللاجئين المحاصرة.

وإلى كل المعارضين أصحاب الضمير الحيّ الّذين أمضوا شهوراً في السجون العسكريّة الإسرائيلية بسبب رفضهم المشاركة في حرب لبنان الإجرامية سنة 1982 أو رفضهم ارتكاب جرائم حرب في الحرب الفلسطينية ـ الإسرائيلية الحالية.

هؤلاء كلّهم يعبّرون عن الطبيعة الأصلية للديانة اليهودية وعن الروح الحقيقية لإسرائيل.

تنبيه: لقد استعملنا حرف گ للتعبير عن حرف G منعاً للإشكال بين ج المصريّة التي تقابلها غ في بلاد عربية أُخرى، نحو: ريگان بدلاً عن ريجان أو ريغان؛ وپنتاگون بدلاً عن پنتاجون أو پنتاغون؛ وإنگلترة بدلاً عن إنجلترة أو إنكلترة.

المحتوى

المقــدمــة

نجح أرييل شارون في السادس من شباط/ فبراير سنة 2001 في الأنتخابات المباشرة نجاحاً غير مسبوق فحصل على 52 بالمئة من الأصوات، وٱعتُبِر هذا الحدث نقطة تحوّل في تاريخ إسرائيل والمنطقة، وتغيُّراً أساسياً في شخصية الحكومة الإسرائيلية وموروثها السياسي. وتَعَزَّز هذا التغيُّر في الانتخابات العامّة التي جرت في 28 كانون الثاني/ يناير سنة 2003 التي فاز فيها الجناح اليميني برئاسة شارون بـ69 مقعداً من أصل 120 مقعداً من مقاعد الكِنِيست الإسرائيلي، وأُعيد ٱنتخاب شارون رئيساً لوزراء إسرائيل. لقد فَرَضَ هذا الانتصار السّاحق الّذي حقّقه شارون أثراً كبيراً، فهو أول رئيس وزراء في إسرائيل يُعاد ٱنتخابه منذ ٱنتخاب مناحيم بيگن سنة 1981.

أَصبحت إسرائيل في زمن أرييل شارون وكيلاً لدمارٍ لا يقتصر على البيئة المحيطة بها فقط، بل تعدّاها ليصل إلى إسرائيل نفسها أَيضاً، لأن سياستها الداخلية والخارجية توجّهت توجُّهاً واسعاً نحو

هدف رئيسي واحد: تذويب الشعب الفلسطيني. وأَقصد بالتذويب تلك العمليَّة التي يكون هدفها الأَخير إِنهاء وجود هذا الشعب وكينونته الاَجتماعية والسياسية والاَقتصادية والشرعية.

هذه العمليَّة قد تتضمّن تطهيراً إِثْنياً كامِلاً أَو جزئياً للمنطقة التي تُسَمَّىٰ أَرض إِسرائيل. وهي سياسة سوف تُفْسِدُ حتماً النسيج الداخلي للمجتمع الإِسرائيلي وتُقَوِّض القاعدة الأَخلاقية للدولة اليهودية في الشرق الأَوسط، فمن هذا المنظور ستكون النتيجة تصفية مزدوجة للكينونة الفلسطينية، ثم للكينونة اليهودية علىٰ المدىٰ البعيد وبذلك تكون الحكومة الإِسرائيلية الحالية خطراً أَكيداً علىٰ بقاء شعوب المنطقة كافة، وعلىٰ اَستقرارها.

إِنَّ التصفية عمليّة تغطي مساحة واسعة من الفعاليات الاَجتماعية، والسياسية، والعسكريّة، وتهدف إِلىٰ تدمير الوجود السياسي والقومي لشعب بأكمله وحرمانه من تقرير مصيره. وعمليّات القتل المتعمَّد والمذابح المركَّزة وتصفية القيادات والنُّخَب وتدمير المؤسَّسات العامة والبُنىٰ التحتية وإِنشاء المستعمرات والتجويع والعزل السياسي والاَجتماعي وإِعادة النظر في المناهج التعليمية والتطهير الإِثني الجزئي. فما كل تلك الأَعمال إِلاَّ وسائل للوصول إِلىٰ هذا الهدف.

لم تبدأ عمليَّة تصفية الشعب الفلسطيني مع اَنتخاب أَرييل شارون، فقد جاءت، في الواقع نتيجة لحرب 1967 وهي إِلىٰ حد ما نتيجة لطبيعة الحركة الصهيونية وأصولها التي تمّ تدعيمها وتعزيزها بسلسلة من الأَحداث والعمليّات المحليّة والعالَميَّة. ومع أَن سِناريو

يوم الحساب المُرْتَقَب ليس حتمياً، كما أَن المراحل المؤدية إِليه ليست نهائية أبداً، فإِن ٱنتخاب أَرييل شارون، ثم إِعادة ٱنتخابه مرة ثانية، والظروف التي مَكَّنت من ذلك والوضع السياسي الداخلي الَّذي نتج عنه. كل ذلك جعل هذه الرؤية المرعبة أَكثر احتمالاً من أَي وقت مضىٰ منذ سنة 1948.

لم تكن إِسرائيل مثالاً للديمقراطيَّة الليبراليَّة، فظروف نشأتها وجذورها لم تسمحا لها أبداً بذلك. وبرغم ذلك، فقد ٱعتبرت في إِطار بعض المعايير التبريريَّة لسكّانها اليهود والغرب، الديمقراطيَّة الوحيدة في منطقة الشّرق الأَوسط. إِنّها بالتأكيد ديمقراطية مقارنة مع باقي الأَنظمة في المنطقة. فقد كانت إِسرائيل فخورة دائماً بٱنتخاباتها الحرَّة المنتظمة التي أَتاحت لمواطنيها تغيير الحكومة والنُّخبة الحاكِمة تبعاً لإِرادة هؤلاء المواطنين. ويتمتع المواطنون في إِسرائيل ـ نسبياً ـ بحريَّة التعبير، مع أَن هذه الحرية متاحة لليهود أَكثر منها للعرب، إِلىٰ جانب كثير من الحقوق والحريّات التي يكفلها القانون، أَو الموروث السياسي. إِضافة إِلىٰ محاولة النظام القضائي ٱستخدام نظام الزواجر والضوابط للحدّ من قوَّة البيروقراطية والجهات التنفيذيَّة المختلفة. وحاوَلت إِسرائيل أيضاً تطوير نظام الخدمة الاجتماعية لتتلاشىٰ اليوم كل هذه المِيزات الإِيجابية في الوقت الَّذي تتحوَّل فيه إِسرائيل إِلىٰ نظام شبه فاشي.

إِنّ مجموعة العناصر التي تميّز النزعات الفاشية لإِسرائيل هي:

* ثَمَّة تناقص عنيف في معايير حريَّة التعبير، ونزوع متزايد إلىٰ وَصْم المعارضة للسياسة الحالية بـ«الخيانة العظمىٰ».

لقد تمّ التخلُّص من المعارضة البرلمانية بعد ٱبتداع حكومة الأئتلاف الوطني التي تضم حزبَيْ الليكود والعمل، ثم تمّ استبعاد حزب ميريتز وهو الحزب الرئيسي اليهودي الليبرالي اليساري الوحيد الَّذي بقي خارج الحكومة بغرض الدفاع عن السياسات البديلة. كما فضَّل هذا الحزب بزعامة العمّالي العريق يوسي ساريد البقاء داخل الإجماع الوطني، بدلاً من لعب دور المعارَضَة الحقيقيَّة خلال فترة الأزمات في محاولة لتغيير هذا الإجماع. إن خروج حزب العمل من الأئتلاف الحاكِم لم يُحْدِثْ أيَّ فارق يُذكر، فالضرر قد أصاب المجتمع الإسرائيلي، كما أصاب الحزب نفسه.

* ٱزدياد تورّط الجيش في الشؤون السياسية وفي وسائل الإعلام يحمِّل المجتمع الإسرائيلي صبغة عسكريّة مَحْضة، فالحدود الفاصلة بين المجالات العسكريّة والسياسيَّة ضبابية دائماً. ويمتلك الضبّاط أصحاب الرُّتب العالية والمتوسطة تأثيراً هائلاً علىٰ مختلف مظاهر المجتمع الإسرائيلي والموروث السياسي فيه. فالضبّاط الَّذين يتركون الجيش في الأربعينيّات من عمرهم يبقون مؤهلين دائماً لأي منصب قيادي مدني. لذلك لم يحتج الجيش في إسرائيل يوماً إلىٰ ٱنقلاب للوصول إلىٰ الحكم فيها، لأن الجيش، الذي يستخدم درجات متفاوتة من القوَّة، كان دائماً شريكاً في عمليَّات ٱتّخاذ القرارات الرئيسية في البلاد، وكان

يتصرّف وكأن البلاد تعيش تحت الحصار، وتواجه أَزمة وجود مستمرّة، بغضّ النظر عما إِذا كان هذا التهديد حقيقياً أم لا.

* أَصبح ضبّاط الجيش وموظفو الأَمن السابقون، الّذين كانوا أَحياناً يعملون تحت اْسم خبراء أكاديميين، هم المهيمنين علىٰ ترجمة ما يحدث علىٰ أَرض الواقع في وسائل الإِعلام المختلفة. وكانت العلاقات مع الفلسطينيين تُدار مباشرة عن طريق المشاورات بين رئيس الوزراء وجنرالات الجيش الّذين يعتبر معظمهم أَشد تطرُّفاً من شارون نفسه، كما تظهر عمليّاتهم العسكريّة اليومية، ومثالٌ علىٰ ذلك القائد موشي ياعلون. أَمّا باقي الوزراء وأَعضاء اللّجان المفاوِضة فكانوا يُبلَّغون لاحقاً وبعد وقوع الحادثة بالتطوّرات السياسية مع أَنهم كانوا الأَقرب إِيديولوجياً إِلىٰ وجهات نظر شارون ومتفقين معه ضمنياً علىٰ الأَهداف السياسية.

* اْعتبر شارون من عدد قليل جداً من زملائه شخصاً جديراً بالثقة.

إِنَّ شخصيته الفاشية المليئة بالشكّ، وفساد المجتمع الإِسرائيلي وضعف المؤسّسات السياسية الأُخرىٰ فيه، أَدَّت إِلىٰ نتائج غير مرغوبة. لقد تمّ إِحداث النظام غير الرسمي الّذي يسمح باْتّخاذ القرارات الهامة من شخص واحد هو أَرييل شارون.

كانت لكثير من رؤساء الوزراء السّابقين تلك النزعة الفاشية في اْتّخاذ القرارات، غير أَن شارون نجح في تحويل نزعته الشخصية إِلىٰ

نظام مؤسّساتي في الحكم، ونجح في تحييد أي معارضة يهودية وتهميشها.

إن العنصر الحاسم في توجُّه إسرائيل الحالي نحو الفاشية هو تعريف «الآخر» (وهنا يمثل كل من الفلسطينيين في الضفَّة الغربية وقطاع غزّة وصولاً إلىٰ جميع المواطنين العرب في إسرائيل) بأنه الخطر المطلق علىٰ وجود إسرائيل كأُمّة وعلىٰ كل مواطن إسرائيلي شخصياً. هذا التعريف جهّز إسرائيل واليهود والرأي العام العالمي لاتخاذ إجراءات عنيفة ضد الفلسطينيين. وما كان يُعْتَقد قبل شارون غير وارد، أَو علىٰ الأَقل غير صحيح سياسياً، أصبح الآن قضية واضحة وموضع احترام في الاتجاه العام السائد للمداولات السياسية الجارية، فالتطهير الإِثني هو الحل الشرعي لـ«المشكلة الديمگرافية» ولوجود غالبية عربية علىٰ الأَرض. ومع ذلك، فليس واضحاً ما إذا كان صنَّاع القرار الإسرائيليون يعتبرون التطهير الإِثْني خياراً حقيقياً أَم صراعاً نفسياً تكتيكياً يُستخدم كجزء من عمليَّة التصفية.

وبينما تقوم الدّولة بتعزيز العداء الشعبي ضد العرب، تتجاهل في الوقت نفسه الأَزدياد الحادّ في الفقر بين اليهود. حيث كان عدد السكان الّذين يعيشون تحت خط الفقر أواخر سنة 2001 1,169,000 بينهم أَكثر من نصف مليون طفل. وارتفعت نسبة العاطلين عن العمل من 8,8 بالمئة سنة 2000 إلىٰ 11 بالمئة سنة 2001 ثم إلىٰ 12 بالمئة سنة 2002. وخسر الاَقتصاد الإسرائيلي خلال أول سنتين من انتفاضة الأَقصىٰ الثانية التي بدأَت في 29 أيلول/ سپتمبر سنة 2000، ما يقارب

7 مليارات دولار أَمريكي. وكانت الخسارة في إجمالي الناتِج المحلي تعادل 2,5 بالمئة في السنة الأولىٰ و4,5 بالمئة في السنة الثانية. وارتفع الإنفاق العسكريّ خلال هاتين السنتين إلىٰ 0,8 مليار دولار أَمريكي. وحصل نمو سلبي في الدَّخل الوطني وصل إلىٰ 1 بالمئة سنة 2001 وإلىٰ 1,5 بالمئة سنة 2002، وهذه ظاهرة لم تشهدها البلاد منذ سنة 1953. وبينما استمر خط الفقر، الَّذي وصل إلىٰ أعلىٰ درجاته منذ الخمسينيات، في الارتفاع، استمرت الدّولة في تجاهلها لما يحدث، تاركة مصير مواطنيها الَّذين يزدادون فقراً تحت رحمة عدد من المنظّمات الخيرية الناشِطة. وبينما استمرّت الحالة الاَقتصادية في الانحدار، كان المواطنون الإِسرائيليون يطالبون بإِجراءات أَكثر فعالية ضد «الآخر» العرب. وقد أَحدثت التفاعلات بين هذه العمليّات التجليات الرئيسية والنكهة المحلية للفاشية الإِسرائيليَّة.

تتركّز الغاية الأَساسية من هذا الكتاب، في تقديم وتحليل العوامل الخلفية المتعدِّدة، والبحث في كيفية وصول الدّولة الإِسرائيليَّة ومجتمعها اليهودي إلىٰ حَدّ الهاوية وسبب ذلك، في الوقت الَّذي ما زال فيه معظم الإِسرائيليين اليهود غافلين عن الاتجاه الَّذي يسير ضمنه مجتمعهم.

أَخيراً، ملاحظة شخصية: بصفتي إِسرائيلياً وطنياً شديد الالتزام بمصير إِسرائيل ووجودها، بلدي الوحيد، وبصفتي سوسيولوجياً كرَّس معظم حياته المهنية لدراسة المجتمعيْن الإِسرائيلي والفلسطيني، أخط هذا الكتاب بأسىً وأَلم عميقيْن، في ملجئي المؤقت في

تورونتو، وهدفي الشخصي الوحيد من وراء نشر هذا الكتاب، ليس «ضرب إسرائيل» من «يهودي كارِه لذاته» كما سيحاول معظم خصومي السياسيين والإيديولوجيين إثباته ـ وكما حاولوا مع معظم كتاباتي السَّابقة عندما لم يجدوا حججاً أفضل ـ بل إنّ هدفي هو محاولة إضافية أدعو فيها الناس الطيبين والإنسانيين الّذين لم يتبينوا بعد الخطر الحقيقي المحدق بإسرائيل أن يفتحوا أعينهم جيداً. في الحقيقة، إن المعركة من أجل روح ومصير ووجود إسرائيل وكل مواطني اليهود والعرب، معركة عالمية مثل كل القضايا «المحلية» في منطقتنا.

تورونتو

آذار/ مارس 2003

الفصل الأول

الماضي الحاضر

1 ـ التناقض الداخلي والأزمة

بعد حرب 1967 تورّطت الدّولة الإِسرائيلية والمجتمع الإِسرائيلي في أَزمة وجود مستمرّة ومتعمّقة. وكان سبب هذه الأَزمة مجموعة من التناقضات الداخليّة الرئيسيّة التي ترافقت مع الامتصاص التدريجي والمنتقئ للأَراضي الفلسطينيّة المحتلّة وعمليّات التوطين في الدّولة. وسبّب هذا الامتصاص حالة غير مسبوقة من الازدهار الاَقتصادي وزاد من الحراك الاَجتماعي، الأَمر الّذي حجب هذه الأَزمة وأَصبح جزءاً منها. ومع فتح حدود كل من الضفّة الغربية وقطاع غزّة، فاض سوق العمل الإِسرائيلي بالعمالة الرخيصة، وفتحت السوق الفلسطينية أَبوابها أَمام التصدير الداخلي للمنتجات الإِسرائيليّة، وأَصبحت الأَراضي الفلسطينية هدفاً للاستعمار اليهودي[1].

---

(1) إِن العمّال «المياومين» أَو الأُسبوعيين هم الأَرخص دائماً في أَي نظام سياسي ـ اَقتصادي. ولأنهم يعيشون بعيداً عن أَماكن عملهم المحتملة فإِنهم يسافرون في =

ترافقت هذه الحالة الاستثنائية المُلائِمة مع مليارات الدولارات من المساعدات الأَمريكيّة وغيرها من المساعَدات الأجنبية مما جعل الدّولة الإِسرائيلية واحدة من أَكثر الدّول اَزدهاراً في العالَم. وتمتّعت جميع القطاعات في المجتمع الإِسرائيلي بهذا الاَزدهار وشمل ذلك المواطنين العرب. وأطلقت هذه الحالة عملية إِعادة بناء كلّي للنظام الاَجتماعي والاَقتصادي. وتَرَك معظم الإِسرائيليين اليهود المهن التي لا تحتاج إِلىٰ براعة أَو شبه السهلة (كالتي في مجال البناء والخدمات والزراعة والصناعات التكنولوجيّة الخفيفة) التي شغلها في ما بعد العمّال الفلسطينيون، وانتقلوا إِلىٰ المهن الإِدارية والمكتبية الأَصعب (الأَعلىٰ تقنية غالباً). إِن عدد الشركات الإِسرائيلية المسجّلة في سوق الأَسهم ناسداك كان الثاني، بعد عدد الشركات الأَمريكية. وكان الإِنتاج السنوي الفردي سنة 2000 الأَعلىٰ عالمياً حيث وصل إِلىٰ 18,000 دولار أَمريكي.

لقد اَعتمد هذا الازدهار، بكل الأَحوال، علىٰ «السلوك الجيد» والتعاون المستمر من السكّان الفلسطينيين في الضفّة الغربية وقطاع غزّة، وعلىٰ استعدادهم لقبول السياسة الإِسرائيلية في إِشراكهم الكامل في الاَقتصاد الإِسرائيلي واستبعادهم التّام عن جميع المجالات

= الصباح الباكر ويعودون إِلىٰ بيوتهم مساءً، بالتالي فهم لا يحتاجون إِلىٰ أماكن للسكن، ولأنهم ليسوا مواطنين، فهم لا يحصلون علىٰ الضمان الاَجتماعي أو التأمين الصحي أو أي من الخدمات الاَجتماعية الضرورية. بالإِضافة إِلىٰ كل هذا، كانت المنافسة بينهم تساهم في تخفيض أُجورهم أكثر مما هي منخفضة. وهي أُمور تناسب وتفيد النظام المضيف أكثر من العمّال الدّوليين التقليديين المهاجرين.

الأُخرىٰ في الدّولة الإسرائيلية. في الواقع، لقد قبل الفلسطينيون قواعد مستعمريهم لمدة عقد كامل من الزمن مستفيدين من الازدهار الاّقتصادي النّسبي ومتحمّلين تجريدهم الكامِل من معظم الحقوق المدنية والإنسانية بالإضافة إلىٰ فقدانهم الكامل لأي شكل من أشكال الإحساس بالرضا الّذي قد ينشأ عن تقرير المصير أو الرموز الجماعية أو أي ممارسات قومية أو إثْنية.

وأدمن المجتمعان علىٰ هذه الحالة العميقة التناقض وعلىٰ الاتّكال المتبادَل والمتزايد[2]. إن معظم الإسرائيليين والفلسطينيين الّذين نشؤوا ضِمن هذه الحالة الشاذّة اعتبروها طبيعية وكان من الصعب عليهم تخيُّل نوعٍ آخرَ من العلاقة. لم يبدأ هذا النظام بالتصدّع إلاّ بعد أن بدأت الانتفاضة الفلسطينية الأُولىٰ في التاسع من كانون الأول/ ديسمبر سنة 1987 وانهار تماماً مع بدء الانتفاضة الثانية. ومن المهمّ الإشارة هنا إلىٰ أنّ اتفاقيّات أوسلو أيّدت الحالة الاّقتصادية في الوقت الّذي أشبعت فيه رغبة السكان الفلسطينيين بمنحهم الشعور بالرضا بتقرير المصير الرمزي.

بعد أن بدأت الانتفاضة الأُولىٰ تكيَّف الاّقتصاد السياسي الإسرائيلي مع استيراد الضيوف من العمّال الأجانب. وبرغم أن هؤلاء

(2) ربما لهذا السبب تجاهل سكان الضفّة الغربية وقطاع غزّة المحتلّين النداءات المتكرّرة المطالِبة بالثورة التي كان يوجهها لهم قادة منظّمة التحرير الفِلسطينية من خارج الأراضي. وبدلاً عن ذلك طوّروا استراتيجية بديلة متمثّلة بالصمود علىٰ الأرض ليتجنّبوا تطهيراً إثْنياً ثانياً.

العمّال لم يُهدّدوا الأمن العامّ، كما كان يُعتَبَرُ الفلسطينيون، إلاَّ أَن أُجورهم كانت أعلىٰ، ولمّا كانوا أكثرَ استقراراً من العمّال الفلسطينيين الّذين يعيشون خارج إسرائيل، فقد أصبحوا يشكّلون تهديداً محتمَلاً للتركيب الديموگرافي للمجتمع[3].

وبعيداً عن المصالح الاقتصادية في الأراضي، برزت بعد حرب 1967 مضاعفات جديدة ومنها رغبة المجتمع الإسرائيلي بكامله، يميناً ويساراً، ضمّ الأراضي التاريخية الحيوية للشعب اليهودي في الضفّة الغربية دون ضمّ سكانها العرب. إن الضمّ الرسمي سوف يعني أن إسرائيل لن تحظىٰ بالغالبية اليهودية أبداً. والتغييرات الديموگرافية سوف تدمّر الشخصيةَ اليهودية للدولة حتىٰ دون منح الفلسطينيين المواطنة الكاملة. واصطدمت اعتبارات سياسية وديموگرافية مع اعتبارات اقتصادية، يتناقض كلاهما مع قاعدة «كانت Kant» الأخلاقية كما يتناقض مع طلبَ اليهودي ساج هايليل بألا تفعل بـ«الآخر» ما لا تتمنىٰ أن يفعله «الآخر» بك. هذه الاعتبارات الثلاثية شكّلت أزمة

(3) يعرف شارون شخصياً قيمة العمالة الرخيصة لأنه المالك لأكبر مزرعة خاصة في إسرائيل المشهورة بأسم مزرعة شيكميم (شجر الجميز). لقد تمّ شراء المزرعة سنة 1972 بقرضيين سخيين ممنوحَيْن من صديقين أمريكيين هما (ميشولام ريكليس وصموئيل ساكس). وعندما كان شارون وزيراً للزراعة ثم وزيراً للبُنىٰ التحتية سبّبت هذه الملكية نوعاً من تضارب المصالح، وجد له حلاً بتأجير هذه المزرعة إلىٰ أحد الأصدقاء. ويملك شارون أيضاً منزلاً في القدس الشرقية العربية، لم يعش فيه أبداً لكن المنزل كان محروساً بكثافة من شرطة الحدود، ليبرهن بذلك علىٰ الحضور اليهودي ويزعج العرب.

مخفية، وتركت الدّولة والمجتمع الإِسرائيلي غير قادرين علىٰ اتّخاذ القرارات السياسية المهمة والضروريّة لحلّ هذا الصراع. ومع مرور الوقت أَصبحت الأَزمة أكثر وضوحاً وانحازت المصالح المتضاربة مع الأَحزاب السياسيَّة وانهمكت بمسألة الهوية الشخصية والجماعية وحتىٰ بالتيارات الدينية المختلفة («الصقور ضد الحمائم» و«اليمين ضد اليسار» و«الصهيونية ضد ما بعد الصهيونية»).

عندما تسلّمت الكتلةُ الوطنية الجناح اليساري بزعامة حزب الليكود السلطةَ سنة 1977، كان من المتوقع أَن يكون قرارها الأَول، الضمّ الفوري لكامِل الضفَّة الغربية (التي غالباً ما تُدعىٰ باسمها التوراتي يهودا والسامرة) وقطاع غزّة، اللذين كانا يُعتبران جزءاً من أَرضِ إِسرائيل. وفي كل الأَحوال كان هذا بنداً رئيسياً في برنامج الحزب وهو ما دافع عنه مناحيم بيگن زعيم الحزب عندما كان في منصبه. لقد دفع موضوعُ ضم الأَراضي أَرييل شارون بعد مغادرته الجيش سنة 1973، إِلىٰ أَن يطالب بعض الأَحزاب اليسارية الصغيرة والمتوسطة وبعض أَحزاب الوسط بالتوحّدِ خلف زعامة الهيروت، الحزب العريق المتطوّر، الّذي كان يُعتبر، حتىٰ ذلك الوقت، حزباً معارِضاً أكثرَ منه حزباً حاكماً.

ولقد جاءت الحجّة لتجاهل هذا الجزء من برنامج الحزب عن طريق موشي دايان العضو البارز في حزب العمل الّذي تخلّىٰ عن الحزب المنافِس ووافق علىٰ تعيينه وزيراً للخارجية في الحكومة الجديدة بشرط أَن تلغي هذه الحكومة عمليَّة الضمّ من جانب واحد.

إن السبب الحقيقي لفشل ضمّ الأَراضي الفلسطينية المحتلَّة التي كانت تُعتبر الأَرض الأمّ للشعب اليهودي، هو التزايد المتسارع لعدد السكان العرب الفلسطينيين في الأَراضي المحتلَّة. هؤلاء السكان مع المواطنين العرب في إسرائيل سوف يحوّلون الدّولة اليهودية مباشرة إلىٰ كينونة ثنائية القومية حتىٰ لو لم يُمنح السكان المنضمون حقوق المواطنة كاملة أَو الإِذن بالدخول إلىٰ برامج الخدمة الآجتماعية. واليوم، وبرغم الهجرة غير المسبوقة لأكثر من مليون ـ غير عربي ـ (يهودي وغير يهودي) من الاتّحاد السوڤييتي السَّابق، تحتوي المنطقة الممتدة بين البحر المتوسط ونهر الأردنّ علىٰ ما يقارب خمسة ملايين يهودي (وغير عربي) بالإضافة إلىٰ أَربعة ملايين ونصف المليون من الفلسطينيين (مواطنين وغير مواطنين).

تشير التقديرات الديموگرافية الحالية إلىٰ أَن التَعداد السكاني المستقبلي سيكون لصالح الفلسطينيين وسيُعرِّض الأغلبية الديموگرافية اليهودية الهزيلة للخطر. ويعتقد آرنون صوفير الباحِث الجغرافي في جامعة حيفا أنّه في سنة 2020 سيعيش ما مجموعه 15,1 مليون شخص علىٰ أَرض فلسطين التاريخية وسيشكِّل اليهود أَقلية تعادل 6,5 ملايين. وفوق كل هذا، سيتناقص تعداد السكان اليهود من النسبة الحالية بغالبية 81 بالمئة خلال عشرين سنة حتىٰ داخل إسرائيل ذاتها ليصل إلىٰ أغلبية لا تتجاوز نسبتها 65 بالمئة. وقدَّم سيرجيو ديللا پيرگولا الباحث الديموگرافي في الجامعة العبرية الصورة الديموگرافية ذاتها ونصح بإعادة الأَراضي الإسرائيلية المأهولة بكثافة عربية إلىٰ الدّولة

الفلسطينية واستبدالها بثلاث كتل رئيسية من المستوطنات داخل الأَراضي الفلسطينية المحتلّة.

يتجذَّر بعمق في الموروث السياسي الإِسرائيلي نوعان من القلق الوجودي: الأوّل يتعلّق بالإِلغاء المادّي للدولة، وهو قضية كثيراً ما اَستُخْدِمت وأُسيء اَستخدامها، وتمّ التلاعب بها عاطفياً علىٰ أيدي كثير من السياسيين والمثقفين الإِسرائيليين، والثاني هو خسارة الغالبية الديموگرافية اليهودية الهشَّة التي تستند عليها مسألة هوية الدّولة وسيادتها. إِن خسارة هذه الغالبية الديموگرافية قد تكون فاتِحة للتصفية والإِلغاء المادّي للدولة. لذلك وجد معسكر الضمّ نفسه في موقف صعب: تعارض الحاجة الوطنية للاستحواذ علىٰ الأَرض المقدَّسة مع الحاجة الوطنية الأُخرىٰ لتأكيد الغالبية اليهودية العظمىٰ علىٰ الأَرض. وأدَّت هذه التناقضات الداخلية إِلىٰ بعض المقترحات السخيفة الساذجة مثل طلب موشي دايان «التقسيم الوظيفي» للحكم بين إِسرائيل والأردنّ. وكان جوهر الخطّة أَنّه من الواجب علىٰ إِسرائيل أَن تسيطر علىٰ الأَرض عسكرياً (لأَسباب «أمنية») ولأَهداف الاستقرار، وعلىٰ الأردنّ أَن تسيطر علىٰ السكان سياسياً وإِدارياً، وتشرف علىٰ كل الخدمات وتمنح السكّان كامل المواطنة، بما في ذلك التصويت، والترشيح في البرلمان الأردني[4]. لم يكن

(4) كانت هذه هي الحالة علىٰ أَرض الواقع لمدة عشر سنوات. وكان الهاشميون مهتمين بالسيطرة علىٰ سكان الأَراضي المحتلّة من أَجل منع عودة ظهور هوية سياسية فِلَسطينية قوية وبعد اَتّفاق ضمني مع إِسرائيل استمروا بدفع رواتب الموظفين المدنيين في =

الأردنيّون ولا الفلسطينيون مهتمين بمثل هذا الطرح. ويجب التنويه هنا إِلىٰ أَن أَرييل شارون اقترح نسخة أَكثر تطرُّفاً من خطة موشي دايان سيتم شرحها لاحقاً.

ومن الضروري القول هنا أَن نسبة قليلة من الإِسرائيليين اليهود ونسبة أَقل من يهود الشتات يشعرون بنوع من تأنيب الضمير تُجاه تجريد ملايين العرب الفلسطينيين من كامل الحقوق المدنية ومعظم الحقوق الإِنسانية. وعندما عَبَّر ييشعيا هو ليبويتز، الفيلسوف وأَحد أَبرز الأَصوات الإِسرائيلية، عن معارضته كانت حُجَّته أَنانية لكنها صحيحة وهي أَن الاحتلال يفسد المحتلّين ويشوّه نسيج المجتمع الإِسرائيلي. ومن الخطير أَنّه لم يناقَشْ أَن الاحتلال شرٌّ متأصلٌ بالفطرة. إِن معظم الّذين عارضوا استعمار الأَراضي المحتلّة قاموا بذلك لأَسباب عملية، محتجين بأَن هذا سوف يلوّث صورة إِسرائيل وسوف يضعف من قوّة وجودها في المنطقة. وكل هذه الآراء صحيحة ولكن ينبغي أَن تُتبع بضرورات أَخلاقية تُعلِن على نحو لا لبس فيه أَن احتلال واستعباد الناس واستعمارهم غير الضروري وسرقة مياههم وأَرضهم خطايا لا تُغْتَفَر.

فجأة، لم تعد النُّخبة في معسكر الضمّ مهتمة باستمرارية «الشخصية اليهودية» للدولة فقط، بل بالنتائج الداخلية للسيطرة علىٰ

= الضفّة الغربية، بمن فيهم رجال الشرطة بالإِضافة إِلىٰ إِدارة النظام التعليمي العام. وبكل الأَحوال يبقىٰ الأردن غير راغب في السماح لإِسرائيل بالسيطرة علىٰ أَراضي الضفّة الغربية ومياهها.

شعب آخر أيضاً. ومع ذلك كان الحلّ المقترح من هذا المعسكر بعيداً جداً عن الانسحاب من الأَراضي المحتلة وعن منح حقّ المواطنة الكاملة لسكّان إسرائيل الفلسطينيين. إن قسماً كبيراً من جمهور الناخبين الّذين صوّتوا لصالح أَرييل شارون توقّعوا منه تقديم «الحلّ المناسب» للمشكلات والتناقضات داخل الجناح اليميني، ولكنهم كانوا أَقلّ اهتماماً بنوعية هذا الحلّ. كان شارون يعرف ذلك تماماً، وربما كان هو، كما سيوضح هذا الكتاب لاحقاً، من وجهة نظر مؤيديه، الشخص المناسب في المكان المناسب وفي الزمان المناسب.

2 ـ السياق التاريخي

إن مأساة الصهيونية تكمن في مفارقتها التاريخية، ولكن لا يمكن ملاحظة هذا إلاّ من خلال المنظور الاستعادي. فبعد المذابح المُنَظَّمة في أوروبا الشرقية سنة 1880 ـ 1881، هاجرت موجات كبيرة من اليهود إلىٰ بلاد مُضيفة جديدة بحثاً عن حياة أَفضل وأَكثر أمناً. ووصل بعضهم إلىٰ الأَراضي المقدَّسة، مقصد أَحلامهم. ومع ذلك، فضلت الغالبية العظمىٰ من اليهود ـ اليهود أُعيد تعريفُهم سياسياً وقومياً، حتىٰ بعد الهجرة إلىٰ الأَرض المقدَّسة، بالصهيونية في المصطلح الأوروبي ـ الخلاصَ الفرديّ بالاتجاه غرباً بدلاً من الخلاص الجمعي الّذي تقترحه الإِيديولوجية الصهيونية.

وهكذا، كان بين الـ65 مليوناً من الأوروبيين الّذين هاجروا إلىٰ

العالَم الجديد خلال القرن التاسع عشر، أكثر من 4 ملايين يهودي، يُشكِّلون 6 بالمئة من المجموع الكلّي للمهاجرين، مقارنة بـ1,5 بالمئة نسبة تمثيلهم في المجموع الكلّي لسكان أوروپا. وخلال الربع الأول من القرن العشرين، هاجر ما يقارب 20 بالمئة من اليهود الأوروپيين إلىٰ القارة الأَمريكية وقلّة قليلة جداً إِلىٰ بيت المقدس. ولولا الكساد الاَقتصادي الَّذي بدأ أواخر العشرينيات وما تبعه من قيود علىٰ الهجرة، لكان من المحتمل جداً أَن يهاجر معظم اليهود الأوروپيين إلىٰ أَمريكا في الثلاثينيات، وكانوا بذلك قد قلَّلوا فرصة حدوث المحرقة وربما منعوا إِقامة الدّولة اليهودية في فلسطين. لكن التاريخ لا يعترف بـ «لو».

كانت تبدو «عودة» اليهود الَّذين اعتقدوا أنّهم امتلكوا البلد بعد أَلفي سنة من المنفىٰ للسكان العرب المحليين سخيفة وغير مقبولة وخطيرة. وكان اليهود بالنسبة إِليهم ـ ومعظمهم سَكَن البلد لأجيال عديدة ـ مستعمرين أوروپيين يحاولون الاستيطان علىٰ أَرض عربية ومصادرتها تحت حماية القوىٰ الإِمپريالية. وتأكّدت شكوكهم سنة 1917 عندما أَخذ البريطانيون الأَرض من الإِمبراطورية العثمانية ومنحوها، عن طريق وعد بلفور، إِلىٰ اليهود من أَجل إِقامة «وطن قومي» يهودي (باسم دولة). تشكَّلت في فلسطين مباشرة المنظّمات الوطنية العربيّة التي رفضت، منذ ذلك الوقت حتىٰ سنة 1993، بأستمرار وبحزم القبول بأي حقّ معنوي أَو سياسي لليهود علىٰ الأَرض.

وكانت ردود الفعل في الغرب متعاطفة جداً مع الصهيونية ومع وعد بلفور. فالموروث البروتستانتي ـ اليهودي رأىٰ في عودة اليهود إلىٰ بيت المقدس مُقدّمة وبشارة دينيَّة، توسّعت تدريجياً علىٰ مرّ العقود حتىٰ وصلت إلىٰ ذروتها بين الأصوليين المسيحيين الأَمريكيين الحاليين. وكان العرب، خلافاً للبدو النبلاء الجفاة، مبعدين كشعب بدائي غير مؤهّل لتقرير مصيره. وتطوّرت الجماعات اليهودية الإِثْنية في فلسطين خلال ثلاثين سنة من الحكم الاستعماري البريطاني (أَو ما يُسمّىٰ الانتداب)، إلىٰ مجتمع من المهاجرين المستوطنين قابل للنمو تحوّل سنة 1948 إلىٰ دولة إِسرائيل.

تُطوِّر المجتمعات المهاجِرة ـ المستوطنة سياسات مختلفة تُجاه السكان المحليين. ففي أَمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلاندا تجاهلت ذهنية الروّاد الأحرار تماماً وجود السكّان المحليين كبشر، وصنّفتهم جزءاً من المحيط الطبيعي العدائي، وانتهىٰ هذا الموقف بعمليَّة إِبادة جماعية. وفي جنوب أفريقيا وروديسيا اُستُخدم السكان المحليون قوةً عاملة رخيصة، لكنهم عُزلوا بقسوة عن العِرْق الأَبيض الحاكِم. وفي أَمريكا اللاتينية الكاثوليكية، تبنَّىٰ الفاتحون استراتيجية معكوسة فبعد إِبادة وتَصفيةِ الثقافاتِ أَو الحضارات المحلية الكبيرة مثل الأزتيك والأنكا وبعد الاعتناق الجماعيّ للدِيانة المسيحية من معظم السكان المحليين الناجين، شجّع الفاتحون الزواج المختلط إِيديولوجياً، وإِن كان بدرجات متفاوتة. وأنتجت هذه الاستراتيجية الضِمنية أُمماً مختلطة عرقياً وجديدةً تماماً.

كان في فِلَسطين كلا المجتمعان في حالة صَدّ عالية، لكنهما كانا ٱقتصادياً في حالة ٱتكال متبادَل بدرجاتٍ متفاوتة. ٱعتمدَ اليهود جُزئياً علىٰ العمّال العرب وكلياً علىٰ أصحاب الأَراضي العرب الّذين يشترون منهم الملكية. وٱستمتع بعض السكان العرب بالتدفُّق الرأسمالي الَّذي رافقَ الموجاتِ المختلفةِ من الهجرة اليهودية. وحتىٰ سنة 1948 لم يكن العرب ولا اليهودُ قد ٱمتلكوا القوةَ السياسيَّةَ والعسكريّة الكافية للتخلُّص من الآخَر، برغم العداوةِ الكبيرة بينهم التي أدَّت إلىٰ معاركَ دوْريةٍ عنيفةٍ بَلغت ذُرْوَتها في الثورة العربية الفِلَسطينية الكبرىٰ بين سنتي 1936 ـ 1939.

من الضروري أَن نفهم أَنّ المجتمع اليهودي في فِلَسطين كان مبنيًا مؤسساتيًا وإدراكياً وعاطفياً علىٰ «وهم» يهودي حصري. وكانت الخطط من أَجل الدّولة الجديدة حصرية أَيضاً. وكان من المفترَض أَن تكون الدّولةُ اليهوديةُ يهوديةً خالصةً، ولم تكن الوسائل السياسية أَو البيروقراطية جاهزة للاحتمال الوارِد في جميع ٱقتراحات التقسيم، بأن الأَقلية العربية الكبيرة سوف تبقىٰ داخل حدود الدّولة اليهودية. هذا الاحتمال كان معترَفاً به فقط في البيانِ المنمّق لإعلان الاستقلال.

3 ـ أحداث سابقة: المحاولة الأُولىٰ للتصفية

إِن استعمار الضفّة الغربية وقطاع غزّة من المستوطنين اليهود قاد الدّولة الإِسرائيلية إلىٰ طريق مسدود. ومن العسير فهمْ نوايا شارون وحلفائه السياسيين أَو فهم حلولهم المزعومة لهذا المأزِق دون معرفة

ما حدث خلالَ الحربِ الإِثنية المتبادَلة سنة 1948. إن «عجيبة» 1948 تُشير إِلىٰ حقيقةِ أَنّ أَراضيَ الدّولة اليهودية قد توسَّعت إِلىٰ ما وراءَ الحدود المرسومة لها وِفق قرار الأُمَم المتّحدة بتاريخ 29 تشرين الثاني/ نوڤمبر 1947. لكنّ الأهمَ، مِن وجهة النظر الإِسرائيلية، أَنّ الأَراضيَ قد خلت تقريباً من سكّانها العرب وأن مجتمع الفِلَسطينيين ـ العرب المزاحم قد وُئِد ككينونة ٱجتماعيةٍ ـ سياسية.

لقد برهن المؤرخ بيني موريس Benny Morris في مجلّدين مختلفين (نشوء مشكلة اللاجئين الفِلَسطينيين والضحايا المبرّرة: تاريخ الصراع الصهيوني ـ العربي) مدىٰ تجذُّر فكرة «ترحيل» السكان في التفكير الصهيوني السَّائد، لكنه فشل في الربط بين هذه الأَفكار وبين الأَحداث الفِعلية لحرب 1948. وجاءت القصة الكاملة لعملية التطهير الإِثني هذه في المجلد الثامن في كتاب تاريخ الهاگانا، وهو إِصدار رسمي عن دار النشر العسكريّة الإِسرائيلية. ولم تُترجَم هذه السلسلة العبرية إِلىٰ أَي لغة أجنبية.

وفقاً لهذه النشرة، كان المبدأ العسكريّ الأول، الّذي يمكن اعتبارُه مبدأً عسكرياً إِسرائيلياً، ما يسمىٰ الخطة د (الخطة دلتا)، التي طَوَّرها الجنرال ييگيل ياعدين، رئيسُ فَرع العمليّات في القوّات المسلَّحة الإِسرائيلية (الّذي تأسَّس رسمياً في 31 آذار/ مارس 1948)، وانطلقت في 10 آذار/ مارس 1948 قبل الصِّدام العسكريّ المتوقَّع بين المجتمع اليهودي مُنشئ الدّولة، وبين المجتمع العربي والتدخُّل المفترَض من القوّات العسكريّة للدُوَل العربية. وقد أَعلنَ ياعدين في

مُقدمةِ الخطة أنّ الغاية من هذه الخطة هي السيطرة علىٰ منطقة الدّولة اليهودية والدفاع عن حدودها وفق قرارات الأُمَم المتّحدة في خطة التقسيم وعن مجموعة المستوطنات [اليهودية] خارج الحدود [المرسومة من الأُمَم المتّحدة للدولة اليهودية]، ضدّ القوّات العدوّة النظامية وغير النظامية التي تعمل من قواعد خارج وداخل الدّولة [اليهودية].

وأَكثر من هذا، لقد أقترحت الخطّةُ العمليّات التالية، ضمن غيرها، من أَجل الوصول إِلىٰ هذه الأَهداف.

[عمليّات] ضد مستوطنات العدوّ الموجودة داخل أو قربَ أنظمتنا الدفاعية [وهذا يعني المستوطنات والمواقع اليهودية] بهدف منع أَستخدامها قواعد لنشاط القوّات المسلَّحة [المعادية]. علىٰ أَن تُنجَزَ هذه العمليّات علىٰ الشكل التالي: تدمير القرىٰ بالحرق والتفجير وزرع الأَلغام، وبخاصّة تلك القرىٰ التي لا نستطيع أَن نسيطر عليها سيطرة [دائمة]. إِن كسب السيطرة سوفَ يُنْجَزُ وَفقاً للطرقِ التالية: تطويقُ القرىٰ وتفتيشها، وفي حال حدوث مقاومة، تُدمّر القوىٰ المقاوِمةُ ويطرد السكان إِلىٰ خارج حدود الدّولة.

وما يبدو للوهلةِ الأولىٰ مجرد مبدإٍ عسكريّ محدّد، يُهَيِّئ المَيدان لغزوٍ محتَمَلٍ من الجيوش العربية، يتضمّن في الحقيقة إِجراءاتٍ بعيدة المدىٰ تؤدي إِلىٰ تحويل ديموگرافي وإِثْني وأَجتماعي وسياسي لفِلَسطين من أَرض عربية إِلىٰ دولة يهودية. لم تكن الخطة «د» كغيرها من الخطط العسكريّة الكثيرة التي تُعَدُّ مِن الجنرالات ثم تُترك علىٰ

الرف. لقد كانت خطةٌ منجزةً بالفعل. ففي 14 آذار/ مارس 1948، أُعلنت (حالة طوارئ) من الدرجة «د» وتلقّتْ الوَحَداتُ المقاتلةُ كافة الأَوامرَ لتنفيذ الخطة «د».

تنفيذاً للأمرِ وتمسّكاً بهذا المبدأ، غزت القوّات العسكريّة الإِسرائيلية حوالَي 20,000 كيلومتر مُربع من الأَراضي (مقارنة بـ14,000 كيلومتر مربع منحها إياها قرار التقسيم في الأُمَم المتّحدة) وأَخلَتْها إخلاءً كاملاً من سكانها العرب. أَصبح حوالي 750,000 من العرب الَّذين كانوا يعيشون علىٰ هذه الأَرض قبلَ أَن تسقط تحتَ السيطرة اليهودية لاجئين بعد حرب 1948. وبقي أَقل من 100,000 عربي تحت السيطرة اليهودية بعدَ قرار اتّفاق وقف إطلاق النار مع الدّول العربية التي غزت البلد من أَجل الدفاع عن الفِلَسطينيين ومنعِ إقامةِ الدّولة اليهودية، أَو ببساطة من أَجل المشاركة بالغنيمة. وتمّ تطويق 50,000 عربي إضافي داخل أَراضي الدّولة الإِسرائيلية بعد اتّفاق الهدنة الإِسرائيلي ـ الأردنيّ الَّذي نقل عدداً من القرىٰ العربية إلىٰ الحُكم الإِسرائيلي. من وجهة النظر هذه، توافَقَ المبدأُ الَّذي تأَسَّسَ وفق الخطّة «د» تقريباً مع كل من متطلبات الحرب الشعبية وحرب الدّول في المرحلة اللاحقة، بعد تصفية العدوّ الشعبي الداخلي[5].

(5) كانت الجيوش العربية تستخدم المبدأ القديم، القاضي بأن تغزو الفِرق العسكريّة المتقدّمة وتدمّر أي مستوطنة أو قِوىً مقاومة من أجل تجنّب ترك خطوطهم الخلفية وأجنحتهم دون حراسة. ولو أنهم استخدموا المبدأ البديلَ بالتقدّم السريع بأتّجاه المراكز الكبيرة المأهولة للعدو والمناطق الرئيسية لتمركز القوّات، لكان من المحتمل أن يصلوا إلىٰ نتائج مختلفة تماماً في حرب 1948.

أكثر من هذا، لقد عكس هذا المبدأ بوضوح الطموحات الإيديولوجية للصهيونية المحلية بالحصول على أكبر إقليم يهودي متصل خالٍ من الوجود العربي كشرط ضروري لإنشاء دولة ـ أمّة يهودية حصراً. ونجحت الوكالات العامة اليهودية والمستثمرون الخصوصيّون، حتىٰ حرب 1948، بشراء حوالي 7 بالمئة فقط من أراضي فِلَسطين. أثبتت أنّها كافية لبناء مجتمع قابِل للحياة لكنها استنزفت إمكاناتهم المالية وفشلت في تأمين أراض احتياطية من أجل توسيع فِلَسطين اليهودية. وقرّروا، الآن، استخدام السيف بدلاً من المال من أجلِ توسيع ثَرَواتِهم الإقليمية. لقد وفّر النظام الاستعماري البريطاني مِظلّةً سياسيةً وعسكريّةً للمشروع الصهيوني الّذي استطاع تحتها أن يُطوّر بنيته المؤسَّساتية والاقتصادية والاجتماعية الأساسية، لكنها ضمنت أيضاً المصالح الأساسية للعرب ككل. وعندما أُزيحت المِظلة البريطانية، وجد العرب واليهود أنفسهم وجهاً لوجه في حالة تشبه ساعة الصفر. وبرفض خطة التقسيم كانت المجتمعات العربية وزعاماتها واثقة ليس فقط بحقّها المُطلق في السيطرة علىٰ البلد بكامله بل أيضاً بقدرتها علىٰ القيام بذلك. وعرفت قيادة المجتمع اليهودي أنّها لا تملك القوة الكافية للسيطرة علىٰ كامل أراضي فِلَسطين ولطرد أو لحكم غالبيتها العربية، فقبِلت بخطة التقسيم لكنها استثمرت كلّ الجهود لتحسين شروطِها وتوسيع الحدود إلىٰ أبعَدِ مدًىٰ تستطيع واحتواء أقل كمية من السكان العرب داخلها.

وبِرُغم نتائجها ودلالتها السياسية البعيدة المدىٰ لا يوجد دليلٌ قويٌّ علىٰ أنّه تَمّ تبنّي الخطة «د» رسمياً علىٰ المستوىٰ السياسي، أو

حتىٰ تمّت مناقشتها علىٰ هذا المستوىٰ. وإذا تَبنيتُ أنا مفهومَ نظرية المؤامرة، يمكن أَن أستنتج أَنّ كثيراً من القادة الوطنيين يعتقدون أَنّ هناك أَوامر وخططاً من الأفضل ألاّ تُناقَش أَو تُعلَن رسمياً. وفي كلّ الأحوال، إن الطريقة التي أُديرتْ بها العمليّاتُ العسكريّةُ اليهودية في حرب 1948 لا تَتركُ مجالاً للشكّ بأن القوّاتِ العسكريّةَ اليهوديةَ قد ٱستَخدمتْ هذا المبدأ خلال الحرب أَو للشك بالمفاهيم والروح التي تكمن وراءه.

لم يكن معظم السكان الإسرائيليين غيرِ المقاتلين، حتىٰ الجنود الَّذين ينفِّذون سياسة «التطهير» الإِثْني بالضرورة مدركين نتائج أَعمالهم، إنهم يعرفون فقط الصورة الموضعية المجزَّأة لمَيدان المعركة باعتباره مَيدان «تطهير». وبعد عدة سنوات من الحرب، كتب ييزهار سميلانسكي، أَبرز الروائيين الإسرائيليين، قصةً قصيرةً بعنوان «شيربيت هيتزا». تصف القصةُ مشاعرَ جنديّ إسرائيلي شاب وحسَّاس نَفَّذَ أَمراً بوضعِ جميع سكان إحدىٰ القرىٰ العربية في شاحنة وترحيلِهم بالقوة خارجَ الحدود. وصَف سميلانسكي الصراعات الداخلية والتردّدَ الأَخلاقي لشخصية الشاب وخجلَه من الناس الَّذين استؤصلوا من جذورهم. لم يتجنّبْ سميلانسكي التلميحَ إلىٰ التشابه بين عمليّة إخلاءِ العرب وعمليّةِ إجلاءِ اليهود من قبل النازيةِ في أوروبا. لكن الجنديَّ الشاب تخيّل بسعادةٍ، الكيبوتز اليهوديَّ الجميل الَّذي سيتم تشييدُه علىٰ هذه الأَرضِ المصادَرة. وٱحتقر سميلانسكي شخصيته أيضاً بجعله هو نفسه مثاراً لسخرية

الآخرين، فهو الجندي الوحيد في الوحدة الَّذي شعر بتردّد أَخلاقي تجاه تنفيذ الأَمر.

هكذا، كان المجتمع الإِسرائيلي قادراً خلال المرحلة الأولىٰ من حرب 1948 علىٰ تنفيذ عمليَّة «التطهير» الإِثْني تنفيذاً شبه كاملٍ ضد المجتمع المُزاحم، وهي العمليَّة التي وافقت عليها، في ذلك الوقت، معظم المجتمعات الدّولية لاعتبارها إِياها نتيجة طبيعية لتلك الحرب. لقد كانت حرباً شاملة، ولو انتصر العرب فيها، لكان من المتوقع أَن يقوموا بإِبادة اليهود في فِلَسطين، وليس بتصفيتهم فقط.

في هذا السياق تصبح الأَسباب التي أَدَّت إِلىٰ نتيجة الحرب هذه متوقَّعة. إِضافة إِلىٰ أَنَّ كل هذا قد حدث بعد ثلاثِ سنوات فقط من عمليَّة الإِبادة الجماعية النازية المرعبة ضد اليهود، وفي الوقت الَّذي ما زال فيه الملايين من اللاجئين والمشرّدين يطوفون أوروپا بعد الخرابِ الَّذي سبَّبَته الحرب العالَمية الثانية. وحتىٰ هذا اليوم، يحاول كثير من الفِلَسطينيين التأكيد علىٰ أَنهم دفعوا الثمن الأَكبر للجرائم الأوروپية ضدَّ اليهود.

في اليومين الأَخيرين من الحرب، التي تسمّىٰ حرب الأَيام الستّة، جرت حادثة أَقل شهرة وأَقل توثيقاً. فبعد أَن هزمَت إِسرائيل الجيشين المصري والأردنيّ هزيمة قاطعة بالإِضافة إِلىٰ هزيمة القوىٰ الجوية السورية (تمّ تدمير القوىٰ الجوية لمعظم الدّول العربية المجاورة علىٰ الأَرض إِثر هجوم مفاجئ ناجح وجيد التحضير قامت به القوىٰ الجوية الإِسرائيلية)، طالب اللوبي القوي للكيبوتزيم

الشمالي الحكومةَ والأَركانَ العامةَ بالاستيلاء علىٰ مرتفعات الجولان السورية. وعانت هذه المستوطنات لسنوات من قصف مدفعي سوري كثيف ـ جاء بعضه بعد استفزاز شارون عندما قاد لواء علىٰ الجبهة الشمالية ـ ومن معارك عسكريّة مستمرة بين الإِسرائيليين والسوريين حول منابع نهر الأردن. وتعتبر هذه المستوطنات الآن فرصة وحيدة لتفادي التهديد السوري وللانتقام. لكن وقبل كل شيء، كان الإِسرائيليون راغبين بالأَراضي الخِصبة والمياه الغزيرة لهذه المرتفعات. بعد يومين من المعارك الدامية، دخلت إِسرائيل الأَراضي (بما فيها، القنيطرة، أَقرب مدينة إِلىٰ دمشق والتي أُعيدت فيما بعد إِلىٰ سورية) وطردت ما يقارب 80,000 من الفلاحين العرب السوريين قبل أَن تهدم حوالي 130 قرية. وحدها القُرىٰ الدرزية بقيت سالمة، بعد تدخّل الإِسرائيليين الدروز، الَّذين كانوا يُعتبرون حلفاء أقوياء لإِسرائيل والجماعة الإِثْنية الوحيدة غير اليهودية، ما عدا جماعة شركسية صغيرة، خضعت للتجنيد الإِلزامي في القوّات المسلّحة الإِسرائيلية. وتمّ ضَم هذه الأَراضي إِلىٰ إِسرائيل سنة 1982، بينما تمّ ضَم القدس الشرقية بعد حرب 1967 مباشرة وأَصبحت جزءاً من «المدينة الموحّدة ثانية».

ويتبنّىٰ اليوم بعض القادة الإِسرائيليين والشخصيات العامة الأَكثر تعصُّباً فكرة سياسة «التطهير» الإِثْني، منتظرين الوقت المناسب لتنفيذها، بينما يصمت معظم السياسيين في الجناح اليميني، بمَن فيهم

شارون، ولا يعبِّرون عن أي تحفظات أَخلاقية تجاهها[6]، ما عدا استثناءً بارزاً هو بنيامين ز. بيگن، ابن الراحل مناحيم بيگن. ومن الملفت للنظر أنّه، وحتىٰ بداية هذا القرن، ما زال القادة الإِسرائيليون والمثقفون وحتىٰ المؤرخون ـ بٱستثناء قلّة من المؤرخين المنشقين وعلماء المجتمع اتُّهِموا بتزييف التاريخ الرسمي الإِسرائيلي لأغراض تتعلّق بنزعاتهم المعادية للصهيونية واستخفافهم بذواتهم أَو بحثاً عن شهرة شخصية ـ يرفضون وينكرون الحدوث الفعلي «للتطهير» الإِثْني سنة 1948. إِن الرواية الرسمية لـ«الهرب العربي» هي أَن العرب قد هربوا بسبب الخوف من عدم الاستقرار الداخلي (هذا صحيح في الطبقة المتوسطة والعليا من العرب الفِلَسطينيين) ولأن الزعماء العرب قد طلبوا منهم المغادرة من أَجل إِفساح المجال أَمام الجيوش العربية التي ستقضي علىٰ الوجود اليهودي (وهي حجة كاذبة تماماً). وعندما طُلب بعد ذلك، من إِسرائيل قبول عودةِ اللاجئين، رفضت، بحجة أَن تبادلاً

---

(6) بعض الأَمثلة عن هذه الشخصيات ريهافام زيڤي الّذي اغتيل مؤخّراً علىٰ يد فريق التصفية الفِلَسطيني، ورابي بيني إيلون الرئيس الحالي والأَسبق لحزب موليديت، وأڤيگدور ليبرمان قائد أحد الأَحزاب الروسية، وإِفراييم إِيتام (فيين) رئيس الحزب الديني الوطني البارز. ويمكن أَن نضيف إِلىٰ هذه القائمة أَيضاً أَسماء عدد من الوطنيين المتدينين البارزين والحاخامات الأرثوذكس. وكان النصير الأَصيل «للتطهير» الإِثْني القوي لجميع العرب من كامل أَراضي إِسرائيل مير كاهانا، الّذي فاز حزبه كاش بمقعد واحد في الكِنِيسْت الإِسرائيلي سنة 1948. وفي سنةَ 1985، أُقِر تعديل يمنع منعاً صريحاً المرشحين العنصريين من التقدُّم للكِنِيسْت. ولتجنّب هذا القانون، تبنّىٰ أتباع كاهانا العبارة الرمزية «الترحيل.الطوعي». مع ذلك، ولأَنّ الكلّ يعرف أن أقلية ضئيلة فقط من العرب سوف تختار المغادرة الطوعية، فُهمت هذه الصيغة الجديدة علىٰ أَنّها مجرد تملّق للقانون المعادي للعنصرية.

بين السكان والملكيات قد تمّ: «امتصّت» إسرائيل اليهود المُضْطَهَدين من الأَراضي العربية، وتسلَّمت الدّول العربية بالمقابل الإِخوة الفِلَسطينيين وممتلَكات اليهود العراقيين والمصريين بشكل رئيسي.

ومع أَن النكران المتكرّر «للتطهير» الَّذي تمّ سنة 1948 أَصبح أَقل الآن، إلاَّ أَنّه لم يصبح بعد معلومة عامّة في إِسرائيل. ولقد اعتبرته مجموعةٌ مركزيةٌ من قادة الجناح اليميني والمستوطنين، لا مجرد سابقة، بل خطوة أولىٰ لعمليَّة مستمرة. وِفقاً لهذه الرؤية، لا يزال البقاءُ الفعليُّ للدولة موضعَ شك ما لم «تطهَّر» الأَراضي اليهودية من العرب بأَسرع وقت ممكن. واليوم، يضم الائتلاف الحاكم أحزاباً تروِّج لـ«ترحيل» السكّان الفِلَسطينيين كَحلّ لـ«المشكلة الديمگرافية». ويُصرِّح السياسيون بمَن فيهم أَعضاء الكِنِيسْ مثل مايكل كلاينر وبيني إِيلون في وسائل الإِعلام بشكل دوري باقتراح الترحيل القسري للعرب من البلاد. وفي مقابلة حديثة لصحيفة «هاآرتز» وصف موشي ياعلون رئيسُ الأَركان، الفِلَسطينيين بـ«الظاهرة السرطانية» وساوىٰ بين العمليَّات العسكريّة في الأَراضي المحتلة وبين «العلاج الكيميائيّ»، معتبراً أنَّ المعالجة الجذرية قد تكون ضرورية. وأيَّد رئيس الوزراء شارون هذا «التقييم الواقعي». وقد تشير الديماگوجية العنصرية المتصاعدة تجاه المواطنين الفِلَسطينيين في إِسرائيل إِلىٰ حجم الجرائم التي يمكن أَنّها دُرِسَت أَو خُطِّطَت، والتي تنتظر الوقت الملائم للتنفيذ.

4 ـ العمليّات الإيديولوجية والعسكريّة

لقد تغيّرت كثيراً، منذ آذار/ مارس 1948، الشروط العالَمية والعسكريّة والاجتماعية والسياسية التي أدَّت سنة 1947 إلىٰ صياغة مبدأ ييگييل يادين العسكريّ، ويعود هذا جزئياً إلىٰ التنفيذِ الناجحِ لخطة يادين. ومع ذلك، بقيّت بعضُ المقدّمات الأساسيةِ والمفاهيم الإيديولوجية التي كانت وراءَ الخطة «د» موجودةً ومتجذّرةً بعمق في الأفكار الاجتماعية والعسكريّة الإسرائيلية، والأكثر من ذلك في التفاعل بينهما. في ما يلي إحدىٰ هذه المقدمات: إنّ القلق من وجود تناسق ديموگرافي بين الجهات المتنافسة يعود إلى أنّ اليهود هم «القلة» دائماً والعرب هم «الكُثرة» دائماً. وبرغم ذلك، لم يعترف يادين بوضوح أن أوامره بتدمير القرىٰ العربية المعادية، التي لم تستطع القوّات اليهودية تحقيق السيطرة الدائمة عليها، كانت بالأساس بسبب نقصِ القُوّة البشرية وعدمِ القُدرة علىٰ تشكيل جيشٍ صامد يُمارس السيطرة المباشرة علىٰ السكّان العرب المعادين الّذين سقطوا تحت الحكم اليهودي. لقد كانت معظم القرىٰ المسْلِمة وبعض الأحياء والقرىٰ المسيحية العربية تُعتبر معاديةً. حتىٰ إنَّه تَمّ ترحيل بعض السكان العرب الّذين كانوا يُعرَفون بالودودين، كما حدث، علىٰ سبيل المثال، للقرىٰ المارونية بيرم واكريت، وكما حدث للحي الرئيسي المسلم في حيفا. إن ادعاء عدم التناسق الديموگرافي أصبح القاعدة لكل صِيغ مبادئ الأَمن القومي الأُخرىٰ. بما في ذلك المبدأ الأَخير

الَّذي أَعلنه الجنرال إِسرائيل تال سنة 1996، معتمِداً علىٰ ٱفتراض النتائج الٱجتماعية والسياسية لـ«الأَقلية ضدَ الأَكثرية».

وربما كان التناقض الديموگرافي الهائل بين مجتمع المستوطنين اليهود ومحيطهم العربي هو المحور الأَساسي في كل ٱلمداوَلات الخاصّة بالأَمن القومي الإِسرائيلي. وحتىٰ في هذه الحالة، كانت الاستراتيجية العسكريّة تحظىٰ بدرجة كبيرة من الحرية للتلاعب علىٰ مختلف حدود العلاقات اليهودية ـ العربية. وقُسّمت هذه الحدود علىٰ الشكل التالي: الدائرة الفِلَسطينية نفسها لها ثلاثة أَقسام علىٰ الأَقل، المواطنون الفِلَسطينيون في إِسرائيل، والفِلَسطينيون داخل الأَراضي التي احتلّت بعد حرب 1967، والفِلَسطينيون في جميع أَنحاء العالَم (أَو في الغربة، فِلَسطينيو المنفىٰ). وهناك الدّول العربية المجاورة لإِسرائيل (لبنان وسورية والأُردنّ ومصر). والدّول العربية غير المجاوِرة لإِسرائيل (العراق والسعودية ودولة الإِمارات وليبيا، وإِلخ.) في الدائرة الثانية، والتي يُشار أَحياناً إِليهما معاً بالعالَم العربي. وعندما يبدو الصراع وكأنه حربٌ دينية يمكن أَن تشمل هذه الدائرةُ العالَمَ الإِسلامي بكامله (بما في ذلك إِيران والپاكستان وأندونيسيا). وكانت تعتبر أَحياناً الكتلة السوڤييتية قبل ٱنهيارها جزءاً متمّماً من الصراع، وفي هذه الحالة ينظر إِلىٰ الأَمر علىٰ أَنّه مواجهة بين القوىٰ العظمىٰ. وما زال ذلك المفهوم علىٰ شكل استشراف مبهم لفكرة «الغرب ضد البقية»، وبخاصّة في سياق حرب عالمية مُفْتَرَضَة

ضد الإِرهاب العالَمي، التي يُغالي في التأكيدِ عليها جورج دبليو بوش بعد كارثة 11 أيلول/ سبتمبر 2001.

بالإِضافة إِلىٰ ذلك، سيطر على بعض اليهود المفهوم الميتافيزيكي للنظام الكوني الَّذي ينظر إِلىٰ كلِّ العالَم غير اليهودي، أَو علىٰ الأَقل إِلىٰ معظمه، علىٰ أَنَّه ضد الشعب اليهودي. ودِلالة علىٰ ذلك أَنَّه خلال الستينيات والسبعينيات تضمّنت إِحدىٰ أَشهر الأغنيات العِبرية كلمات تقول «كل العالَم يقف ضدنا» (الكلمات بالعبرية) وتضمّنت ما معناه إنَّ الله سوف ينقذ«نا»، لهذا السبب فاليهود محميون في النهاية.

وهكذا، يمكن أَن تكون حتىٰ أَكثر المقومات الموضوعية والواقعية والقابِلة للقياس (كمية الأَعداء) موضوعاً للتلاعب وللتفسير الأجتماعي.

كان هناك تأكيدٌ دائم علىٰ أَهمية المستوطنات باعتبارها جزءاً من جهود بناء الدّولة، وجزءاً من النظام الدّفاعي وبشكل رئيسي وسيلة لتأكيد حدود الدّولة الجغرافية والأجتماعية والسياسية. ونتيجة لهذا، اتُّخِذ قرار سنة 1947 بالدفاع عن كل ما يمكن الدفاع عنه من المستوطنات حتىٰ تلك الموجودة خارج حدود الأَراضي المرسومة للدولة اليهودية. هذا المبدأ العسكريّ كان تتمة لقرار تدمير 370 موقعاً عربياً اعتُبرت منافذ خطرة علىٰ المستوطنات اليهودية، بما في ذلك تلك التي تقع خارج حدود خطة التقسيم لسنة 1947، وطَرْد سكانها.

وفي الوقت الّذي قبل فيه النظام السياسي سنة 1948 خطة التقسيم، اتّخذ الجهاز العسكريّ قراراً مبدئياً غيَّر فيه مبادئَه كلياً. وهذا نموذج لإخضاع القرارات السياسية إلىٰ القرارات شبه العسكريّة، وفي الواقع ستتكرّر الضرورات الإِيديولوجية كثيراً في المستقبل.

كما بدا مفهوماً من الوصف السَّابق، كان المبدأ الأمني الَّذي تبنّاه الجهاز العسكريّ اليهودي، منذ البداية تقريباً، عُدوانياً بطبيعته. وفيما بعد، توسّعت هذه الخصائص العدوانية لمبدأ الجيش الإِسرائيلي وتطورت تطوراً كبيراً. وأضافَ بعضُ الخبراء العسكريّين ما يُسمىٰ الأَهداف غير المباشرة، نسبة إِلىٰ الخبير والمحلِّل العسكريّ البريطاني ب. هـ. ليديل هارت، الذي أضافها إِلىٰ الخصائص العُدوانية لممارسات صنّاع الحرب الإِسرائيليين. وتدعو هذه الأَهداف إِلىٰ التركيز علىٰ القوّة الضخمة والخِداع والهجوم المباغِت علىٰ نقاط الضعف غيرِ المتوقّعة للعدوّ بوسائلَ غيرِ تقليدية، وبعد ذلك استثمار مباشر للنجاح المتوقع. وأضاف العالِم السياسي والمحلِّل العسكريّ الإِسرائيلي دان هوروڤيتز لهذه الاستراتيجية بُعداً إِضافياً هو «الاستجابة المَرِنة». لقد صوَّر هوروڤيتز مَيدان المعركة ذا الحركة السريعة بحالة هيولية، تنعدم فيها سلسلة الاتصالات والأَوامر. في هذه الحالة تتصرَّف الوحَدَات الصغيرة المعزولة وَفق مبادرتها الذاتية، وتخمينِ ماذا يمكن أَن تتوقَّعَ منها القيادةُ العامّة. وأَكَّد هوروڤيتز أنَّ الجندي الإِسرائيلي يتمتع بميزة المرونة، وذلك لطريقة الإِسرائيلي بالتكيّف الأَجتماعي، بينما يفتقر الجندي العربي إِلىٰ هذه الميزة، لذلك كان

يعتمد كثيراً على التسلسل الاعتيادي للأوامر. هذا مثال معقَّد عن أسطورة الجيش والمجتمع الإسرائيلي، تلك الظاهرة التي انتشرت كثيراً بين سنتي 1956 و1973 ووُظِّفت لتمجيد انتصارات الجيش الإسرائيلي وتفوّقه الإقليمي المطلَق. وفيما بعد كانت غالبية الإخفاقات العسكريّة الإسرائيلية بسبب عدم انضباط الجنود والمبادَرات الشخصيةِ ذاتها التي مجَّدها هوروفيتز. لقد حدث الانقطاع في سلسلة الأوامر خلال حرب 1967 عندما تسلّم ضباط الرتب العالية، وبينهم ضبّاط برتبة كولونيل ولواء، قيادة الوحدات الصغيرة وأصبحوا متورّطين مباشرة في المعركة، وهذا ما فعله شارون قبل ذلك بسنوات. لقد ساهم المزج بين المبادئ والممارسات العسكريّة العقلانية وبين الاعتبارات الإيديولوجية المتجذِّرة بعمق في إيجاد مناخ بدت فيه حرب 1967، الحرب التي كانت تنشدها إسرائيل منذ زمن، حرباً حتمية.

5 ـ دستور «جمهورية العِرْق السيِّد»

كانت السيطرة على كامل أَراضي المُسْتَعْمَرَة البريطانية فِلَسطين، بالإضافة إلى شبه جزيرة سيناء (قبل عودتها إلى مصر كجزء أول من اتّفاق الأَرض مقابل السلام) ومرتفعات (الجولان) السورية، لمعظم اليهود الإسرائيليين، فرصة لإعادة إحياء الشخصية الإسرائيلية كمجتمع رائد من المستوطنين المهاجرين. وقد أُتيح للمستوطنين اليهود أَراض جديدة، وبخاصة الأَراضي المركزية للمملكة اليهودية الأسطورية، التي تشكّل العنصر الأَساسي في الوعي الأسطوري اليهودي. وساعد الاستيلاء على عدةِ أماكن يهودية مقدَّسة عندهم،

كانت تحت سيطرة الأردنيّين قبل 1967، في تقوية المشاعر الدينية والمسيحية، والتوجّه الشوفيني، ودفع المستوطنات إلىٰ داخل المجتمع اليهودي الإسرائيلي، وهي عوامل ستساهم كثيراً في الأَزمة القادمة. إن حجم النصر وسهولته وسرعته في حرب 1967 اعتُبر حتىٰ من الناس العاديّين إشارة علىٰ النعمة الإلَهية، وعلىٰ تَفوّق الحضور اليهودي في المنطَقَة. وإن الخوف فقط من النتائج الديموگرافية لعملية دَمْج السكان العرب الّذين يتزايدون بسرعةٍ داخلَ الدّولةِ اليهودية هو الّذي منَعَ الضم الرسمي الكامل للأَراضي المحتلة. هذه الأَراضي ستعرّف فيما بعد بأنّها حيوية استراتيجياً للدفاع المستقبلي عن إسرائيل، وستُعتبر قابلةً للمبادَلة من أَجل السّلام.

منذ بداية الاحتلال، حاولت منظمة «فتح»، وغيرها من المنظّمات السياسية والفدائية الفِلَسطينية أَن تبدأ عمليَّة المقاوَمَة الشعبية وحرب العصابات داخل الأَراضي المحتلَّة، لكن هذه الجهود لم تَحْظَ إلاَّ بقليل من النجاح. وبدأت أعدادٌ متزايدةٌ من العمال الفِلَسطينيين البحث عن عمل داخل إسرائيل، وأصبح هؤلاء خلال ست عشرة سنة تقريباً المصدر الرئيسي للعمال في مِهَن الياقات الزرق مثل الزراعة والبناء والصحّة العامة. وغمرت المنتجاتُ الإسرائيليةُ أسواقَ الاستهلاك الفِلَسطينية. وتَمّ التحايُل علىٰ كل عمليّات المقاطعة العربية للمنتجات الإسرائيلية بتزوير البضائع الإسرائيلية لتبدو عربية، ثم تصديرها إلىٰ الدّول العربية عن طريقِ الضفَّةِ الغربيةِ وقطاع غزة. وبدأ

اعتماد الاقتصاد الإسرائيلي في فترة ما بعد 1967، على السكان المحتلين في إسرائيل ـ بالإضافة إلى اعتماد إسرائيل على المهارات الضعيفة وعلى أسواق العمل الرخيصة ـ واستمر بالازدياد.

بعد سنة 1967، اعتمد الإسرائيليون على خطتين غير رسميتين في آن معاً. الأولى ما سميَ (ييگال) خطة آلون، التي تتصور إعادة تشكيلِ الحدود الإسرائيلية بإقامةِ مستوطنات على تخوم الأراضي المأهولة المتناثِرة في وادي الأردن. والنموذج الثاني حاول التأكيد على ضرورة تقوية الوجود الإسرائيلي في المناطق الفِلَسطينية ذاتِ الكثافة السكانية العالية من أجل تجنّب أي إمكانية مستقبلية بالتخلّي عن جزء من الأَرض المقدّسة. وتعني هذه الاستراتيجية ضمنياً أن المستوطنات اليهودية لا يمكن «انتزاعها»، وأن الأَرض التي بُنيت عليها ستصبح جزءاً من الإرث الدائم للشعب اليهودي. وبدا الإدّعاء الثاني لا أساس له بعد اتفاقيات كامپ ديڤيد للسلام بين مصر وإسرائيل، التي تمّت فيها الموافقة على أن مبادلة الأَرض مقابل السّلام مبدأ صحيح.

بعد فوز حزب الليكود اليميني سنة 1977، أُعيدت أَراضي شبه جزيرة سيناء إلى مصر. ومع ذلك، وضعت في الوقت نفسه عمليّة استعمار الأَراضي المركزية الإسرائيلية المقدّسة (الضفّة الغربية) على رأس جدول الأَعمال القومي. وكان المحرّك الرئيسي وراء مساعي الاستعمار هذه نمو حركة المستوطنين الدينيّة والاجتماعية ـ السياسية المسماة گوش إمونيم (كتلة المخلصين) وفرعها أمَانا.

كان ظهور حركة گوش إمونيم إحدى نتائج الحركة الجماهيرية

المعارِضة التي وُلِدَت من الاستياء المتزايد بعد حرب 1973، وهي الحرب التي فاجأت فيها القوّات السورية والمصرية إسرائيل بهجوم سبَّب لها خسائرَ فادحةً. ولقد أثارت حرب 1973 التساؤلات في مسألة التفوُّق العسكريّ الإسرائيلي في المنطقة وأعادت التأكيد على صورة دولة إسرائيل القابلة للسقوط. وما بين السبعينيات والتسعينيات، أنشأ المستوطنون المتعصّبون، البُنية التحتية المحلية لمجتمع جديد في «يهودا والسامرة». لم تكن المستوطنات المحلية جزءاً من المهمة الوطنية السياسية للغزو والاحتلال، ومصادرة أَراضي «الوطن» وتوسيع حدود الدّولة الإسرائيلية فقط، بل مهَّدت أيضاً البنية التحتية من أجل إقامة مجتمع أخلاقي يسير وفق قوانين (الهالاكا) وتعاليم الحاخامات. وبدا أَن گوش إمونيم اتخذت قراراً ليس بغزو منطقة الجبل (جغرافياً ورمزياً) فقط، بل باقي مراكز سكان الدّولة اليهود. وحاولوا تقديم أَنفسهم بديلاً عن المحاربين القدماء للمستوطنين اليهود. وإضافة إلى ذلك حاولوا أَن يأخذوا مكانَهم كروّاد للصهيونية في إسرائيل. وانتشرت هذه الرسالة من يهودا والسامرة إلى جميع أَرجاء البلاد.

لقد سعى الوطنيون المتدينون الثوريون، بدافع طموح تحقيق الذات، والإيمان المتّقد بأنفسهم بأنهم ممثلون عن المصلحة الجمعية وعن «اليهودي الحقيقي والنقي»، إلى تأسيس دولة الـ هالاكا الجديدة مكان الدّولة التي فَسَدت أَثناء الخطوات السابقة في طريق «العودة إلى صهيون».

وبدا فوز ثورة الولاء هذه مؤكّداً بسبب غياب الإيديولوجية اللافِتة

والمنافِسة والقادِرة علىٰ تقديم جواب عن الوضع السياسي والاْجتماعي الناتج بعد حربَيْ 1967 و1973. من هذه الناحية، كانت المستوطَنات والمستوطنون في الأَراضي المحتلة مؤشِّرَ البداية فقط.

أَصبح الأَفراد والجماعات الوطنية المتديّنة الَّذين لم يستوطنوا ولم يشاركوا ـ أَو حتىٰ عارضوا ـ وجهات نظر النشطاء السياسيين في كتلة المخلصين گوش إِمونيم، شركاء في ما اعتبروه طموحاً جليلاً من أَجل تحويل الدّولة الإِسرائيلية إِلىٰ دولة يهودية قدر الإِمكان. ومع أَن العناصر المتديّنة كانت مهيمنة علىٰ فرع گوش إِمونيم «اليهودي»، فقد فَتَنَتْ روحُها وفعَاليتها المتجدّدة والتزامها بأمن المستوطنات، الكثيرَ من الجماعاتِ حتىٰ الدنيوية. بالإِضافة إِلىٰ أَنّه، مع فتح الجبهة وإِحراز السيطرة علىٰ كامل الأَرض التي كانت الهدف الأَصليّ للاستعمار الصهيوني، أَعادت گوش إِيمونيم إِحياء الرموز النائمة في الموروث السياسي للمستوطنين المهاجرين، التي فقدت صلاحيتها منذ سنة 1948. وهكذا تستطيع الجماعات المنظورة دُنيوِياً أَن تكون شريكاً لـ گوش إِمونيم من خلال اعتناق انتقائي للمخطوط الديني اليهودي (هالاكا) وتعاطف مركزي أَكبر مع أَفعال گوش إِمونيم.

إِن ظهور مذهب الفعالية الدينية الوطنية الَّذي تحدَّىٰ أولاً السيطرة السياسية الاشتراكية الدنيوية كان قد سبقه تناقص بطيء في قوة مؤسَّسات الدّولة ومكانتها وكفاءتها (الجيش علىٰ سبيل المثال)، وتناقص في مركزية فكرة الدّولة، وبخاصّة بعد حرب 1973. واستمدت گوش إِمونيم قوَّتها من التعهّد الَّذي كرَّست نفسَها له

باستعادةِ قوة الدّولة ونصَّبت نفسها وكيلاً لمصالحها بالشكل الَّذي تراه هي.

وكما ذكرنا سابقاً، لقد حكمت إِسرائيل حكماً مباشراً منذ سنة 1967 ـ وحكماً غير مباشر منذ سنة 1994 ـ الملايين من السكان العرب الَّذين فقدوا كامل الحقوق المدنية وأهم الحقوق الإِنسانية؛ فلم تضم إِسرائيل الأَراضي المحتلَّة وسكانها (ما عدا القدس الشرقية ومرتفعات الجولان)، لأنها لم تكن تريد منحهم الحقوق المدنية، علىٰ سبيل المثال، حقّ التصويت ودخول الأنتخابات. وكذا فإِن الدّولة اليهودية اَستخدمت بحرِّيَّة كلَّ الموارِدِ الماديةِ والبشريةِ (الأرض والماء. . إِلخ) لهذه الأَراضي وكأنها تابعةٌ للدولة اليهودية. مع مرور الوقت وعندما ثبَتَتْ هذه الحالة، توقفت إِسرائيل عن التصرّف كدولة ديمقراطية حقيقيَّة وأَصبحت ديمقراطية العِرْق السيِّد. لقد ابتُكر هذا التعبير لوصف جنوب أفريقيا زمن الفصل العنصري، وهو يصف النظام الَّذي تتمتع فيه إِحدىٰ الجماعات (المواطنون) بكامل حقوقها بينما الجماعة الأُخرىٰ (غير المواطنين) لا تحظىٰ بأيٍّ من هذه الحقوق. وأَصبح قانون إِسرائيل كقانون الأَسياد وتصرُّفاتها كتصرّفات أَسياد الأَرض. يصبح سكان الأَراضي المحتلَّة جزءاً من الدّولة عندما يكون ذلك مناسباً للدولة، وعندما لا يكون مناسباً، فإِنّهم خارج الدّولة. وهكذا أنشأت الحكومة الإِسرائيلية نظاماً قانونياً مزدوَجاً ودستوراً مزدوَجاً وأَخلاقيةً مزدوَجة.

ومع ذلك، لم يكن هذا واضحاً تماماً. لقد اَستنتجت الجماعات

السياسية الإسرائيلية المختلفة دروساً مختلفة من حرب 1973. فمن جانبٍ كان البعض يرىٰ أنّ السّلام ضرورة وعلىٰ إسرائيل أن تستعدّ لتقديم تنازلات إقليمية مقابل الحصول عليه (كانت حركة السّلام الآن أفضلَ ممثِّل لهذا المنطقِ إضافة إلىٰ بعض نشطاء السّلام الأكثر راديكالية). وكما هو متوقع، حاولوا أن يبرهنوا أن الاحتفاظ بـ5,3 ملايين من الفِلَسطينيين يشكّل خطراً علىٰ التركيب الإثْني وعلىٰ أمن دولة الأُمّة اليهودية. أمّا الجانب الآخر من الخارطة السياسية فكانت استنتاجاته وتفسيراته ترىٰ أن لا أمل للدولة اليهودية في المنطقة، لكن قد يستطيع الجيش والسياسة إلىٰ جانب السيطرة علىٰ أكبر قدر ممكن من الأراضي تأكيد وجودها. ومع مرور الوقت، طغىٰ الانشقاق بين هذين الموقفين علىٰ كل المشكلات الاجتماعية والسياسية الأُخرىٰ في الدّولة الإسرائيلية وتطوّر إلىٰ حربٍ ثقافية شامِلة. وفي الحقيقة، لم تكن المعركة الداخلية من أجل الحدودِ الجيوسياسية للدولة اليهودية ومن أجل استعمار الأراضي المحتلة فقط، بل كانت أيضاً من أجل كافة مزايا الدّولة ونظامها. وأكثر من ذلك، لقد أنتج الوجود الفعلي لهذين المعسكرين مرحلة طويلة وفريدة من المؤقّت الدائم الذي أدّى إلىٰ إدراك محلّي وعالمي بأن الحالة قصيرة المدىٰ وقابلة للتبدُّل. وأمّن هذا الإدراك الوقتَ لاستعمار جزء من الأراضي علىٰ الأقل دون معارضة ملحوظة من الإسرائيليين أو من المجتمع الدّوليّ أو من الفِلَسطينيين أنفسِهم.

كان توازن القوىٰ السياسي بين هذين المعسكرين يتأرجحُ علىٰ مرّ

جيلٍ كامل معتمِداً علىٰ حوادثَ محليةٍ وخارجية مختلفة. ولكن، علىٰ المدىٰ الطويل، ومع تزايد عدد المستوطنات وحجمها، فإنّ ما بدا أنه حقائق ثابتة علىٰ الأَرض عزّز القوة السياسية للشوفينية وللزُّمر الوطنية الدِّينيّة. ووسّعت القوةُ السياسية المتزايدة للمعسكر الشوفيني قدرتَه علىٰ تجنيد المصادر البشرية والسياسية والمادّيّة من أَجل مشروعِ مصادرة الأَرض في المناطق المحتلّة. ولم يكن موضوعَ النقاش عددُ المستوطنات أَو حجمُها فقط بل مواقعُها أَيضاً. وتبنّىٰ زعماءُ المستوطنين بمساعدة أَرييل شارون استراتيجية نشر المستوطنات في كل مكان من الأَراضي المحتلَّة، من أَجل إِقامة سلسلة متّصلةٍ من الأَراضي اليهودية وتقسيمِ وعزلِ المناطق الفِلَسطينية.

إِن أولَ وجود إِسرائيلي دائم علىٰ الأَراضي المحتلَّة ـ تأسّس بالتلازم مع مستوطنة في محطة ساباستيا القديمة قرب مدينة الخليل العربية، التي سكنتها جماعة الحاخام موشي لڤينگر الإِثْنية الغريبة ـ كان سلسلةً من قواعدِ التدريب التابعة للجيش الإِسرائيلي أَقامها أَرييل شارون بصفته مديراً لمدرسة التدريب العسكريّ ثم بصفته وزيراً للزراعة إِلىٰ جانب كونه وزيراً للبُنىٰ التحتية الوطنية.

وبحلول سنة 2002 توزّع حوالي 300,000 يهودي علىٰ 160 مستوطنة استَعمرت الضفة الغربية وقطاعَ غزة، يعادلُ مجموعهم حوالي 15 بالمئة من المجموع العامّ لسكانِ المنطقة. وعاش 65 بالمئة من هذه المجموعة في عدّة مستوطنات كبيرة، وكان معظم السكان موظفين داخلَ الحدود الإِسرائيلية (أَو الخط الأَخضر لوقف إِطلاق

النار سنة 1949). ومع كل هذا، لم تحقّق حملة الاستيطان هذه غايتها الأَساسية في بناء الوجود اليهودي الكثيف داخل الأَراضي المحتلّة الّذي يَستبعد أَي إِمكانية للانسحاب. ويبدو أَن سبب الفشل ينبع من حقيقة أَنّ هذه الجهود، عكس الجهود الصهيونية الاستعمارية السابقة، لم تحظَ بالإِجماع الواسع بين السكّان اليهود في إِسرائيل. وبرغم ذلك، كان هناك ما يكفي من النشاطات الاستيطانية اليهودية التي تهدِّد بالسيطرة علىٰ بعض الأَراضي الفِلَسطينية ومصادر المياه.

كان هناك نوعان من المستوطنين. نصفهم كانوا ملتزمين إِيديولوجياً ودينياً بالاستقرار علىٰ أرض إِسرائيل، لتحقيق الأَمر الواقع سياسياً وإِقليمياً. ونصفهم الآخر كانوا اليهود الإِسرائيليين الَّذين يبحثون عن سكن أَرخص وحياة أَفضل (فالحكومة كانت تدعم المستوطنات ماديّاً). ومع أَنّ عمليَّة الاستيطان لم تُنفَّذ تحت مِظلةِ الإِجماعِ الإِيديولوجي الوطني وكانت موضعَ خلافٍ خطير داخل الحكومةِ اليهودية، وسبَّبت ٱنشقاقاً ٱجتماعياً وسياسياً كبيراً بَيْنَ الصقور والحمائم، فقد اعتبرت الدّولة الإِسرائيلية كلّ مستوطنة قامت علىٰ أَراضيها منطقة مفتوحة حدودياً. وكانت أولىٰ المجموعتين تعتقد أَن علىٰ إِسرائيل تبنّي سياسة فعَّالة وصلبة تجاه العرب عموماً والفِلَسطينيين بخاصّة. ويشمل ذلك الضمّ الواقعي أَو حتىٰ الرسمي لأَراضي إِسرائيل الكبرىٰ، الَّذي تبرّره مجموعة من الضرورات الأَمنية والقومية والدينية.

6 ـ طفولة في فِلَسطين المُسْتَعْمَرة

حقَّق أَرييل شارون سنة 1982 شهرة ورداءة سمعة عالميتين، عندما كان وزيراً للدفاع في حكومة رئيس الوزراء مناحيم بيگن، وأَصبح المهندس الرئيسي للغزو الإِسرائيلي للبنان ـ الحرب الأُولىٰ بين الإِسرائيليين والفِلَسطينيين ـ وكان أيضاً أَبرز المسؤولين الإِسرائيليين عن مذبحة صبرا وشاتيلا التي ٱرتُكبت بحقّ المدنيين الفِلَسطينيين علىٰ يد الكتائب الحليفة لإِسرائيل. ومع أَن «آريك» ـ الاسم المصغَّر لأَرييل شارون ـ أصبحَ معروفاً عالمياً خلال الغزو، فلقد كان بطلاً قومياً في إِسرائيل، وبخاصّة بين الشباب والدائرة الداخلية للمُنْشَأة العسكريّة منذ أَواسط الخمسينيات.

وُلِد أَرييل تشاينرمان (شارون) سنة 1928 في كفار معلول، القرية التعاونية الصغيرة علىٰ بُعد خمسة عشرة ميلاً شمال شرق تل أبيب وسط المستعمَرة البريطانية فِلَسطين. لم تكن طفولته سعيدة، والسَّبب الرئيسي في ذلك عجرفة والده وسلوكه غير المتعاوِن مع جيرانه. وبعد سنوات طويلة، كتب شارون بمرارة في سيرته الذاتية:

> لم تَتوقّف التوترات الاَجتماعية [في القرية] عند الكبار. ففي قرية بهذه القلّة من الأُسر لم يكن الأَطفال قادرين علىٰ تجنّب الشعور بها أَيضاً. لقد عانيت منها، وشعرت أَن الخلاف بين أَهلي وبين الكثير من جيرانهم كان عبئاً ثقيلاً عليّ، وأن علاقاتهم أَثَّرت علىٰ علاقاتي. ولا أَعرف إِذا كان أَصدقائي قد.شعروا بها بمثل القوّة التي

شعرت بها أنا، لكن الآثار كانت واضحة. كانت الألعاب التي نلعبها في الحقول والبساتين تتوقف عند أبواب بيوتهم. وشعرت أني وحيد ومعزول. وكنت أتساءل ترىٰ كيف تبدو بيوتهم من الداخل. لقد جرحني الإهمال جرحاً عميقاً وملأني في بعض الأوقات بفورات من المشاعر المضطربة.

وحسب يوزي بنزيمان الَّذي نشر سيرة شارون سنة 1985، أن والده سلَّح ابن السنوات الست بعصاً غليظةٍ ليدافع بها عن نفسه وعن حقول وأملاك الأُسرة. حمل الصبي العصا معه سنوات طويلة، حتىٰ عندما كان يذهب إلىٰ المدرسة، وفي إحدىٰ المشاجرات الطفولية جَرح بها أَحد رفاقه في الصف جرحاً خطيراً. ومع أَن والده استأجر له مدرِّساً خاصاً إلاَّ أَن شارون الصغير كان تلميذاً متوسّطاً فيما عدا أَعمال الحقل والقيادة. لم يكن رفاق الدراسة يُحبونه لكنهم كانوا معجبين بمهاراتِه الاستكشافية وقدراته القيادية. درس الثانوية في تل أبيب خلال الحرب العالَمية الثانية. وكتب عندما كبر، أَنَّه عندما انتقل إلىٰ هذه المدينة العالَمية (كوزموپوليتان)، دُهش بأن لا أحد فيها يعرف شيئاً عن الخلافات بين والده والجيران. ولقد وصف مشاعرَ مشابهة عن رحلته الأُولىٰ إلىٰ مدينة نيويورك.

لقد تشكَّلت مواقفه الأَساسية تجاه عرب فِلَسطين من خلال ذكريات خاصة لوالديه، كانت خليطاً من القلق والازدراء. فعندما وصلت والدته إلى البلد للمرّة الأُولىٰ، قابلت عمّال الأَرصفة العرب

«الضخام الجثث» الَّذين أنزلوا السيدة الرقيقة من السفينة إلىٰ الشاطئ دون أَي اعتبارٍ أَو كياسة. وكثيراً ما أَشارت المذكرات التي كتبها المهاجرون في تلك الفترة إلىٰ صدمة اكتشاف أَن أَرض إسرائيل كانت بلداً مأهولاً ومحكوماً من العرب. قبلَ سنة واحدة من ولادة أَرييل، دمَّر المشاغبون العرب قريته الصغيرة. وحدث هذا مرة ثانية سنة 1929، ومرَّ وقت خلال الثورة العربية الكبرىٰ 1936 ـ 1939 كان الناس فيه متيقّظين لاحتمال هجوم لم يحدث أَبداً. وأَصبحت هذه التهديدات المتكرِّرة جزءاً من الذاكرة الجمعية للأُسرة وحفرت عميقاً في ذهن شارون الصغير من خلال الأَحاديث العائلية.

كان الوضع الراهن، في ذلك الوقت، أَن معظم العرب لا يريدون ولا يرحّبون بالمستوطنين اليهود. ومنذ سنة 1918، شكَّل العرب المحليون الحركات الوطنية الفعَّالة ضد الصهيونية وضد البريطانيين. ومع أَنّ كثيراً من العرب عملوا في المستعمرات اليهودية وشركات الإنشاء اليهودية أَو باعوا الأَراضي إلىٰ اليهود والجمعيات اليهودية، وحافظ آخرون علىٰ العلاقات الاجتماعية الجيدة مع الأَفراد اليهود، فإنّ من المتفق عليه أَن العرب لم يقبلوا أن تكون دولة فِلَسطين «وطناً قومياً لليهود» (وطن جاء إلىٰ الوجود عن طريق وعد بلفور) وأن كل هذا الوجود الجماعي لليهود في البلد قائم علىٰ الحِرابِ البريطانية. إلىٰ جانب هذا التوتر كانت هناك نزعة رهاب الأجانب عند الطرفين، التي ساهمت في تفاقم العدائية المتبادَلة والخوف والكره بين العرب واليهود. هذا هو الجو الَّذي ترعرع فيه

الشاب أَرييل تشاينرمان، ولكن ليس كل مَن ترعرع في هذا الجوّ كرَّس حياته لمحاربةِ العرب، وبخاصّةً بعد أَن تغيَّرَ الوضع الراهن.

خدم شارون سنة 1948، كضابط صفّ (مع أَنَّه فشل في متابعة برنامج تدريبي مع الهاگانا، الميليشيا اليهودية السرِّيَّة). وشارك في معركة اللطرون الخاسرة، وهو حصن بريطاني علىٰ الطريق الرئيسي بين تل أبيب والقدس. وتُعتبر هذه المعركة ضد الفيلق العربي، حتىٰ هذا اليوم، واحدة من أَخطر الهزائم التي عَانَت منها إِسرائيل. وأُصيب المئات من الجنود الإِسرائيليين أَثناء تبادل إِطلاق النار وقُتل الَّذين لم يستطيعوا الهرب، وأُصيبَ شارون إِصابةً بالغة في لاترون وبسبب إِصابتِه لم يتمكّنْ من المشاركة إِلاَّ بمعركة أُخرىٰ واحدة حتىٰ نهاية الحرب.

في هذه المعركة، فشلت القوَّات الإِسرائيلية في تدمير الفَوْج المِصري المُحاصَر داخل ما يُسمَّىٰ جيب الفالوجا. وأتّهمَ عددٌ من الجنود وضباطِ المَيدان بعدَ الحرب، الأَركانَ العامةَ الإِسرائيلية بعدمِ الكفاءة والإِهمال الكبير في إِدارة الصراع، ليس بسبب الهزائم المُخجلة مثل اللطرون والفالوجة وحسب، بل لأنهم فشلوا في «تحريرِ» كامل البلاد من الهيمنة العربية وتركوا بعض العرب داخل حدود الدّولة الإِسرائيلية. وكان شارون واحداً من هؤلاء الجنود. وعندما توقف معظم الناس عن أتهام القيادة العسكريّة والزعامة السياسية بعدمِ الكفاءة وقُصور الرؤية العسكريّة والفشل في جمع المعلوماتِ الاستخباراتية الكافية وحتىٰ الخيانة (حتىٰ حرب 1973 التي

فاجأت إِسرائيل وهي غير مستعدة)، استمر أَرييل شارون بتوجيه الاتهامات طوال صعوده ونزوله في مسيرته الطويلة المثيرة للجدل. وأَصبحت هذه الاتهامات، الموجّهة ضدَّ المَقامات العالية والزملاء والمرؤوسين، جزءاً دائماً من خطاباته الطنّانة. وبقي شارون لفترةٍ في الجيش، وأَتَمّ بنجاح مَهمته كقائد كتيبةِ تحت إِشراف الكولونيل إسحاق رابين، وخدم كموظف استخبارات في الجبهة المركزية والشمالية تحت إمرة الكولونيل موشي دايان.[1] ولقد تأثّر الضابطان الكبيران كثيراً بأَداء وحنكةِ وحركةِ هذا الضابط الشابِ الوسيم وتدخّلا عدّة مرّات لإِنقاذِ مسيرةِ شارون العسكريّة بعد أَن أثارَ عداوةَ المقامات العاليةَ ببعضِ حركاتِهِ المغامرة وغير المسؤولة، و«تقاريره الغامِضة»، وبالتعابير الشخصية البشِعة التي ٱستخدمها مع الَّذين شكَّكوا بخبرته في أَي مسألة لها علاقة بالفنِّ الآثم لصناعة الحرب.

ترك شارون السلك العسكري سريعاً بعد حرب 1948، خائباً من الجيش ومما ٱعتبره سلبية لا تُحتمل ومفروضة من قبل السياسيين علىٰ القوّات المسلَّحة، وٱنتسب إِلىٰ الجامعة العبرية سنة 1952. واستمر في اتصالاتِهِ مع رفاق الخدمة حتىٰ بعد أَن أَصبح تلميذاً، وشارك كضابط احتياط في بعض الأَحداث العَرَضية في منطقة القدس.

7 ـ الجولة الأُولىٰ لشارون

في بداية الخمسينيات، ومع تطوّر الحرب الباردة تفاقم الصراع العربي الإِسرائيلي، وأَخذ أَبعاداً عالمية عندما ٱنجرّت إِليه الدّول العربية المجاوِرة. وطالبت الدّول العربية، كشرط للاعتراف بالدّولة

اليهودية، بالانسحاب الإسرائيلي إلىٰ حدود قرار التقسيم لسنة 1947 (الّذي رفضته سابقاً)، وبعودة كل اللاجئين الفِلَسطينيين إلىٰ بيوتهم. ورفض الإسرائيليون هذه الشروط كلها، واعتبروا هذه المطالب محاوَلة أُخرىٰ لإبادة الدّولة اليهودية. وحاولت إسرائيل التأكيد أَنّ علىٰ الدّول العربية اْستيعاب اللاجئين، كما استوعب اليهود إخوانهم اللاجئين. في هذه الأثناء برزت بعض الحروب الصغيرة علىٰ طول خطوط الهدنة. وأَزعج الفِلَسطينيون المتسلّلون من مخيمات اللاجئين في قطاع غزّة والضفة الغربية المستوطنات الحدودية الجديدة بغارات متكرّرة، محاولين استعادة الممتلكات أَو الانتقام فقط بقتل الإسرائيليين. وطوّرت الحكومة الإسرائيلية سياسة ثأرية ضد الدّول العربية المُضيفة، بذريعة أَن عليهم تحمُّل المسؤولية عن عمليّات التسلُّل والقتل. وتعرقل الانتقام الإسرائيلي الأوّل بسبب أَداء الجيش المتواضع. وقرَّرت القيادة العسكريّة في تموز/ يوليو سنة 1952 تشكيل وحدات صغيرة سرِّيَّة وعالية التدريب من المغاوير لخوض المعارك الثأرية. وتمّ تجنيد المرشَّحين بتكتّم بواسطة شبكة الصبي الكبير. وعُيِّن أَرييل شارون قائداً لمجموعة عرفت باْسم الوحدة 101.

استهلّ شارون موقعه كقائد للوحدة 101 (التي اْندمجت فيما بعد مع لواء المظليين 890 وتوسّعت إلىٰ فرقة المظليين 202)، بعدة معارك عسكريّة كان هدفها إشعال الخطوط الإسرائيلية الأردنية والإسرائيلية المصرية. وبغريزته السياسية الحادّة، اكتشف سريعاً السرّ بأن الضباط الأدنىٰ مرتبة في الميدان أَكثر قوة من الضبّاط ذوي الرُّتب العالية

والبعيدين عن أَرض المعركة، وأن السياسيين المدنيين لديهم معرفة قليلة بالشؤون العسكريّة، وأُعجب كثيراً «بالمحاربين اليهود الجُدد». يستطيع ضابط الميدان إِشعال أَي حدود ونسف أَي حدث عَرَضي خارج التناسب. ووافقت القيادة علىٰ كل هذه الأَفعال اسمياً بآعتبارها ردّ فعل محدوداً علىٰ ما تعتبره إِسرائيل خرقاً لاتّفاق وقف إِطلاق النّار من الدّول العربية. ومع ذلك، ذهب شارون، في تنفيذ هذه الأَعمال، أَبعد بكثير من المدىٰ المطلوب الّذي خطّط له ووافق عليه رؤساؤه. لكنّه فسَّر هذا التجاوز بأنّه نتيجة المقاومة غير المتوقّعة من العدو، والصعوبات والعوائق غير المحسوبة في ميدان المعركة، والحاجة إِلىٰ إِنقاذ أَرواح الجنود الإِسرائيليين أَو لتجنُّب ترك الجرحىٰ والقتلىٰ وراءهم. لكن الحقيقة كانت أَنّ تصرّفات شارون الشامِلة سبَّبت خسائر أَكبر ليس فقط بين العرب، بل أَيضاً بين الجنود الإِسرائيليين. إِنّ خبرته في استخدام الاستفزاز كاستراتيجية ـ تحريض العرب واليهود لمحاربة بعضهم البعض ـ أَصبحت النموذج الرئيسي لسلوك شارون، وهو السلوك الّذي طوَّره خلال مسيرته العملية.

كانت المهمة الأولىٰ للوحدة 101، في أيلول/ سپتمبر 1953، ترحيل القبائل البدوية من صحراء النقب. ففي العادة لا تقيِّد حدودُ الدولة تنقُّلاتِ البدو وحتىٰ بعد حرب 1948 كانوا يتنقلون بحرِّية بين الأردنّ وإِسرائيل ومصر. وآعتبر الإِسرائيليون هذا العبور غير المُرخَّص للحدود انتهاكاً لسيادتهم علىٰ الأَرض (التي كانت موضع جدل عالمي في تلك الفترة). نفَّذت الوحدة 101 المهمّة بكفاءة

وقسوة. ومنذ هذه العمليَّة الأُولىٰ، كان لشارون معركتان رئيسيتان ـ ناجحتان من وجهة نظره ـ مع البدو: في السبعينيات قام بترحيل كثير من البدو من شمال شرقي سيناء لإِفساح المجال للمستوطنين اليهود، الَّذين أَخلاهم شارون بنفسه بعد ذلك سنة 1981 عندما كان وزيراً للدفاع. ومنذ سنة 2001، قام بترحيل البدو من جبال الخليل الجنوبية، لتحضير الأَرض أيضاً من أَجل المستوطنات اليهودية.

لقد بدأت حرب شارون الطويلة ضد العرب عامّة والفِلَسطينيين بخاصّة مباشرة بعد تلك العمليَّة الناجحة ضد البدو. وكان الاقتراح الثاني الَّذي قدَّمه لمركز القيادة الرئيسي، غارة محدودة ضد مخيم البرج للاجئين، الَّذي زعم أَنَّه اُستُخْدِم قاعدةً من قِبل المتسلّلين. وعندما وصف تفاصيل العمليَّة لجنوده، لاحظ أَحد جنوده، وفقاً ليوزي بينزيمان، أَنّ الهدف الواضح من الغارة كان قتل أَكبر عدد ممكن من المدنيين. واشتكىٰ الجندي أَن هذا الهدف غير لائق، لكن شارون تجاهل الملاحظة. وكانت النتيجة مقتل خمسة عشر فِلَسطينياً، معظمهم من النساء والأَطفال. وعندما تمّ استجوابه بعد الغارة من رؤسائه، حاول أَن يقنعهم بأن النسبة المرتفعة للإِصابات كانت ضرورية بسبب الحاجة للدفاع عن أَرواح جنوده. وشرَح لجنوده بأنّ كلّ النساء في المخيم عاهرات يَخْدُمْنَ القَتَلة. وقامت السلطات المِصرية التي شعرت بالقلق من غضب الفِلَسطينيين ورغبتهم بالانتقام، فيما بعد، بتوجيه هذه المشاعر بأتجاه تشكيل فرقتين فِلَسطينيتين، بأسم الفدائيين، تحت إِشراف القيادة المِصرية. وشارك

الفدائيون بعدّةِ عمليّات داخل إسرائيل حتىٰ أصبحوا نموذجاً ورمزاً لمنظمة «فتح» وغيرها من المنظّمات الفدائية الفِلَسطينية.

من بين عشرات الغارات التي نَفَّذَتْها الوحدة 101 بقيادة أَريل شارون، هناك غارتان حُفِرتا في تاريخ وذاكرة كلّ من الفِلَسطينيين والإِسرائيليين، الأُولىٰ مذبحة قبية، و«قبية» قرية فِلَسطينية تقع في الأردنّ (الضفّة الغربية) بين اللطرون وقلقيلية، هُوجمت في 15 تشرين الأوّل/ أكتوبر 1953 انتقاماً لمقتلِ امرأة وطفلين في بلدة يهود الإِسرائيلية قبل يومين. وصل عدد الضحايا إلىٰ 130 مدنياً إسرائيلياً بسبب هذه «الحرب الحدودية»، وطالب الرأي العام بالانتقام. وتمّ تفجير حوالَي خمسة وأَربعين منزلاً في قبية بمن يَسكُنها. وفارق الحياة سبعة وستون من الأَطفال والنساء والرجال. وخلال الاستجواب اللاحق، قال شارون أَنّه أَمر جنوده بتفتيش كل البيوت وتحذير قاطنيها ليخرجوا منها، لكن الجنود أَنكروا تلقّيهم أَمراً كهذا.

سبَّبت هذه العمليّة صخباً عالمياً ووَلَّدت أسئلة داخلَ حلَقَات مهمّة من المثقّفين والسياسيين. وفي البداية حاولت إِسرائيل إِنكارَ حدوثِ هذه المجزرة علىٰ يدِ وحدة عسكريّة مدّعية أَن «المستوطنين الغاضبين في المنطقة الحدودية» يتحمّلون المسؤولية. لكن بين العسكريّين وغالبيةِ السكان، وبخاصّة الشباب، اُعتُبرتْ هذه العمليَّة نجاحاً كبيراً وأَنعشت الكبرياء القومي.

عندما سمع رئيسُ الوزراء ديڤيد بن گوريون بالعمليّة، شكَّ أَن يكون هذا الضابط الشاب منتمياً إِلىٰ التيار التعديلي في الحركة

الصهيونية، فأَرسل في طلبه[7]. وأَحسّ بن گوريون، خلال اللقاء، بكثير من الرِضا لاكتشافه أَن شارون وأُسرته ينتمون إِلىٰ التيار السياسي «الصحيح» (العمل) وأُعْجِب بشجاعة ووسامة وذكاء هذا الضابط وشعر أنّه يجسّد رؤيته في الصبَاري (اليهودي المولود في فِلَسطين) السليم، المتحرِّر من كلِّ أَمراضِ المنفَىٰ. ومنذ ذلك الوقت، منح «الشيخ»، اللقب الَّذي عُرِف به بن گوريون، حمايته الشخصية لشارون وحافظ علىٰ علاقة خاصّة معه، اْستغلَّها شارون في كل مرة كان يقع فيها في مشكلة بعد عمليَّاته العسكريّة المتهوّرة وغيرِ المرخَّصة. وأَصبح موشي دايان أَيضاً، الَّذي كان قد عُيِّن مؤخراً قائداً أعلىٰ للجيش الإِسرائيلي، من المُعْجَبين بهذا الضابط الشاب إِلىٰ الوقت الَّذي تجاهل فيه شارون أَوامرَه وزوَّده بتقريرٍ غيرِ دقيقٍ، ليغطِّي به عدم طاعته لرؤسائه. وفي هذه الفترة أَيضاً، أَصبح أَرييل شارون بطلاً بين جميع أَفراد القوّات المسلَّحة الإِسرائيلية والنُّخبة من شباب المدارس الثانوية التي تُشَجِّع التسلُّط العسكريّ الإِسرائيلي الوقح.

كانت فترة الخمسينيات مرحلة شديدة الرومانتيكية في إِسرائيل. ومن أَجل فَهم الدور الَّذي لعبه شارون ووحدته 101 (وفيما بعد الفرقة المظلية)، يجدر بنا أَن نفهم روح المرحلة. فخلال هذه الفترة،

---

(7) بعد حرب 1948، اتّخذ بن گوريون قراراً سياسياً بتخليص الجيش من الضباط الشرقيين بمن فيهم أتباع الحركة التعديلية والشيوعيين المرتبطين بحزب مابام اليساري، الّذي حافظ علىٰ ارتباطات وثيقة مع الاتّحاد السوفييتي. هذا التطهير ساهم في تقوية سيطرة حزبه (ماپاي) علىٰ الجيش.

تضاعف عدد السكان اليهود ثلاث مرّات. ووصل مهاجرون جُددٌ من الأَراضي العربية بخاصّة، هدَّدوا الوضعَ الثقافي والسياسي والاّقتصادي للإِسرائيليين الأَكثر اَستقراراً. وأَقرَّ الجيش مَبدأ القرعة العامّة لليهود، وبذلك خسروا صورتهم المميزة وتوقّفوا عن كونهم محركاً وأَداة لتوليد النفوذ. وأَخذ الشباب (أولاد السكّان المستقرين)، بالبحث عن طُرق من أَجل المحافظة علىٰ هيمنتهم في هذا البلد السريع التغيُّر. وكانت إِحدىٰ هذه الطُّرق الذهاب إِلىٰ «البترا». و«البتراء» مدينة نَبطية قديمة تَمّت المحافظةُ عليها على نحو جيد، وفيها بقايا الحضارة الغابرة مزركشة ببقايا البيوت والأَضْرحة المحفورة بالصخور المتغيّرة الأَلوان، وكأنها أَثر شرق ـ أوسطي للإِنكا. عُرفت «البترا» أَيضاً باَسم الصخرة الحمراء، المتواضعة في عمق الصحراء الأردنية. والتي تحتاج زيارتها إِلىٰ مسير ليليّ لعدة أَيام، والمخاطرة باحتمال الأَسر أَو القتل علىٰ أيدي البدو أَو أيدي جنودِ الفَيْلق العربيّ (الأردني)[8]. ومع اَزديادِ خطورةِ الذَّهاب إِلىٰ «البترا» واَزدياد مهارةِ البدو وعناصر الفيلق في صنع الكمائن واصطياد الشباب الإِسرائيليين المتسلّلين، أَصبحت المهمة أَكثر إِثارة. وفَقَدَ كثير من الشباب الإِسرائيليين أَرواحَهم في هذ المغامرة لكن الّذين نجحوا في الرحلة أَصبحوا أَبطالاً شعبيين.

---

(8) قدَّم، أريك لاڤي، وهو مطرب معروف، أغنية بعنوان «الصخرة الحمراء» يمجّد فيها الذهاب إِلىٰ «البتراء» وهؤلاء «الَّذين لم يعودوا أَبداً». ومُنعت إِذاعة هذه الأغنية عدة سنوات لتجنّب تشجيع عدد أكبر من الشباب بالمخاطرة بحياتهم.

كان أَحد هؤلاء «الأَبطال» مائير هارزيون، وهو شاب ارتبط اسمه بأسطورة «البتراء» أَكثر من غيره، وكان عنصراً في الوحدة 101. واعتُبِر المحارب الإِسرائيلي المطلق، أَو رامبو اليهودي. اغتال البدو شقيقته شوشانا وصديقها أوديد گيميستر، أوائل سنة 1955، خلال رحلة من القدسِ إِلىٰ عين جدي (مستوطنة إِسرائيلية صغيرة جنوب البحر الميت)، عندما سلكوا طريقاً مختصرة عَبر الأَراضي الأردنية.

جمع هارزيون ثلاثة من رفاقه في الوحدة 101، وأَمسكوا خمسةً من البدو المشتبه بهم وقَطعوا رِقابهم. وأُوقِف عن العمل العسكريّ لمدةِ ستة أَشهر عقوبةً علىٰ «عمليته الشخصية»، لكن قصّته ٱنتشرَت بسرعة بين الشباب وأَضافت شهرة أَكبر لهارزيون وللوحدة 101 ولقائدها، أَرييل شارون.

كتب شارون في سيرته الذاتيّة، أَنّه حاول أَن ينصح هارزيون بالعدول عن تنفيذِ هذا الانتقام الشخصي لكن «أَدركتُ أَن مائير لم يكن في حالةٍ [عقليةٍ] تسمح له بالاستماع إِلىٰ أَحد. . . لقد فعلتُ ما رأيتُه ضرورياً. أعطيتُه السلاح. وأَعطيتُه سيارةَ القيادة وأَعطيته إِسحاق جيبلي [بطل نشيط آخر من الوحدة 101] أَفضل من كان لدي لقيادة السيارة». وأَوضح شارون «كل الحكاية كانت عودة إِلىٰ الأَيام القَبَلية، ونوعاً من الانتقام العشائري الَّذي يفهمه البدو جيداً».

تُمثل هذه الحادثة مِيزة أُخرىٰ للصراع اليهودي ـ العربي، وتحديداً الصراع اليهودي ـ الفِلَسطيني وتُجسّدُه تحديداً في شخصيات مثل هارزيون. فكثير من أَعمال العنف ٱرتكبها أَفراد أَو جماعات

صغيرة من الجانبين كانوا إما متكفّلين بالثأر أو يظنون أنهم قادرون على إدارة الصراع أكثر من الرسميين. وكان أرييل شارون من هذه الفئة.

تورّطت الوحدة 101، وبعد ذلك لواء المظلّيين ثم الفرقة، بعدد من العمليّات الصغيرة، والكبيرة، الثأرية والاستباقية[9]، لكن، العمليّة الكبرى ـ التي غيّرت الحقائق السياسية في الشّرق الأوسط تغييراً جوهرياً ـ كانت الغارة ضد قاعدة عسكريّة مصرية في غزّة في شباط/ فبراير 1955. قُتل خلال هذه الغارة حوالي أربعين جندياً مصرياً وجُرح كثيرون بعد الكمين الّذي خطّط له شارون. وقُتل أيضاً ثمانية من المظلّيين الإسرائيليين. بعد هذه الغارة قرّر الرئيس المصري جمال عبد الناصر التوجُهَ نحو الكتلة السوفييتية من أجل تحديث الجيش المصري وتزويده بأسلحة جديدة (وبخاصّة الطائرة النفّاثة المعروفة ميگ 21 والدبابات من طراز T) ومستشارين عسكريّين. وهكذا وُلدت المعاهدةُ العسكريّة المصرية ـ التشيكية التي أدّت إلى سباقِ تسلّح مُكَثَّف في المنطقة، استكمل بميثاق مشابه فرنسي ـ إسرائيلي استمر إلى أن تورّطت فرنسا في الحرب الوحشية في الجزائر ضد جبهة التحرير الوطنية. لم تكن صفقة عبد الناصر مع الكتلة الشيوعية سهلةً

---

(9) كانت العمليّات الاستباقية عبارة عن غارات يشنّها الإسرائيليون ضد أهداف مختلفة ـ عسكريّة أو مدنية ـ بحُجّة أو بأمل تقليص أو منع الغارات العربية داخل إسرائيل. وحاول الاستراتيجيون الإسرائيليون الإقناع بأن هذه العمليّات الاستباقية ستمنع الحروب الكبيرة في المنطقة. لكنّها في الواقع، ساهمت في تصاعد الصراع فقط وكانت السبب في حربَي 1956 و1967.

أَو دون أَضرار. فلقد بذل جهوداً حَثيثة خلال فترة تصاعد الحرب الباردة مع بانديت نهرو وتيتو من أَجل تأسيس كتلةٍ ثالثة حِياديةٍ وكان يأمل أَن يجعل مصر برئاسته، قائدة للعالم العربي (الدائرة الثانية من «عقيدته الثلاثية»، مصر، والعالَم العربي، ودول عدم الانحياز) لكن المعاهدة مع تشيكوسلوفاكية قَوَّضت هذا الطموح، واختَصرت مصر إِلىٰ منزلة الزبون والتابع للاتّحاد السوفييتي.

لقد كانت الغارة علىٰ غزة مجرد البداية. ففي كانون الثاني/ يناير 1955، هاجم مظليو شارون القوّات السورية المتمركزة علىٰ الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا. فقُتِل ما يقارب الستين من الجنود السوريين وأُسِر حوالي الثلاثين منهم. وخلال غارة أُخرىٰ علىٰ قاعدة مصرية في الكنتليون، قتل عشرة جنود مِصريين وأُسر عشرون آخرون.

كان منتصف الخمسينيات من أَسْعد أَيام شارون في حياته العسكريّة وأَكثرِها بروزاً. فلقد وافقت الحكومة والقيادة العسكريّة علىٰ معظم خططه العسكريّة (اشتهر شارون بأنّه مخطّط غزير الإِنتاج وحاسم وذو خيال واسع)، لكن ربما ليس إِلىٰ الحد الَّذي تمّ به تنفيذها فيما بعد. لقد قُوبلت أَعماله بمشاعر مختلطة سواء من الرؤساء العسكريّين أَو المسؤولين المدنيّين، لكن لا أَحدَ يمتلك الشجاعة لمناقشة النجاح.

لقد ساعد انتقامُه المفرِط وسياستُه في الضرَبات الوقائية دون شكّ في ٱزدياد سوء الأَزمة العربية ـ الإِسرائيلية والتسبُّب في حربين. ولقد وصفه يوزي بينزيمان بأنّه المسؤول الوحيد عن التصعيد المتعمَّد

للصراع، والمصمّم علىٰ إثارة حرب في المنطقة (ربّما استكمالاً للعمل غير المُنجز سنة 1948).

8 ـ ضابط غير لَبِق

ليس الهدف من هذه المحاولة تقديم ترجمة إضافية لحياة أَرييل شارون، بل هو وصفٌ وتحليلٌ لعلاقته مع الشعب الفِلَسطيني داخل محيطهم الأَرحب وخلفيتهم الثقافية المتعدِّدة الأَطياف. لقد شكَّل صعود شارون إلىٰ السلطة ذروة الأَزمة الداخليَّة داخل المجتمع الإسرائيلي علىٰ مدىٰ جيل كامل. ولهذا فإن مراجعةً قصيرة لحياة شارون بين سنتَيْ 1956 و1982 سوف تُؤدي إلىٰ فهم أَفضلَ للأَحداث داخل المجتمع الإسرائيلي. تصف الأَساطيرُ والخرافاتُ، التي ابتدعها شارون نفسُه، والصحفيون أَمثال خادمه الدائم يوني دان، والمعجبون الآخرون والخبراء بالعلاقات العامّة، هذه المرحلة بأنها فترة من النجاح الفريد والمُجد في روح العقل العسكريّ الموجَّه. لكنها في الواقع كانت سلسلة من الإخفاقات العسكريّة والإنسانية.

إنّ القضية المطروحة الآن هي أداء شارون أَثناء خدمته قائداً لانتشار الفرقة المظلّيّة خلال حرب السويس. في 29 تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1956، اجتاحت إسرائيل بالتعاون مع فرنسا وبريطانيا شبه جزيرة سيناء[10]. وكان المظلّيّون قد أُرسِلوا إلىٰ معبر «ميتلا» علىٰ بُعد

(10) كان جمال عبد الناصر قد أثار غضب أَصحاب القرار البريطانيين والفرنسيين بتأميم قناة السويس. وكان الفرنسيون يشكّون بأن مصر قد ساعدت الثوّار العرب =

140 ميلاً من الخطوط المِصرية، لتنفيذ مهمتين: الأُولىٰ، منع المِصريين من إرسال الإمدادات العسكريّة بٱتجاه فرق المشاة الإسرائيلية المتقدِّمة، والثانية، إخفاء الهدف والغرض الرئيسيين من العمليَّة العسكريّة. رفض شارون تنفيذ الأَوامر الموجّهة من مركز القيادة العامة، وحاول علىٰ مسؤوليته ٱقتحام المعبر بٱتجاه قناة السويس، وقاد قوّاته إِلىٰ الفخ المِصري. وبذلك ٱنهارت العناصر الثلاثة لأي عمليَّة عسكريّة ـ القيادة والاتصال والتحكّم. خاضت وِحدة المظلّيّين التي حاصرها المِصريون المختبئون بين الجبال المحيطة معركة قاسية لمدة يوم كامل في محاولة للهروب من الكمين. وقُتل 28 جندياً وجُرح أَكثرُ من مئة في هذه المعركة غير الضرورية. واتّهمَ الضباط بعد الحرب شارون، بأَنّه قام بهذه العمليَّة

= الجزائريين عسكريّاً وٱقتصادياً. كانت الخطة الأَساسية أن يقدم الغزو الإسرائيلي إلىٰ الدّولتين ذريعة للتدخّل ومطالبة كل من المصريين والإسرائيليين بالانسحاب من منطقة القناة. وكان من المتوقّع أن يستولي الجيشان الفرنسي والبريطاني علىٰ منطقة القناة، لكن الهدف النهائي كان إِسقاط جمال عبد الناصر ونظامه. استولت إِسرائيل بسرعة علىٰ شبه جزيرة سيناء، ربما لأن الأولوية المصرية كانت الدفاع عن القناة والداخل المصري، وهذا ما قاموا به على نحو جيد. وهُزِم الجيشان الفرنسي والبريطاني بسرعة وأُجبرا علىٰ الانسحاب تحت ضغط مشترك من الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفييتي. وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي تتعاون فيها القوّتان العظميان خلال الحرب الباردة من أَجل إعادة تنظيم العالم.

واختصر النصر الإسرائيلي الظاهري إلىٰ مجرد استدعاء بعض قوّات الأُمم المتّحدة ووضعها بين إِسرائيل ومصر وإِلىٰ استعادة الملاحة الحُرّة في البحر الأَحمر (معبر شرم الشيخ ومضيق تيران)، التي أَغلقتها مصر سنة 1955 وهو تصرّف اعتبرته إِسرائيل سبباً للحرب. ومع ذلك، استعادت إسرائيل بهذه الحرب ثقتها وكسبت سُمعة دولية باعتبارها قوة عسكريّة في المنطقة.

بمفرده بهدف تحقيق شهرة شخصية. وفي حرب بعد حرب ارتبط شارون بهذا النوع من العمليّات، مثيراً الكثير من الجَدَل بين قادة الجيش. وقال في سيرته الذاتية إنّ هذا الجدل كان بسبب حسد زملائه ونقص حنكتهم ومهارتهم العسكريّة. وبعد قضية ميتلا، توقف عن العمل العسكريّ لسنوات، وعندما رُفِّع أَخيراً إلىٰ رتبة عقيد عُيِّن في مناصب هامشية وغير قتالية. ووَصَف شارون سنواتِه الأَربع بعيداً عن القيادة الفاعِلة بأنّها سنواتُ الإِحباط والمنفىٰ.

ومع ذلك، ومكافأة له قَبْل منفاه، أَرسله دايان، للدراسة في الكلية العسكريّة في سَرِيْ Surrey في إِنكلترا. وقال شارون إنّ الوقت الَّذي أمضاه هناك كان ذا تأثير حاسِم في صياغة تفكيره العسكريّ. ووجد شارون، بمقارنة التكتيك الَّذي استخدمه القادة البريطانيون والأَلمان في الصحراء الغربية أَثناء الحرب العالَمية الثانية، أَن النموذج العسكريّ الأَلماني الَّذي استخدمه رومل كان متفوّقاً جداً علىٰ النموذج البريطاني الَّذي استخدمه مونتگمري. وٱتفق معه في هذا التحليل الخبير العسكريّ البريطاني الشهير باسيل ليدل هارت، ومنذ ذلك الوقت، وشارون يعتبر نفسه أَعظم مفكِّر عسكريّ إِسرائيلي.

بعد سبع سنوات فقط، وعندما كان إِسحاق رابين قائداً للأَركان سنة 1964، رُفِّع شارون إلىٰ موقع في المركز الرئيسي لقيادة الجبهة الشمالية، وهناك حاول البَدءَ في تنفيذ السياسة العسكريّة العُدوانية تجاه سورية. لكن معظم خططه رُفضت لأن رفاقه القادة والأَركان العامّة لم يجدوا سبباً لإِشعال الحدود والمخاطرة في حرب شاملة مع

سورية، لكنه استعاد سمعته كضابط شجاع وأَصيل. ومع أَن رابين قام بترفيعه إِلىٰ رُتبة لواء، إلاَّ أَنَّه عاد وأَرسله إِلىٰ موقع غير قتالي. في الوقت نفسه، تسلّم قيادة الفرقة الاحتياطية. ومن هذا الموقع قام بمهمته، كقائد عسكريّ، بمنتهىٰ النجاح في حرب 1967.

ٱرتكب جمال عبد الناصر، سنة 1967، أَكبر أَخطائه السياسية. فبعد تدخُّله الطويل والدامي في الحرب الأهلية اليمنية، فَقَدَ عبد الناصر مكانته في العالَم العربي. ومن أَجل استعادة هذه المكانة وتَأْكيد السُّلطة المِصرية، قام بحركتين استعراضيتين: أَمرَ القوَّات العسكريّة المِصرية بعُبُور قناة السويس، وفي الوقت نفسه طالب بٱنسحاب قوّات الأُمَم المتّحدة المُنْتَشِرة علىٰ خطوط وقف إِطلاق النار منذ سنة 1957. وبالتأكيد، لم يكن الجيش المِصريّ بعد الكارثة اليمنية مستعداً للحرب مع إِسرائيل، لكن الأَركان العامة الإِسرائيلية كانت قد خطَّطت منذ وقت طويل لتدمير هذا الجيش، الَّذي أَعاد الاتّحاد السوفييتي تسليحه وتشكيله بعد حرب 1956. واستغلّت الحكومة الإِسرائيلية حركة عبد الناصر، واعتبرتها سبباً للحرب وتهديداً حقيقياً للأَمن الإِسرائيلي. وحرَّكت القوَّاتُ المسلَّحة الإِسرائيلية جميعَ أَنظمتِها الاحتياطية. وعندما وقف الجيشان وجهاً لوجه، تردَّدت الحكومة الإِسرائيلية برئاسة ليڤي إيشكول، لأَنّها غير متأكدة من جِدّية التهديد المصري وغير متأكدة من ضرورةِ الحلّ العسكري بدل الحل الدپلوماسي، آخذةً بعين الاعتبار الضيق الاْقتصادي الخطير والتوتر الاْجتماعي الَّذي سينشأ عن التعبئة الطويلة لكل القِوىٰ العامِلة الذكورية تقريباً.

وبينما كانت الحكومة تزن خِياراتها، استغل ضباط الجيش (بمن فيهم شارون) الفُرصة لإقناع الشعب بأن إسرائيل تواجه تهديداً حقيقياً لوجودها. وقامت المظاهرات مُطالبةً باستقالة إيشكول. وأدّىٰ تزايد الضغط الشعبي بالإِضافة إِلىٰ الضغط الخفيّ الَّذي يمارسه الكثيرون علىٰ الأَركان العامة إِلىٰ تشكيل مجلس وزراء حرب جديد ضمّ من حزب الصقور موشي دايان وزيراً للدفاع، ولأول مرّة ضمّ أَعضاء من حزب هيروت القومي المتطرّف، الذي كان يتزعّمه مناحيم بيگن[11]. تمّ التحضير والتخطيط للحرب على نحو جيد جداً، وفي صباح الخامس من حزيران/ يونيو قامت المخابرات العسكريّة وقوىٰ الجو الإِسرائيلية التي حدَّدت بدقّة مواقع الطائرات المِصرية والسورية والأردنية بقصف هذه الطائرات وتدمير معظمها علىٰ الأَرض خلال ساعات قليلة. قال شارون في سيرته الذاتية بٱختصار، أنّه «في صباح الخامس من حزيران/ يونيو، شنّت القوىٰ الجوية الإِسرائيلية الهجومَ

---

(11) أَشار كلٌّ من إسحاق رابين وعازرا وايزمان بوضوح في سيرتهما الذاتية إِلىٰ حقيقة أنه قبلَ هجوم حزيران/ يونيو سنة 1967، نظّم الضباطُ القادةُ عِصياناً مسلّحاً ومنعوا الحلول السياسية للأزمة. واعترف رابين، رئيس الأركان، أن: «عبد الناصر لم يكن يريد الحرب. وكنّا نعرف تماماً كما يعرف هو أن الفرقتين اللتين أرسلَهما إِلىٰ سيناء، لن تكونا كافيتين لشن حربٍ عُدوانية». (صحيفة اللوموند تاريخ 28 شباط/ فبراير 1968). واعترف ليڤي اشكول نفسُه بأن «الوجود المصري في سيناء وكثافة المباني هناك، تثبت المهمة الدفاعية للجيش المصري جنوب إسرائيل» (يديعوت احرانوت، 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1967). في الثامن من آب/ أغسطس 1982، قال رئيس الوزراء، مناحيم بيگن مدافعاً عن غزو لبنان: «في حزيران/ يونيو 1967، كان لدينا خِياراً أيضاً، ومنشآت الجيش المِصري في سيناء لم تثبت أن عبد الناصر كان علىٰ وشك مهاجمتِنا. يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا. نحن من قرّرنا مهاجمته». (نيويورك تايمز 21 آب/ أغسطس 1982).

الوقائي الأَولي علىٰ الأَراضي المِصرية». بينما هاجَمت فرق المشاة والدبابات الإِسرائيلية التي كانت قد حقَّقت مُسبقاً السيطرة الجوية المطلقة، المراكزَ والتحصيناتِ والقواعدَ العسكريّة المِصرية. وكانت من أَكثر الخرافات التي ترسَّخت في الذاكرة الجمعية دلالة عند كل من الإِسرائيليين والغربيين، أنّه خلال حرب 1967 (أَو كما تدعوها إِسرائيل بعنجهية، «حرب الأَيام الستّة»)، هاجمت كل من مصر وسورية الأَراضي الإِسرائيلية، وهو اَعتقاد استُخْدِم في تبرير شرعية الاحتلال الَّذي حدث ذلك اليوم[12].

قاد شارون إِحدىٰ الفرق الثلاث التي قامت بالهجوم المفاجئ علىٰ القوَّات المِصرية في سيناء. وكان هدفه المجمع العسكريّ المِصري المهم أبو عجيلا، علىٰ الطريق الرئيسي في سيناء. وكانت المعركة الحاسِمة، التي دمّرت جزءاً مهماً من القوَّات المِصرية غير مسبوقة لسبب مهم هو: نسبة القتل. لقد قُتِل آلاف المِصريين بينما تكبّدت القوَّات الإِسرائيلية قليلاً من الخسائر. وعزا شارون ذلك إِلىٰ أنّه من السهل استبدال المعدّات العسكريّة (من السوڤييت) لكنّ التدريب الفعَّال للوحَدات العسكريّة يحتاج إِلىٰ

(12) في اليوم الأول للحرب، وبعد إِعلانات مِصرية عن انتصارات ساحقة، هاجم الأَردنيون بتردّد بعض النقاط المحلية في إِسرائيل، أولاً لأنهم أرادوا إِثبات التضامن مع مصر؛ وثانياً لأنهم أَرادوا المشاركة في غنيمة ما بعد الحرب. كان الهجوم الرئيسي في القدس، المنطقة المُتنازَع عليها تاريخياً بين الهاشميين والإِسرائيليين منذ سنة 1948. وحذّرت إِسرائيل الأردنّ من المشاركة في الحرب، لكن الأردنّ تجاهل هذا التحذير.

سنوات. في وقت لاحق وفي معركة أُخرىٰ داخل سيناء، طوّق شارون كتيبة دبابات مصرية في «ناقل» ودمَّرها تدميراً كاملاً. وقُتِل خلالها حوالَي ألف من الجنود المِصريين. ومن وجهة نظر عسكريّة بحتة، أَثبت شارون قدرته، خلال حرب 1967، علىٰ تخطيط العمليّات العسكريّة المعقَّدة وإدارتها، وتأكَّدت صورته الشعبية كمحارب إسرائيلي أوّل. ومع ذلك، كانت غايات شارون أَبعد من أَن يكون بطلاً عسكريّاً. فلا بد أَنَّه لاحظَ كيف استطاعَ رجالٌ أَمثال ييگال آلون وموشي دايانٰ (والاثنان مرشحان لرئاسة الوزراء) تحويلَ ماضيهم العسكريّ إلىٰ مصدر للقوّة السياسية. كان مركز قيادته حافلاً دوماً بمجموعات من الصحفيين والكتاب المتوسّطي الجودة ورجال العلاقات العامة الَّذين جعلوا منه أسطورة مقابلَ أَن يعرَّفوا علىٰ أنهم رسله.

كانت مَهمة شارون الأُولىٰ بعْدَ الحرب هي أَنَّه القائدُ العام لمدارس وقواعد التدريب العسكريّ. بهذه الصفة، وعكس إِرادة رؤسائه، أمرَ بنقْلِ كافة قواعد التدريب العسكريّ إِلىٰ الضفَّة الغربية المحتلّة حديثاً. وعن طريق تأسيس وجود عسكريّ ضخم في هذه الأَراضي، قام شارون ببناء البُنىٰ التحتية الضرورية (الطرق والكهرباء وآلاف من الجنود الإِسرائيليين) لاستعمار الأَراضي المحتلَّة.

وخلال السنوات الأُولىٰ بعد الحرب، خاضَتْ مصر وإِسرائيل ما سُمِّي حرب الاستنزاف علىٰ طول قناة السويس. وتنفيذاً لفكرةِ رئيس

الأَركان حاييم بارلييف، بَنَت إِسرائيل خطاً محصناً للسيطرةِ علىٰ المنطقة. واستمرت مصر بقصف هذا الخط بالمدفعية الثقيلة لمدة ثلاث سنوات، بينما كانت إِسرائيل ترد بالمدفعية والقاذفات الجوية والغارات العَرَضية علىٰ الضفَّة الغربية للقناة. وتكبّد الطرَفان خلال هذه المدة خسائر فادحة. وٱقترح شارون وغيره من الضبّاط مثل إِسرائيل تال وماتيتياهو پيليد، وسائل بديلة لحماية هذا الخط، وهذا من وجهة نظر مختصة: وضع قوّة مَرِنة ومتحرِّكة علىٰ بعد خمسة عَشَر ميلاً من القناة بشرط أَن تكون قادرة، وبسرعة، علىٰ شنّ هجوم مضاد علىٰ أَي قوة مِصرية تعبر القناة، دون أَن تكون في المدىٰ الفعَّال للمدفعية المِصرية. لقد أَصبحت مسأَلةُ السيطرة علىٰ القناة مثارَ جدَل كبير داخل القيادة العامة بالإِضافة إِلىٰ أَنّها أَصبحت سبباً للخلافات الشخصية بين شارون ومعظم زملائه في الـ«پت» (الاسم الحركي للمركز السرّي للقيادة العامة الإِسرائيلية). كان شارون يتهم رؤساءه وزملاءه في المركز دائماً بالجهلِ والغباء وبمسؤوليّتهم عن الخسائر الإِسرائيلية الفادِحة (ما يقارب 1,500 في شهر آب/ أغسطس 1970، بينهم 360 قتيلاً). وكالعادة، سرَّب شارون هذا الجدل إِلىٰ الصحافة مستخدماً معجبيه في وسائل الإِعلام لتشويه سُمعةِ زُملائه. وعندما نسِيَ شارون مرة تعبئة بعض البيانات قرَّر بارلييف ٱستخدام هذا الخطأ المكتبي ذريعةً للتخلّص منه. وتجنّب كل من دايان وگولدا مائير التدخُّل، فٱتجه شارون إِلىٰ قادة المعارضة طالباً المشاركة في الأنتخابات المقبلة. كان شارون أول، وربما لن يكون آخر جنرال

إسرائيلي يتولّىٰ المداولات الحِزبية وهو لا يزال في زِيّه العسكريّ، وكان هذا خرقاً خطيراً للقواعد لكنه حركةٌ سياسية بارعة. وعندما علم الرجل القوي في الحزب الحاكم (پينشاز ساپير وزير المالية) أن جنرالاً مشهوراً قد ينضمُّ إِلىٰ المعارضة، اتّخذ كل الإِجراءات الكفيلة بإِبقاء شارون في الجيش. وتمّ تعيينُه في أحد أقوىٰ المراكز في التسلسل العسكريّ ـ قائد الجبهة الجنوبية.

بين سنة 1967 و1970، شارك الفِلَسطينيون من مخيمات اللاجئين في قطاع غزة بعمليّات المقاوَمَة المسلّحة المتقطّعة ضد الاحتلال الإِسرائيلي. وبدأ شارون في آب/ أغسطس 1970، بالتخلّص من بقايا الخلايا الفدائية. فعمل على نحو منظّم وبكثير من الوحشية، متنقّلاً من حيّ إِلىٰ حيّ ومن بستان إِلىٰ آخر. وفرض الجيش منع التجول طوال النهار وجمع سُكان الأحياءِ أَو المخيمات (أَفضل المواقع كانت في مخيمات شأتي وجباليا)، ليستطيعَ الجنودُ تمشيطَ البيوت وتأمين الدخول السهل للجيش إِلىٰ أَي جزء من قطاع غزّة. وهذا يعني هدم آلاف البيوت واقتلاع قسم كبير من بيّارات الليمون في القطاع، المحصول الوحيد في المنطقة. وأُعطيت الأَوامر بإِطلاق النار علىٰ أي مشتبه دون محاكمة أَو تحقيق، وتَمّ إِطلاقُ النار أَو تنفيذ الإِعدام المباشَر علىٰ أكثر من أَلف شخص. كانت العقوبات الجماعية بحقّ المدنيين والإِعدامات خارج القانون ممنوعة تماماً وتُعتبر جرائم حرب وفق القوانين الدّولية. وبرغم أَن هذا النظام، الّذي تمّ تطبيقه مؤخّراً علىٰ أَجزاءِ أُخرىٰ من الأَراضي المحتلّة، أَدّىٰ إِلىٰ نوعٍ من عدم

الارتياح بين ضباط شارون وجنوده بالإضافة إلىٰ الأَركان العامة، فقد تمّ دعمه من وزير الدفاع موشي دايان. وكان هذا هو الارتباط الرئيسي الأوّل لشارون بالمشكلة الفِلَسطينية. وبعد سبعة أَشهر، أُعفي من مسؤوليته في قطاع غزّة.

مُنذُ الأَشهر الأُولىٰ للاحتلال، أعلنتْ إِسرائيل بفخر أنّها سوف تُدير «احتلالاً تنويرياً» (وهذه عبارات متناقضة) وذلك بمنح سكان الأَراضي المحتلَّة حكماً ذاتياً محلياً دون أيِّ تدخُّلٍ إِسرائيلي. أَي أن باستطاعتِهم توفيرَ كلِّ الخدمات الأَساسية المحليّة مثل التعليم والكهرباء. في الواقع، وفي فترة ما بعد الحرب مباشرة، كان مجلس الوزراء الإِسرائيلي متأكداً من أَن القوىٰ العظمىٰ لن تسمح بالاحتفاظ بمعظم الأَراضي وسوف تفرض الانسحاب، تماماً كا فعلوا سنة 1957.

وأنطلاقاً من هذا الحدس. قرَّرت حكومة الوحدة الوطنية التي تضمّ مناحيم بيگن، بعد أُسبوعٍ واحد من أنتهاءِ الحرب في 19 حزيران/ يونيو، 1967، بالإِجماعِ أَن تتقدَّم بأقتراح لإِعادة جميع الأَراضي السورية والمِصرية المحتلَّة مقابل السَّلام الكامِل. وتم تقديمِ هذا القرار إِلىٰ الولايات المتّحدة، التي كان من المتوقع أَن تلعب دور الوسيط. لكن، وفقاً للأدلة الجديدة التي قدَّمها الباحث الإِسرائيلي دان بابلي، فإِن الولايات المتّحدة لم تسلّم الرسالة أبداً، ربما لأنّها لم تكنْ مهتمةً بإِعادةِ فتحِ قناة السويس أَو بتقديمِ فوائدَ أُخرىٰ لزبائن السوڤييت.

وفي صيف 1968، عَقَدَ زعماءُ الدّول العربية، الَّذين لم يتسلَّموا الرسالة الإِسرائيلية، مؤتَمراً في الخرطوم، واختُتم المؤتمر بـ«اللاءات الثلاث» الشهيرة لإِسرائيل: لا مفاوضات، لا اعتراف، لا سلام. لقد عكست هذه العبارة الموقف العربي التقليدي بعدم الاعتراف بحقّ الدّولة اليهودية بالوجود في هذه المنطقة. وقرأت إِسرائيل البيان الختامي لِقِمّة الخرطوم علىٰ أنّه ردّ واضح علىٰ رسالةِ السَّلام التي وجّهتها، فدَفَنَتْ مبادرتَها السِّلْميَّة وكأنها لم تكن يوماً.

بقيَ الوضع السياسي في إِسرائيل، سنة 1968، مائعاً وغير واضح. كان الشعب والقيادة مُنْتَشِين بعد النصر الَّذي تمّ تقديمه علىٰ أنّه نتيجة لحربٍ وقائية مفروضة ولا يمكن تجنّبها، أَنقذت إِسرائيل من الإِبادة الكامِلة. وبالمقارنة مع التخطيط الجيد للحرب، لم يكن لدىٰ القيادة والنُّخبة السياسية فكرة عما يفعلونه بالأَراضي المحتلَّة ناهيك عن الناس الَّذين أَصبحوا فجأةً تحت السيطرة الإِسرائيلية. وحاول رئيس الوزراء ليڤي إِيشكول التفاوض مع بعض الوجهاء الفِلَسطينيين من الضفَّة الغربية من أَجل منحهم الحكم الذاتي مع أَو بدون مشاركة السلطة مع النظام الأردنيّ. لكنّ الزعاماتِ الفلسطينيّةَ المحليّة أَوْضحَتْ أنّها لا تَشْعرُ بأنّها مخوَّلة للتفاوض مع الإِسرائيليين وصرَّحتْ بأن المُمثِّل الشَّرعي والوحيد للشعب الفِلَسطيني هو «منظّمة التحرير الفِلَسطينية»، وهذه الفكرة لم تكن وارِدةً نهائياً في ذلك الوقت عند الإِسرائيليين. ومع أنّ الحكومة الإِسرائيلية لم تكنْ متأكِّدةً مما ستفعله بالأَراضي المحتلَّة، بدأ أَرييل شارون تثبيتِ الوقائعِ علىٰ

الأَرض. واتّفق مع دايان علىٰ فصل قطاع غزّة نهائياً عن السيطرة المِصرية (والفِلَسطينية). واتّفقا علىٰ ضرورة استِئْصال آلاف البدو من شمال سيناء ورفح وعلىٰ أن هذه الأَراضي يجب أَن تكون جاهزة للمستوطنات اليهودية. وسُيِّجت مساحات واسعة من الأَراضي وطُمرت آبار المياه. وهكذا، حاول دايان وشارون اتّخاذ القرار بمفردهما، دون استشارة مجلس الوزراء أَو الكِنِيسْت، في مستقبل هذه الأَراضي وربّما في مستقبل المنطقة بكامِلها. إِلىٰ درجة أَن دايان بدأ بالترويج لمشروع شخصيّ من أَجل بناء مدينة جديدة علىٰ طرف سيناء - ياميت. وتمّ توسيع هذا المشروع لإِفساح المجال للمستوطنات اليهودية داخلَ قطاعِ غزّة ذَاتِه. كتب بنزيمان أنّ التعاون بين دايان وشارون كان مثالياً لَدرجة أَن وزير الدفاع لم يكن مضطرّاً لتوجيه أَي أَوامر مكتوبة إِلىٰ الجنرال، وما كان عليه إِلاَّ أَن يُعَبِّر عما يدور في ذهنه من تمنّيات بخصوص أَمر ما (علىٰ سبيل المثال، «ما أَجمل أَن تكون المنطقة خاليةً من البدو»)، ليعتبره شارون أَمراً[13]. ولأوّلِ وآخرِ مرة خلالَ عمله العسكريّ، أَصبح شارون جندياً مطيعاً. والأَعمال التي قام بتنفيذها كانت تُبرَّر بأَنّها «ضرورات أمنية»، وهي عبارة أَثارت جدلاً دائماً عند كل الأَطراف في الحياة السياسية الإِسرائيلية، بما فيها الفرع القضائي. وعندما طالب البدوُ المشردون

(13) يستند التاريخ التقليديّ استناداً كاملاً علىٰ الوثائق المكتوبة أو المسجّلة ويتجاهلُ عادة حقيقة أَن صنّاع القرار الأَقوياء والمحنّكين حريصون جداً تجاه أي من الوثائق ستبقىٰ بعدهم، وكيف ستصوِّرهم في ضوء التاريخ. من وجهة النظر هذه، فإن أكثر المؤرخين ليسوا سوى خَدم للقوىٰ السّابقة والحالية.

الإِنصاف من محكمة العدل الإِسرائيلية العُليا، رفضت المحكمة طلبهم عندما أَحضَر شارون شخصياً إِلىٰ المحكمة «بيانات» تؤكّد «الضرورات الأَمنية». إِن التعاون الحميم بين شارون ودايان قاد شارون للاعتقاد أَن وظيفة القائد الأَعلىٰ للقوّات المسلَّحة أَصبحت مضمونة له. لكن رئيس الأَركان الجديد ديڤيد اليعازر ورئيسة الوزراء گولدا مائير أصرّا علىٰ أَن ينهي شارون خدمته العسكريّة الفعلية لأن مائير، إِلىٰ حدّ ما، ترىٰ فيه خطراً علىٰ الديمقراطية الإِسرائيلية، وبحزم قدَّم شارون استقالته، وتَمّ إِعفاؤه من الخِدمة العسكريّة الفِعْلية في 15 تموز/ يوليو، 1973، ولكن ليس من الواجبات الاحتياطية.

بدأ شارون عملَه السياسي مباشرة بحَملة إِعلامية واسعة مؤكّداً علىٰ فِكرتين أَساسيتين: أنّه أُجبرَ علىٰ الاستقالة من الجيش ضِد إِرادته لأَسباب سياسية، وأنّه برغم كون إِسرائيل قوّة عسكريّة في المنطقة، فإِن حكومتها «الجبانة» تجنّبت ٱستخدام القوّة العسكريّة لتحقيق أَهداف سياسية (غير محدّدة). وٱنضمّ في الوقت نفسه، إِلىٰ الحزب الليبرالي، الشريك في «ماهال» أحدِ الكتل اليمينيَّة في الكِنِسِتْ التي تضمّ أَيضاً هيروت حزب بيگن. بذل شارون الكثير من الجهد من أَجل تَوْحيدِ هذه الأَحزاب وإِضافةِ زُمَرٍ صغيرة أُخرىٰ من أَجل تأسيس حزب جديد يعملُ تحتَ شعار «الوحدة في الدفاع عن إِسرائيل الكبرىٰ». وٱعتقد شارون أنّه إِذا وحّد كل هذه الأَحزاب المعارِضة قبل الأنتخابات، فإِن الائتلاف الجديد يستطيع استبدال الحزب الحاكم «الدائم» وسوف يتم تعيينه وزيراً للدفاع. ولكن محاولات

شارون أَخفقت إِما لأنه لا يزال دخيلاً سياسياً غير متمرّس أَو لأن السياسيين لا يثقون ببعضهم البعض.

وبينما كان شارون يُحاول القيام ببعض الحركات السياسية الخرقاء، بدأت حرب 1973. عشراتُ الآلاف من جنود المشاة المصريين ومئات من الدبابات عَبَرَت قناة السويس وأنهار خط بارليف. وفي الشمال، استولت القوّات المسلّحة السورية، التي نسّقت هجومَها مع مِصر، علىٰ مرتفعاتِ الجولان وهدّدت بغَزو شمال إِسرائيل. وعكس ما هو معروف تقليدياً، فإِن الهجوم لم يكن مفاجأة. فلقد كانت القوّات المسلّحة الإِسرائيلية وغيرها من المصادر الاستخباراتية قد تسلّمت تحذيرات تحدّد اليوم، والساعة لقد أُبْلِغَت گولدا مائير بالهجوم القادم. وكان الافتراض أنّه إِذا سمحت إِسرائيل لمصر وسورية أَن تعرفا أنّه تم إِبلاغها تماماً بخطط الهجوم، فإِنّه من الممكن أَن يتم تأجيل الحرب أَو حتىٰ إِلغاؤها.

يمكن أَن يُعلَّل فشلُ إِسرائيل في تَجنّب الحرب المتوقعة علىٰ أَنَّه نتيجةٌ لاَجتماعٍ غير رسمي في «مطبخ گولدا» الأسطوري، الَّذي نَشَر هانوك بارتوف مؤخَّراً تقريراً عنه[14]. لقد ضمّ الاَجتماع، الَّذي عُقد قبلَ حوالَي ستةِ أَشهر من بَدء الحرب، كلًّا من گولدا

(14) كان شائعاً منذ زمن طويل أَن إِسرائيل علمت مسبقاً بحرب 1973 ولم تفعل شيئاً لمنعها، لكن بارتوف قدّم في نسخته الموسّعة عن سيرة حياة ديڤيد اليعازر (وتصغيره دادو)، أَدلة موثّقة ودامِغة.

مائير وموشي دايان والوزير بلا حقيبة إسرائيل گالليلي، المستشار الأَوّل لمائير والعقل الموجّه. وأعلن گالليلي في الأجتماع أنَّه لو لم تستجب إسرائيل لما وصفه «العروض الكريمة» من السادات، لكانت الحرب حتمية. وجاء الرد من مائير ودايان بعبارة «وماذا يعني؟» موضحين أَن الهجوم سيعطي إسرائيل فرصة ثانية لتدمير الأَسلحة السوڤييتية. هكذا، وبغطرسة توقعت إسرائيل حرباً، لكن ليست تلك الحرب التي تطوّرت فعلياً. وكانت المفاجأة علىٰ المستوىٰ التكتيكي. حيث حمل آلافٌ من الجنود المِصريين الصواريخ الخفيفة التي أَلحَقت أَضراراً بالغةً بالطائرات الإِسرائيلية والوحدات المصفَّحة، وشلَّتها تماماً في الطَّوْر الأوّل من الحرب. وكانت الضفَّة الغربية للقناة محمية أيضاً بسرايا كثيفة من صواريخ أَرض ـ جو الطويلة المدىٰ تمّ تدميرها لاحقاً بواسطة القوّات المصفَّحة والمشاة التي عَبرت القناة بأتجاه الغرب.

تحرَّك شارون والفرقة (143) الاحتياطية دون تأخير، بينما خَرَق المِصريون والسوريون بسهولة الخطوط الإِسرائيلية وحاصَروا الحصون الإِسرائيلية علىٰ طولِ القناة. لكن في هذه الحرب قاتَل شارون قتالاً واضحاً علىٰ جبهتين: الأُولىٰ ضدّ القوّات المِصرية في الجنوب والثانية من أَجل مجده الشخصي، الَّذي تَمنّىٰ أَن يتحوَّل إِلىٰ كَسْب سياسي بعد الحرب. كان هدف شارون أَن يكونَ أَوّل من يعبر قناة السويس من الشرق وأن يَذْكره الشعبُ الإِسرائيلي علىٰ أَنَّه البطل الرئيسي، إِن لم يكن الوحيد، الَّذي ربح الحرب وأَنقذ إِسرائيل من

الكارثة. لقد أَراد تحقيق هذا الهدف بكل الوسائل اللازمة ودون أي اعتبارات أُخرىٰ. اتُّهم شارون، خلال هذه الحرب، بتجاهل معظم الأَوامر الموجَّهة له من القادة الأعلىٰ ومن الأَركان العامة وبتعطيل أي خطة لا تتوافق مع مصلحته الشخصية. لقد تَرَكَ أجنحةَ وحدتِه والوحدات الإِسرائيلية الأُخرىٰ مكشوفةً من أَجل أَن يكون أَوّلَ مَن يعبر القناة. وكان مصمِّماً أَيضاً علىٰ هزيمة منافسه، ورفيقه قائد الفرقة الجنرال ابراهام آدان، الَّذي تمّ تعيينه بالأَساس من المركز الرئيسي للقيادة ليعبر القناة في الوقت المناسب كجزء من هجوم مضاد تمّ التخطيط له[15]. كان من المتوقّع أَن تفتح فرقة شارون طريقاً إِلىٰ القناة، وأن تُنشئ حصناً علىٰ الضفَّة الغربية وتحميه، وأن تستر قوّات الجنرال آدان أَثناء عبورها القناة.

في التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر، اكتشفت وحدة استطلاع صغيرة من فرقة شارون فراغاً غيرَ محميٍّ بينَ الجيشين المِصريين الثاني والثالث، اللذَين كانا يَعبران القناة شرقاً. فطلب شارون، ولم يكن قد اْكتمل بعد تجهيز وحدته بشرياً أَو عتاداً، الإِذن من الأَركان العامة من أَجل استغلال هذا الفراغ بين الجيشين المِصريين وعبور القناة، مسبِّباً بذلك اْرتباكاً بين القيادة والقوّات المسلَّحة المِصرية. رُفض اقتراحُ

(15) لقِّبت حرب 1973 بين الجنرالات أنفسهم بـ«حرب الجنرالات»، الَّذين كانوا قلقين جداً من كيفية اْنعكاس تقييم نجاحهم أو فشلهم علىٰ وضعهم المِهَني. بينما كان الضُباط الأدنىٰ مُهتمين فقط بمكانتِهم في التاريخ، أمّا شارون فكان لديه «أجندة» سياسية جاهزة.

شارون، واعتُبر مخاطرةً كبيرةً لسببين: أوّلهما أنّه يمكن تدمير القوّات الصغيرة الموجودة تحت تَصرُّفِ شارون، والمدعومة فقط بعددٍ قليل من الدبَّابات وتفتقد الحماية الجوية اللازمة، بسهولة من الحشود الضخمة للقوّات المِصرية في المنطقة. ثانيهما، توقَّعتْ القيادة العسكريّة هجوماً مِصرياً شامِلاً ضِدّ إسرائيل ـ وهذا ما حصل فعلاً ـ وقرَّرت عَدَمَ تَشْتيت القوَّات الإسرائيلية التي لم يَكْتمل تجهيزها بعد. وللسبب نفسِه رفضَتْ القِيادةُ اقتراحَ شارون السَّابق، بأن تقود فرقته حملة لإنقاذ الجنود اليائسين المُحاصَرين علىٰ خط القناة. في منتصف تشرين الأوّل/ أكتوبر، كان من الممكن أَخيراً لشارون أن يعبرَ القناة. وقد أَدّىٰ طموحه في أَن يكون أَوَّلَ مَنْ يعبرُ القناة إلىٰ كثير من الخسائرِ الإسرائيلية، وكان السَّبب بتعرّض عدة ألوية للهجوم، وبأن يهرعَ كثير من الجنود إلىٰ عُمْق الأَراضي المِصرية دونَ دَعْم أَو ذخيرةٍ أَو عتادٍ كافٍ. أُصيب شارون بجَرحٍ طفيفٍ في جبهتِه وانتشَرَتْ صورةُ الجنرال الإسرائيلي النازِفِ وهو يطأُ الترابَ الأفريقي محاطاً بالجنودِ المعجَبين وهم يُنشدون «آريك ملك إِسرائيل» عَبر البلاد وحول العالَم. وعلىٰ الرغم من قراراتِ شارون العسكريّة المثيرة للجدل، فقد أَصبح معروفاً للمرّة الثانية بـ «مُخلِّص إسرائيل».

9 ـ راعي المستوطنين

بعد اتفاق وقف إطلاق النار مع مصر وسورية مباشرة، غرقت إسرائيل في مستنقَع الاحتجاجات التي ظهرت لأوّلِ مرةٍ بينَ أَفرادِ الطبقة الوسطىٰ. وأَخبرَ الجنودُ العائدون الناسَ، ليس عن أَهوالِ

الحرْبِ فقط، بل أَيضاً عن قِلَّةِ التحضيراتِ والارتباك ونقص الإِدارةِ عِندَ القيادةِ العسكريّة. وطالَبَ المحتجّون بتحديدِ المسؤولية وبالتفسير من المستويات السياسية وخاصّة من گولدا مائير وموشي دايان. وتزايدَ الاحتجاجُ الشعبي مع أَن الناس كانوا بعيدين جداً عن معرفةِ الحقيقة الكاملة لمدىٰ مسؤولية القيادة المدنية عن هذه الحرْب الدامية والمُكْلِفةِ. دخلَت مصطلحاتٌ جديدةٌ إِلىٰ المداوَلات السياسيةِ و«الأجندة» الشعبية مثل (مهدال)، الفشل في التحضيرِ لهذه الحربِ التي كان واضحاً أَنّها قادِمة، و(كونتزِپتيا)، الاعتقاد الخاطئ بأنّه، في ظل الظروف الجيوسياسية والوضع الإِقليمي الراهن، لن يكون لدىٰ العرب الحافِز للهجوم علىٰ إِسرائيل. وعَكَست هذه المصطلحات قلَّةَ ما يعرفه الشعب وحتىٰ المنظورين عن السَّبب الحقيقي لهذه الحرب، التي أَودت بحياة 2,636 إِسرائيلياً وآلاف من الجنود المِصريين والسوريين. وتجب الإِشارة إِلىٰ أنّه حتىٰ يتم استيعاب معاني حرب 1973 ومضامينها، ستبقىٰ الغالبية العظمىٰ، من المواطنين الإِسرائيليين اليهود، غير مهتمة بالمشكلات المرافِقة لاحتجاز 3,5 ملايين من الفِلَسطينيين العرب في الأَراضي المحتلَّة، ربما لأن الحالة ما زالت تُعتبر مؤقتة.

يُعتبر الأَحتلال العسكريّ، من وُجهة نظرٍ سوسيولوجية، نظاماً أَجتماعياً فريداً تُديره قوةٌ أجنبية مؤقتة بعدَ الحرب. وفي ظلِّ هذا النِظام يتم تعليقُ معظم أَو جميع الحقوق المدنية والسياسية للسكّان، لكن منذ القرن التاسع عشر أَصبح من المفروض حماية حقوقهم

الإنسانية تنفيذاً للمواثيق والقوانين الدّولية. ويجب أَن يكون الاّحتلال مؤقتاً لأنه من غير المحتمل إنكار الحقوق المدنية للسكّان أَو إِنكار حقّهم في تقرير المصير. ويمكن أَن ينتهي الاّحتلال بثلاث طرق: بآنسحاب القوّات المحتلّة وإِعادة النظام الاّجتماعي الأَصلي؛ أَو بمنح حق تقرير المصير لسكّان الأَراضي المحتلّة؛ أَو بضمّ الأَراضي إِلىٰ المحتلّ ومنح سكان الأَراضي المحتلّة، شكلياً علىٰ الأَقل، المزايا نفسها التي يتمتع بها مواطنو القوّة المحتلّة. ولقد اعترف القانون الدّولي بحقّ مقاومة الاّحتلال ولكن وِفق شروط صارِمة، فمنع القتل المتعمَّد للمدنيين علىٰ سبيل المثال.

وفي إِسرائيل، كانت المداولات حول مستقبل الأَراضي المحتلَّة جارية بين بعض الجماعات المتصدِّرة وبين السياسيين. وبعد سنة 1973، لم يتخلَّ الشعب فقط عن حيوية ما بعد 1967، بل اَزدادت معرفتُه بمدىٰ تعقّد وضعه أيضاً. وانقسمت ببطء حركات الاحتجاج الشعبية غير الناضِجة إِلىٰ اَتجاهين مُتعاكسين، وتشكّلَت حركتان شديدتا الترابط خارج البرلمان. قرّرت إِحداهما، وفقاً لمجموعة الأَسباب القومية والدِّينيَّة والأَمنية، ضرورة الضمّ الكامل للأَراضي المحتلّة، أَو علىٰ الأَقل، كامل أَراضي فِلَسطين التاريخية بالإِضافة إِلىٰ مرتفعاتِ الجولان السورية، ضماً دائماً إِلىٰ إِسرائيل. وكانت هذه المجموعة تؤمن أيضاً بضرورة استيطان هذه الأَراضي (وكلمة استعمار أَكثر دقة في ظل هذه الظروف) بحركة متجذِّرة لإِجبار الدّولة علىٰ عدم التخلّي عنها. ومن أَجل تهدئة المواطنين بعد كارثة حرب 1973،

شكّل مجلس الوزراء لَجنة تحقيق برئاسة قاضي المحكمة العليا شمعون أكَرانات. وتمّ تحديد أَهداف اللجنة بدقّة التي تتعلّق فقط بتصرّفات القيادات العسكريّة خلال فترة زمنية محدّدة. ووجدت اللجنة أَن كلًّا من رئيس الأركان ديڤيد أليعازر وقائد الجبهة الجنوبية صموئيل گونين ورئيس المخابراتِ العسكريّة فقط، هم المسؤولون عن سوء إِدارة الحرب وتمّ صرفُهم من الخدمة.

وبرغم الاحتجاج الشعبي الواسع، لم يكن الشعب في الأنتخابات المتأخّرة التي جَرَت في كانون الأول/ ديسمبر 1973، مُستَعِداً بعدُ لمعاقبة الحزب الحاكِم بسبب الإِهمال والفشل. وكان هذا الاحتجاج إِلىٰ حدّ ما بسبب اتّهامات شارون الصاخبة ضد الجيش والقيادة السياسية وسياساتها، وبخاصّة بسبب الاتّفاق المؤقّت مع مِصر من أَجل إِعادة بناء القوّات العسكريّة وهو الاتّفاق الّذي شكّل لاحقاً الأَساس لاتّفاقيات السّلام. عارَض شارون، خلال الحرب، قبول قرار الأُمَم المتّحدة بوقف إِطلاق النار. وبسبب قلقه من تآكل قدرة الردع الإِسرائيلية، طالب شارون باستمرار القتال حتىٰ تحقّق إِسرائيل نصراً حاسِماً علىٰ مِصر. واستطاع حزب الليكود اليميني المعارض، خلال هذه الانتخابات توسيع قوّته داخل الكِنيِستْ توسيعاً ملحوظاً، وازدادت مقاعده من 29 مقعداً، إِلىٰ 39 مقعداً من أصل 120. وعلىٰ أحد مقاعد الليكود كان يجلس شارون.

وجد شارون أَن العمل البرلماني الكئيب للحزب المعارِض علىٰ المقاعد الخلفية لا يتناسبُ مع طُموحاته وشخصيته ومِزاجه

المتمرّد. وأعاقتْهُ أيضاً الشكوكُ المتبادَلة وانعدام الثقة المتفاقِم بين السياسيين المخضرمين والقادمين الجُدد الشديدي العناد. وقدَّم استقالته عندما أقرّ البرلمان قراراً يمنع أيّاً من أعضاء الكِنِسِتْ تسلّم منصب عال مثل قائد مَيْداني. في الحقيقة، كان شارون يبحث دائماً عن فرصة للعودة إلىٰ الخدمة العسكريّة الفِعْلية ولترفيعه إلىٰ الموقع الَّذي يرغبه أكثر، رئيس أَركان القوَّات المسلَّحة الإِسرائيلية. إنّ استقالة گولدا مائير، وتسمية إِسحاق رابين رئيساً للوزراء، وشدَّة الصراع الإِسرائيلي الفِلَسطيني علىٰ طُول الحدود الإِسرائيلية، وتخليص الأَركان العامّة من العناصر غيرِ المرغوبة، كلّ هذا اعتبرَه شارون فرصةً لطلب لعبِ دَوْر أَكثر فاعلية في تحديد السياسة العسكريّة الإِسرائيلية.

وبعد طرد «فتح» وبقية المنظّمات الفدائية من الأردنّ إثر الأَحداث الدامية في أيلول/ سپتمبر 1970، سيطرت منظّمة التحرير الفِلَسطينية علىٰ منطقةٍ في جنوب لبنان، وأَسَّست تدريجياً دولة داخلَ دولة. كان مركز قيادتها في الفاكهاني في بيروت. وشنّت المنظّمات الفدائية الفِلَسطينيَّة من قواعدها في جنوب لبنان سلسلة من الغارات موجَّهة تحديداً ضد أَهدافٍ مدنية داخلَ إِسرائيل وخارجها.

بدأت هذه الغارات في منتصف الستينيات واستمرت لمدة عقدين من الزمن. وكان عددها بالمئات وسبَّبت كثيراً من الخسائر الفادِحة بين المدنيين. وكان أَشد الإِصابات المتعدّدة فظاعة تلك التي وقعت نتيجة لفشل الجيش ووحَدات الشرطة في عمليَّات الإِنقاذ، عندما

حاولوا إنقاذ الرهائن الَّذين استُخْدِموا لإنجاز صفقات من أجل تحرير المقاتلين الفِلَسطينيين المحتجزين في السجون أو المخيمات الإسرائيلية. وتعتبر عملية (آفيفيم) في 20 أيار/ مايو 1970، التي قُتل فيها تسعة أَطفال وجُرِح تسعة عشر آخرين، بالإضافة إِلىٰ عمليَّة ماعلوت في 15 أيار/ مايو 1974، التي سقط ضحيتها واحد وعشرون طفلاً وجُرِح ثمانية وستون، مثالاً للمآسي التي كانت خسائرها بسبب فشل جهود الإنقاذ. وكان الحدث الثالث في 11 آذار/ مارس 1978، أَثناء محاولة إنقاذ ركّاب علىٰ متن باص مختطف أدَّت إِلىٰ مقتل خمسة وثلاثين شخصاً، معظمهم من سكّان المستوطنات الحدودية الصغيرة والفقيرة.

لم تقتصر عمليّات الجماعات الفِلَسطينيَّة علىٰ الأَراضي الإِسرائيليَّة بل تعدتها إِلىٰ أهداف إسرائيلية في جميع أَنحاء العالَم. ففي ميونيخ في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1972، اختُطف أَعضاءُ الفريق الأولمبي الإِسرائيلي. وأَثناء عملية الإِنقاذ، الفاشِلة، التي قامت بها وحدات الأَمن الأَلمانية، قُتل أَحد عشر رياضياً إِسرائيلياً. وفي مناسبات كثيرة تعاوَنَت المنظّمات الفدائية الفِلَسطينيَّة مع منظّمات أُخرىٰ مثل جماعة بادر ـ ماينهوف الأَلمانية، ومنظّمة إيرا، والجيش الأحمر الياباني. وقامت وحدة من الجيش الأحمر الياباني بالتعاون مع الجبهة الشعبية لتحرير فِلَسطين بضرب مطار بن گوريون الدّولي في عمليّة أُطلِق عليها اسم دير ياسين، قتل فيها ستة عشر شخصاً وجُرح ستة وسبعون آخرون. أَمَّا العمليّات الأَكثر رُعباً فكانت

الاعتداءات الواسِعة علىٰ خطوط الطيران الجوية في جميع أَرجاء العالَم حيث كان الفدائيون الفِلَسطينيون يقومون باختطاف الطائرات وتفجيرها. وقام بتنفيذ هذه الهجمات غير المُحْتَمَلة ضد المجتمع الدّولي كله، المنظّمات الفدائية الفِلَسطينية الأَصغر، ولكنها لم تكن محصورة بهم.

إِن الإِرهاب، في كثير من الأَحيان، هو سلاح المنظّمات الضعيفة ضد المنظّمات القوية مثل الدّول، التي يمكن أَن تكون قوىٰ محلية أَو عالمية. ويشمل ذلك أَيضاً، كما هو واضح في هذا الكتاب، ٱستخدام العنف غير المقيّد ضد المدنيين من أَجل تحقيق أَهداف سياسية أَو عسكريّة. ومع ذلك، ما زال تعريف «العنف» موضع تأويل. فما يعتبره طرف من أَطراف الصراع عنفاً، قد يعتبره الطرف الآخر مقاوَمَة مشروعة للاحتلال، بالإِضافة إِلىٰ مقاومة الاضطهاد القومي والدِّيني والإِثْني.

إِن المعركة الحقيقية من أَجل تعريف الوضع (مثال: «الإِرهاب» مقابل «المقاوَمَة» أَو «الكفاح المسلَّح») هي جزء من الصراع بين الإِسرائيليين والفِلَسطينيين. ومع ذلك، يجب أَن يُعلَن على نحو حاسم أَن القتل المتعمّد للمدنيين العزَّل، أَو تعريضهم المقصود لموقف يمكن أَن يؤدي إِلىٰ مقتلهم، هو جريمة حرب وجريمة ضد الإِنسانية. إِنَّه خطأ من الناحية الأَخلاقية، سواء استُخْدِم من المنظّمات السرِّيَّة غير الدّولية أم من أجهزة الدّولة «الرسمية». وينطبق هذا المبدأ علىٰ عمليّات القتل خارج المحكمة بحقّ المشتبه بهم

بالإرهاب، ومن الدّول (انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب)، ومن ضمنها إسرائيل والولايات المتّحدة وبريطانيا.

عندما نتبنّى هذا الموقف يبدو وكأننا نخاطر بوضع أنفسنا في مأزق أخلاقي، ولكن عندما يوجد تفاوت هائل في القوّة بين الجماعات الإثْنية المحرومة من الدّولة (مثل الفِلَسطينيين) والسلطة القوية (مثل إسرائيل)، يصبح تعريف المقاوَمَة المشروعة بطُرق محدودة مفيداً للطرف القوي في النّزاع وفي الحالة الراهنة. لكن هذه المشكلة ـ كما سنرى لاحقاً ـ شكلية وليست حقيقية.

لقد جعلت الهجمات الإرهابية من المشكلة الفِلَسطينية ـ الإسرائيلية جزءاً مهماً من السياسة العالَمية وأسهمت في إعادة صياغة القضية الفِلَسطينية من مشكلة إنسانية للاجئين إلىٰ إعادة تسييس الدعوة الوطنية لحق تقرير المصير. واتُّخِذت هذه الهجمات حُجّة لارتكاب عمليّة التصفية ضد الشعب الفِلَسطيني، التي قدّمها وعبّر عنها أرييل شارون علىٰ أنّها العمليّة الأكثر حيوية. وبارتباطهم بالعمليّات هذه، حاول الفِلَسطينيون اليائِسون والمُحْبَطون لفت الانتباه العالَميّ إلىٰ قضيتهم وإجبار الإسرائيليين علىٰ التفاوض معهم. لكن الكفاح المسلّح أثار انتقاماً عسيراً من الإسرائيليين، وولّد الشكوك بأن الفِلَسطينيين غير مستعدين للوصول إلىٰ اتفاق سلام، وتمّت إدانتهم بشدة من قِبل غالبية المجتمع الدّولي. هذا التكتيك وَصَمَ الفِلَسطينيين بأنهم إرهابيون ولا إنسانيون ومتعطشون للدماء، وأن لا مجال أبداً للتقارب أو التفاهم معهم. وأتاح لإسرائيل أن تبرّر اضطهادها المستمر

والمتزايد لهم علىٰ أنّه دفاع عن النّفس. ومؤخّراً، هيّأت العمليّات الإرهابية في إسرائيل مناخاً سياسياً داخلياً يجعل النكبة الثانية أكثر احتمالاً[16].

تجاوز شارون الخطوط السياسيّة مرة ثانية سنة 1976، وترك الليكود وٱنضمّ إلىٰ حكومة رئيس الوزراء رابين من حزب العمل كمستشار خاص لمدة ثمانية أَشهر، بدأت في حزيران/ يونيو. ولخّص شارون هذه الفترة في سيرته الذاتية:

> لقد كان وقتاً مثمِراً، قدَّم لي الخبرة في مجالات جديدة، وأَجبرني علىٰ التفكير بالمسألة الوطنية من وجهة نظر رئيس الوزراء، وجعلني علىٰ ٱتصال مع قادة العالَم. فمع رابين قابلت هنري كيسنگر للمرة الأُولىٰ، الّذي نظر إِليّ ودمدم بمرح «لقد سمعت أنّك أَخطر الرجال في الشّرق الأَوسط.»

وبرغم وصف شارون المثالي لهذه الفترة، فإِن رابين لم يعطِه تفويضاً مطلقاً للقيام بمبادراته الشخصية ومنعه من الوصول إِلىٰ كثير

---

(16) في تموز/ يوليو سنة 1974، تبنّىٰ المجلس الوطني الفِلَسطيني الثاني عشر، فكرة إِنشاء «السلطة الوطنية الفِلَسطينية في أَي منطقة محرَّرة من السيطرة الإِسرائيلية»، وهو ما يسمّىٰ بخيار الدّولة المصغّرة. وادّعت إِسرائيل عندما فوجئت بهذا القرار وٱحتمال مشاركة الفِلَسطينيين في مؤتمر جنيف للسلام، أن قرار المجلس الوطني الفِلَسطيني البعيد المدىٰ هو مؤامرة أُخرىٰ لتدمير إِسرائيل. ودفع هذا القرار جورج حبش قائد الجبهة الشعبية لتحرير فِلَسطين إلى الاستقالة من اللجنة التنفيذية لمنظّمة التحرير الفِلَسطينية، وتشكيل جبهة الرفض.

من المعلومات؛ ومع ذلك، كانت فترة مهمة له. فقد طوّر خطة بارِعة من أَجل المستوطنات اليهودية في الأَراضي المحتلَّة، بهدف تهيئة الأَسباب التي تكفل نقل السيطرة اليهودية إِلىٰ هذه الأَراضي. وخلال عمله كمستشار لرابين، كرَّس شارون الوقت لتطوير رؤية استراتيجية تجاه الفِلَسطينيين. وربما للمرة الأولىٰ، نظر شارون إِلىٰ الفِلَسطينيين ليس فقط من خلال مشهد البندقية بل من خلال منظور جيوسياسي أَكثر شمولاً. لقد طوّر الفكرة الأَساسية بالسماح للفِلَسطينيين بتأسيس دولتهم الخاصّة في الأردنّ بشرط التخلّص من وجودهم الاْجتماعي والعسكريّ والسياسي في لبنان. وللوصول إِلىٰ هذه الغاية، أَقام أول اتصالاته مع سعد حدّاد، قائد الميليشيا المؤيِّدة لإِسرائيل في جنوب لبنان. حتىٰ إِن شارون خرق التابو الإِسرائيلي المهم بتصريحاته المتكرِّرة عن استعداده للتعاون مع منظمة التحرير الفِلَسطينية في جعل الأردنّ الدّولة الفِلَسطينية الجديدة. ووصف المسيحيين الموارنة في لبنان بأنّهم «حلفاء طبيعيون» لإِسرائيل (بعد اشتباك مدني اْنفجر في لبنان) ضد الفِلَسطينيين. ولقد حاول شارون تنفيذ هذه الأَفكار بعد انتخابات سنة 1977، التي أَدَّت إِلىٰ تعيينه وزيراً للزراعة ورئيساً للجنة المستوطنات، وبعد ذلك وزيراً للدفاع.

فشلت إِحدىٰ سياسات شارون التي نفّذت عندما كان وزيراً للدفاع فشلاً ذريعاً: إِنشاء ميليشيا مسلّحة مضادة لمنظّمة التحرير الفِلَسطينية باسم عصبة القرىٰ تحت إِشراف إِدارة مدنية إِسرائيلية

وبروفسور في الجامعة العبرية هو ميناحيم ميلسون. وكانت إسرائيل خلال هذه الفترة تدير الأَراضي المحتلَّة وتعمل وفق نصيحة خبراء مستشرقين يدعمون العناصر الإسلامية التقليدية لأنهم يعتبرونهم أَسهل إدارة وأَكثر خضوعاً للإسرائيليين من الوطنيين في منظّمة التحرير الفِلَسطينية.

وسقطت حكومة رابين خلال وقت قصير لسببين: حادثة بسيطة مع الحزب الوطني الديني، وحساب غير مرخّص لرابين في أحد بنوك نيويورك. وتقرَّرت الانتخابات الجديدة في 17 أيار/مايو 1977. ولأنه لم يستطع العودة إلىٰ الليكود خاض شارون الانتخابات بحزبه هو، شلوم زيون، وفاز بمقعدين. وكانت الهزيمة الساحِقة التي لحقت بحزب العمل أَهم نتائج هذه الانتخابات، بسبب خسارة الأَصوات لصالح حزب الطبقة الوسطىٰ الجديد المعتدل داش (الأَحرف الأُولىٰ للحركة الديمقراطية من أَجل التغيير)، برئاسة عالِم الآثار والبروفسور ونجم التلفزيون يگييل يادين، وهو الضابطُ الَّذي صاغ الخطة «د» ونفّذها. ووِفق القانون الإسرائيلي، يصبح رئيس الحزب الَّذي حصل علىٰ أَعلىٰ الأَصوات، وهذه المرة كان مناحيم بيگن، رئيساً للوزراء بعدَ أَن ينجح في تشكيل ائتلاف. اندمج حزب شارون الصغير مع الليكود، وأُعطي شارون حقيبة وزير الزراعة. وكوفئ موشي دايان الَّذي كان قد تجاوز خطوط الحزب بتعيينه وزيراً للشؤون الخارجية، وأَصبح عازر وايزمان (قائد القوىٰ الجوية خلال حرب 1967) وزيراً للدفاع.

في هذه الحكومة أَصبح شارون الراعي الأول للمستوطنين،

وخدم بحماسة أكثر من سلفه شمعون پيريز. وتباهىٰ في سيرته الذاتية بأنّه خلال سنواته الأربع الأولىٰ كوزير، عمل علىٰ إنشاء أربعٍ وستين مستوطنة في الأراضي المحتلّة.

من الضروري التأكيد هنا أنّه وفق الفقرة الخامسة والخمسين من معاهدة لاهاي سنة 1907، أنّ القوّات المحتلّة تعمل في إدارة الأراضي والملكيات الأُخرىٰ في المناطق المحتلّة والاستفادة منها استفادة مؤقّتة فقط، ولا يسمح لها بإنشاء وقائع ثابتة علىٰ الأرض. ومثال علىٰ هذه الوقائع ترحيل السكّان من الدّولة المحتلّة من أجل احتلال الأراضي. وبالتالي، فإن كل المستوطنات اليهودية في المنطقة غير شرعية حسب القانون الدّولي أو علىٰ الأقل هي مؤقتة[17].

في صيف 1980، استقال كل من موشي دايان وعازر وايزمان من الحكومة وبدأ ائتلاف بيگن بالانحلال. وأظهر شارون، خلال فترته وزيراً للزراعة، احتقاراً عميقاً وازدراء عُدوانياً تجاه زملائه وأرهبهم كلهم بمن فيهم رئيس الوزراء. وكان بيگن، الّذي شاخ وأصبح

(17) كانت إسرائيل ترفض دائماً تعريف الأراضي بالمحتلّة، مدّعية أنّها لم تكن يوماً تحت سيادة دولة أُخرىٰ (لأنّ المجتمع الدّولي لم يعترف بضمّ الأردنّ للضفة الغربية أبداً، باستثناء بريطانيا والپاكستان)، ولأنهم يؤكدون أن الأرض أصبحت تحت سيطرتهم خلال حرب دفاعية وعادلة. ومع ذلك أخذت إسرائيل علىٰ عاتقها الالتزام بالقانون الدّولي تجاه الأراضي، بما في ذلك معاهدة جنيف الرابعة لسنة 1949. وبرغم ذلك، فإن معظم الخبراء في مجال القانون الدّولي لا يقبلون هذا الاقتراح. إنهم منقسمون بين رؤية إسرائيل قوة محتلّة وبين رؤية إسرائيل محتلاً أميناً، يسيطر علىٰ الأرض إلىٰ أن تتطوّر السيادة المعلّقة للسكان المحليين، والكينونة السياسية الأجتماعية الواضحة وتصبح جسماً قادراً علىٰ حكم ذاته.

عُرضة للتغيرات المزاجية، عكس صورته العامّة، رئيساً ضعيفاً غير قادر علىٰ ضبط وزرائه، وبخاصة شارون. ومع أَنَّه قاوَم جهود شارون في تهديده بعد استقالة وايزمان ورفض تسميته وزيراً للدفاع، فإن سقوط حكومته، والأنتخابات الوشيكة، وإخلاء المستوطنات اليهودية من سيناء، كل هذا جعله يدرك إلىٰ أي درجة كان يعتمد علىٰ شارون. وعيّن بيگن شارون مديراً لحملة حزب الليكود الأنتخابية، ووعده أنّه في حال فوز الليكود بالأنتخابات، فإن شارون سيصبح وزيراً للدفاع. وهذا ما حدث.

10 ـ المحاولة الثانية للتصفية

في الخامس من آب/ أغسطس سنة 1981، شكّل مناحيم بيگن حكومته الثانية والأخيرة. وكان فيها أرييل شارون وزيراً للدفاع. كانت أُولىٰ المهمات الكبرىٰ لشارون إنجاز الخطوة الأَخيرة من اتّفاق السَّلام المِصري ـ الإِسرائيلي، وتحديداً تفكيك أَو بشكل أدقّ، الهدم الكامِل لكافة المستوطنات اليهودية في سيناء. لم تحاول گوش إِمونيم تنظيم المقاوَمَة المحلية ضد الإِخلاء فقط، بل أيضاً تنظيم الحركات الجماهيرية الشبيهة بالعصيان المَدَني من أَجل وقف الانسحاب. ودعا الزعماء الروحيون لـ گوش إِمونيم (الحاخامات بخاصّة) الجنود إِلىٰ عصيان الأَوامر القاضية بتنفيذ الإِخلاء، وأغلقت مجموعة من الزيلوتيين علىٰ نفسها في مستودع وهدّدت بالانتحار في حال أُجبرت علىٰ الإِخلاء. فقد حاولت گوش إمونيم تصوير حقيقة اجتماعية ـ سياسية للصدمة الوطنية تبقىٰ منقوشة في الذاكرة الجمعية إلىٰ الأبد،

لكنها فشلت تماماً. فقد قَبِل بعض المستوطنين التعويض السخي الَّذي قدَّمته الحكومة والمموَّل من صندوق المساعدات الأمريكي الخاص وغادروا المستوطنات بهدوء. كان معظم الغرباء الَّذين جاؤوا لدعم المقاوَمَة المحليّة مستوطنين من الضفَّة الغربية وخافوا أن يكون إخلاء سيناء سابِقة لترحيلهم النهائي. ومع ذلك، وتحت إدارة شارون، تمّ إخلاء مستوطنات سيناء، الَّذي تقرَّر في نيسان/ أبريل 1982، خلال بضعة أيام ودون أي حوادث خطيرة[18].

قد يتساءل البعض، كيف يستطيع رجل قدَّم أكثر من أي شخص آخر من أجل توسيع المستوطنات، ربما باستثناء موشي دايان، أن يقوم بتفكيكها بهذه الطريقة الفعَّالة. كانت إدارته مفاجئة تماماً، فقد كان شارون، خلال السنوات الطويلة من المفاوضات بين مِصر وإسرائيل، يعارض الإخلاء دائماً وبقي العضو الوحيد من أعضاء الليكود في الكِنيست الَّذي يصوّت ضد اتّفاق السَّلام. وأكثر من ذلك، لقد فعل كل ما يمكن من أجل توسيع المستوطنات خلال فترته وزيراً للزراعة (ثم وزيراً للبُنىٰ التحتية في حكومة نتنياهو). وادّعىٰ بعض المناهضين أن رغبة شارون في تنفيذ الإخلاء تكشف الشخصية الزّائفة والأنانية لرجل توّاق دائماً إلىٰ فعل أي شيء من أجل تحقيق مصالحه. ولقد كرَّس شارون عدة صفحات من سيرته الذاتية لوصف

(18) حاول بعض مناصري الحركات وبعض المستوطنين وعلماء النفس الإقناع بأن المستوطنين المُستَأصلين سوف يعانون طوال حياتهم من «صدمة الإخلاء»، وهي صدمة لم تكن يوماً موجودة. واستخدم البعض هذا الجدل النفسي لدعم إيديولوجياتهم، وساعد البعض الآخر، في زيادة تعويضاتهم الماديّة إلىٰ الحد الأقصىٰ.

معنىٰ السَّلام مع مِصر وأهميته. أَمَّا بينزيمان فلقد قدَّم في كتابه تفسيراً ثالثاً، وهو أَن شارون أَصبح متحمّساً لاتّفاق السَّلام مع مِصر فقط عندما أَصبح متورّطاً شخصياً ومسؤولاً حصرياً عن تنفيذه.

كل هذه التفسيرات يمكن أَن تكون صحيحة وليست بالضرورة مشتركة حصرياً. ومع ذلك، ينبغي أَن يفهم استعداد شارون لدفع أَي ثمن من أَجل إِخراج مِصر من اللعبة في سياق مفهوم بيگن وشارون الجيوسياسي للصراع الإِسرائيلي الفِلَسطيني والصراع المحلي، الَّذي وصفه جيداً زئيڤ شيف وييهود ياعري في كتابهما الحرب الإِسرائيلية اللبنانية[19].

إِن تماسك إِسرائيل في السيطرة (أَو دمج السيطرة الإِسرائيلية) علىٰ الضفَّة الغربية وغزّة ـ وبخاصّة بعد اتّفاق كامپ ديڤيد، حين تعهّد بيگن بمنحهم الحكم الذاتي خلال سنوات قليلة ـ يتطلَّب تصفية العدوّ الوحيد الموجود للدولة اليهودية. وبينما كانت الدّول العربية، وفقاً لهذا المفهوم، عدوّاً لدوداً لكنه قابل للتطويع، فإِن الفِلَسطينيين الَّذين بلا دولة فقط يمكن أَن يكون لديهم الحجّة الأَخلاقية والتاريخية ضد كامل الكينونة اليهودية التي تأَسَّست سنة 1948، علىٰ أنقاض مجتمعهم.

---

(19) شيف سياسي عريق ومحلِّل عسكريّ في صحيفة هاآرتز علىٰ درجة عالية من التقدير (مع أَنّه محافظ)، كان أول من فضح مخطّط شارون الضخم في إِنشاء نظام جديد في لبنان قبل عدة أَشهر من الغزو في مقال صحفي حذّر فيه من التورّط. ومن المحتمل أَن يكون بعض الضباط الكبار الَّذين حاولوا مساعدة إِسرائيل لتفادي المغامرة قد سرّبوا الخطة لـ شيف، لكن هذا الإِفشاء لم يساعد.

بعد إِعادة تسييس مشكلة اللاجئين الفِلَسطينيين، وإِعادة تعريفها بأنّها قضية إِثْنية ـ وطنية بعد حرب 1973، وبعد الرفض الفِلَسطيني لتبنّي معادلة شارون أَن «الأردنّ هي فِلَسطين»، فلا يمكن، من وجهة نظر شارون، إلاَّ تصفية الفِلَسطينيين من أَجل حلّ الصراع. لكن الوسيلة الوحيدة لتنفيذ هذه التصفية دون إِثارة حرب إِقليمية كبيرة يتواطأ فيها الفِلَسطينيون مع الدّول المهاجمة كانت الوسيلة لإِقامة سلام مع أَقوىٰ الدّول العربية في المنطقة.

يمكن أَن تشمل تصفية الفِلَسطينيين تدمير بُنيتهم التحتية العسكريّة والمؤسَّساتية في جنوب لبنان وربما إِلغاء منظّمة التحرير الفِلَسطينية وغيرها من المنظّمات السياسية والعسكريّة. وسوف يجبر هذا الواقع السياسي الجديد، من وجهة النظر هذه، الفِلَسطينيين في الضفَّة الغربية وقطاع غزّة علىٰ القبول بأي حلّ يمليه الإِسرائيليون. وللوصول إِلىٰ هذا الهدف، كان غزو لبنان ودعم الحليف داخل البلد ضرورياً. وأَكثر من هذا، كان تصوّر شارون أَوسع. فحسب مفهومه، يمكن بإِخراج السوريين من لبنان وإِقامة حكومة صديقة لإِسرائيل توقّع اتّفاقية سلام معها، تغيير الحقيقة الجيوسياسية للمنطقة. ويمكن أَن ندرك بسهولة من هذه الخطة المعرفة القليلة بلبنان بخاصة، وبالعمليّات السياسية ـ الاجتماعية عامة، التي تمتلكها هذه القوّة الموجّهة المُصابة بجنون العَظَمة.

في الواقع، كان الحلفاء اللبنانيون الّذين تصوّرهم شارون موجودين فعلاً: المجتمع المسيحي الماروني. وكان أَحد أَقدم أَحلام

الصهيونية هو الإقامة في منطقة مؤلَّفة من اتّحاد الأَقليات (المسيحية واليهود والدروز والشركس و. . . . إلخ) لإِقامة توازن مع الغالبية المُسْلِمة فيها. ومنذ الخمسينيات، تورّط المسيحيون الموارنة في لبنان بحروب أهلية وأَعمال عنف بسبب خسارتهم السيطرة في البلاد، وكانت هذه الخسارة جزئياً بسبب سياسة التوسّع المناطقي التي جعلت الجماعات الإِثْنية ـ الدِّينيَّة (المسلمون والدروز) غير الموارنة تحت سيطرتهم. وكان اللاجئون الفِلَسطينيون آخر القادمين سنة 1948، والَّذين اُعتبرهم الموارنة المسؤولين عن عدم الاستقرار الداخلي في البلاد. وفي ربيع سنة 1976، توجّه أَحد أَحزاب الموارنة، حزب الكتائب، بزعامة بيير الجميّل وابنه بشير، سراً إِلىٰ إِسرائيل طلباً للمساعدة العسكريّة في نضالهم ضد التحالف اليساري الفِلَسطيني الدرزي بزعامة كمال جنبلاط. وخلال المفاوضات، قال زعيم ماروني آخر هو داني شمعون، للفريق الإِسرائيلي، «أعطونا سلاحاً وسوف نذبح الفِلَسطينيين». وتمّ تقديم هذا الطلب خلال الفترة الرئاسية الأُولىٰ لرابين الَّذي أَحجم، بحذر، عن أَي تدخُّل مباشر، ولكن تم إِرسال شحنات من الأَسلحة والذخيرة بما فيها بنادق م16، وصواريخ مضادة للدبابات، وبعض دبابات شيرمان القديمة، إِلىٰ الميليشيات المسيحية، برفقة ضابط ارتباط اسمه بنيامين بن اليعازر بمهمة وسيط. وقامت إِسرائيل بتطوير علاقة أَكثر حميمية ومباشرة مع فلاحي الحدود الجنوبية ومع الميليشيا المسيحية المحلية بقيادة سعد حدّاد، الرائد في الجيش اللبناني غير الموجود في الواقع. وترسَّخ

التعاون وأَصبح علنياً خلال الفترة الرئاسية الأولىٰ لبيگن. تأثّر بيگن بالحجج وبالسلوك الأرستقراطي للزعماء الموارنة وأعلن عدة مرات «إسرائيل لن تسمح بالإبادة الجماعية [للموارنة] في لبنان». وفي آذار/مارس 1978، احتلّت القوّات الإسرائيلية جنوب لبنان احتلالاً مؤقّتاً، في محاولة لتحييد الجماعات الفدائية الفِلَسطينية وتوسيع المنطقة التي يسيطر عليها الرّائد سعد حدّاد، في مشروع أُطلق عليه اسم عمليّة الليطاني (النهر الّذي يحدّد تقريباً حدود النفوذ الإسرائيلي). وأُجهضت هذه العمليّة لأن القوّات الفدائية تجنّبت القتال وهربت إلىٰ الشمال لتعود بعد الانسحاب الإسرائيلي.

وفضّل الموارنة بعد ذلك التحالف مع السوريين ودعوهم إلى دخول البلاد وذبح الميليشيات والمدنيين الفِلَسطينيين. لكن السوريين غيّروا مواقفهم سريعاً بعد مقتل تابعهم طوني فرنجية ثأراً علىٰ يد بشير الجميّل، وٱنقلب حزب «الكتائب» ضد الميليشيات المسيحية المنافسة. لقد حاول المسيحيون بنجاح توريط الإسرائيليين، وفي الوقت نفسه، السوريين الّذين ٱزداد وجودهم العسكريّ تدريجياً[20].

(20) كان في لبنان علىٰ الأقل ثلاث ميليشيات مسيحية مختلفة ومتنافِسة، كل منها ينتسب إلىٰ إحدىٰ الأُسَر البطركية الكبرىٰ. وبذلت إسرائيل جهوداً كبيرة في محاولة توحيد هذه الميليشيات ودمجها معاً في جيش لبناني، لكن دون فائدة. وبعد المجازر التي ارتكبتها الميليشيات بحق بعضها البعض تدبّر بشير الجميّل أمر السيطرة علىٰ الاثنتين الباقيتين، لكن ليس علىٰ ميليشيا حداد، التي كانت محمية من إسرائيل.

خلال هذه الفترة، عيّنت إسرائيل رئيساً جديداً للأركان هو رافائيل إيتان، الّذي كان معروفاً بضيق الأُفق الفكري، وبموقفه الإزدرائي من العرب، ومتعته بالمعارك. وكان رئيس الوزراء بيگن، وأيضاً وزير الدفاع بعد استقالة وايزمان، يعتقد أن الحرب في لبنان ضرورية، بسبب فشل عمليّة الليطاني وبسبب تزايد الوجود السوري العسكريّ والاختراق السياسي داخل الدّولة. بالإضافة إلىٰ أن الأنتخابات الجديدة كانت تلوح في الأُفق ويبدو مظهر الحكومة سيئاً. لهذا، اتّخذ بيگن بالتعاون مع إيتان قرارين مُهمّين في أيار/ مايو 1981: تدمير المفاعل النووي العراقي وإشعال الحدود الشمالية[21]. وقصفت إسرائيل بين 29 آذار/ مارس و3 حزيران/ يونيو 1981، أهدافاً فِلَسطينية في لبنان جواً وبحراً. ورفض الفِلَسطينيون الرد، مدركين مصلحة إسرائيل في تصعيد الصراع. وفي 19 تموز/ يوليو، جدَّدت إسرائيل هجومها علىٰ الأهداف الفِلَسطينية، لكن هذه المرة، وبعد أُسبوع من القصف المتواصل، ردّ الفِلَسطينيون مستهدِفين بلدة نهاريا الساحلية بصواريخ الكاتيوشا. ومباشرة، ردَّت إسرائيل بالمِثل، وأرسلت طائرات لتدمير مركز قيادة فتح والجبهة الديمقراطية، الواقع في منطقة سكنية مكتظّة من بيروت. وتلخيصاً لنتائج الهجوم، كتب زئيف شيف وييهود ياعاري «إن نتائج العمليّة كانت متوقّعة. فبرغم الجهود التي بذلها الطيّارون لتحديد الأهداف بدقّة وتحقيق ضربات

(21) علم السياسيون الإسرائيليون منذ فترة بنگوريون، أن أفضل طريقة لتغيير اتجاه الانتباه العام بعيداً عن الأقتصاد والمشكلات المحلية الأُخرىٰ هي في التركيز علىٰ الصراع العربي الإسرائيلي.

مباشرة، فقد قُتل أكثر من 100 شخص وجُرِح حوالي 600؛ وكانت التقديرات في إسرائيل أن حوالي ثلاثين من القتلىٰ فقط كانوا إرهابيين». وجاء الرد الفِلَسطيني بلا رحمة، بالمدفعية الأرضية والصواريخ، وشلّوا حركة الحياة شمال إسرائيل، بما فيها بلدات كريات شمونه ونهاريا، لعشرة أيام، وتسبّبوا بإخلاء جزئي للسكان من المنطقة. وبرغم التفوّق العسكريّ الكبير لم تستطع المدفعية الأرضية الإسرائيلية والقاذفات إسكات المدفعية الخفيفة والسريعة الحركة للفدائيين الفِلَسطينيين. وعندما وصل المبعوث الأمريكي فيليب حبيب إلىٰ المنطقة من أجل التفاوض بين إسرائيل ومنظّمة التحرير الفِلَسطينية، وافق بيگن علىٰ عقد الهدنة في 24 تموز/يوليو. وكان هذا أول اتّفاق مباشر بين إسرائيل ومنظّمة التحرير الفِلَسطينية تقيّد به الطرفان بصرامة.

ليس واضحاً حتىٰ الآن، إلىٰ أي مدىٰ كان بيگن علىٰ عِلم وشريكاً كامِلاً في مخطّط أرييل شارون الكبير، وإذا كان شارون قد خدعه في هدفه النهائي عندما أقنعه أن يبدأ الحرب في لبنان (هذه المسألة كانت موضوع دعْوتيْ قذف وتشهير رفعهما شارون ضد صحيفة هاآرتز ومجلة تايم عندما اتهمتاه بتضليل بيگن وإخفاء الأهداف النهائية للهجوم عنه).

لا يبدو أن القراءة المتأنّية للسجلات التاريخية ستدعم هذا الادّعاء. والواضح أن مجلس الوزراء الإسرائيلي لم يوافق موافقة مباشرة علىٰ العمليّة أو علىٰ أهدافها السياسية. لقد طلب من الوزراء

الموافقة علىٰ العمليَّة خطوة خطوة وبمفعول رجعي غالباً. فعلىٰ سبيل المثال، وُضع القرار الحاسم بالسيطرة علىٰ الطريق العام بين بيروت ودمشق على جدول الأَعمال في سياق احتمال ردّ عسكريّ سوري علىٰ عمليَّة إِلضمّ الإِسرائيلية لمرتفعات الجولان في كانون الأول/ ديسمبر 1981، وتمّ ٱتخاذ قرارات أُخرىٰ تحت الضغط عندما كانت الأَوضاع الميدانية تتغيّر بسرعة وبعد أَنْ تلاعَبَ شارون بمجلس الوزراء، وهي مهارة طوّرها إِلىٰ نوع من الفنّ خلال عمله العسكريّ الفعلي، مستخدِماً تقارير كاذِبة عن المعركة ومستغلاً عدم قدرة أَعضاء المجلس علىٰ قراءة الخرائط العسكريّة.

فَهِم بيگن هذا، وكان موافقاً تماماً مع شارون علىٰ ضرورة طرد منظّمة التحرير الفِلَسطينية من لبنان وعلىٰ خطورة تورّطهم في حرب جزئية أَو كلّيّة. وربما علم أَيضاً عن خطط فرض نظام جديد في لبنان بالقوة، وبالمفاوضات المكثَّفة بين الوفد الإِسرائيلي وجميع الجماعات والأَحزاب المارونية. وبالوقت نفسه، غادر، ألكسندر هيگ وزير الخارجية الأَمريكي بعد جولة في المنطقة، تارِكاً بيگن وحكومته مع ٱنطباع بأن الولايات المتّحدة تنظر إِلىٰ سورية علىٰ أنّها دولة تابِعة للسوڤييت وأنّها سوف تسمح لإِسرائيل بتبنّي سياسة صلبة تجاهها. وفي ذلك الوقت، أُعطي قائد الجبهة الجنوبية الجنرال آمير درورو تعليمات من أَجل تحضير الخطط المفصّلة لمختلف مراحل الهجوم علىٰ لبنان (الصنوبر الصغير كان رمز العمليَّة بحدّها الأدنىٰ والصنوبر الكبير كان رمز العمليَّة بنطاقها الواسع).

سرَّبت المخابرات المِصرية، وربما غيرها أَيضاً، مخططات الغزو الإسرائيلي إِلىٰ الفِلَسطينيين ويمكن أنهم أعطوا أَيضاً بعض التفاصيل إِلىٰ السوريين. وقرَّرت القيادة الفِلَسطينية ألا تعطي إِسرائيل أَي حجة للهجوم. وفضلاً عن ذلك، أَرسل ياسر عرفات اليائس، حسب أَقوال شيف وياعاري، رسالة شخصية إِلىٰ بيگن عن طريق مبعوث الأُمَم المتّحدة يقول فيها: «لقد تعلّمت منك، بصفتي زعيماً للمقاومة، أَكثر مما تعلّمت من أَي شخص آخر كيف أَجمع بين الوسائل السياسية والعسكريّة... وأنت، من بين كل الناس، يجب أَن تفهم أنّه ليس من الضروري أَن تواجهني في ساحة الحرب فقط. لا ترسل قواتٍ عسكريّة. لا تحاول أَن تهزمني في لبنان. فأنت لن تنجح.» ومضت الرسالة دون جواب.

في مساء الثالث من حزيران/ يونيو سنة 1982، أطلقت جماعة، أَرسلها أبو نضال من دمشق، النار علىٰ السفير الإِسرائيلي في لندن وكانت إِصابته بالغة. وكانت علاقة أبو نضال مع منظّمة التحرير الفِلَسطينية مقطوعة منذ قرار المجلس الوطني الفِلَسطيني بإِعلان الدّولة المصغّرة في تموز/ يوليو 1974، ودعا عرفات بالخائن، وحاول اغتياله عدّة مرّات. وكان ردّ عرفات الحكم عليه بالإِعدام. كان تصرّف أبو نضال تحريضاً متعمَّداً، كما علمت المخابرات الإِسرائيلية هذا جيداً، وعندما اجتمع مجلس الوزراء صباح اليوم التالي، احتفظ رئيس الوزراء بهذه المعلومة عمداً (كان شارون بصفته وزيراً للدفاع في زيارة سرِّيَّة لكنه بعد ذلك عاد مباشرة في اليوم نفسه). واعتبر

بيگن محاولة الاغتيال بمنزلة إعلان حرب ورفضاً متعمّداً لاتّفاق الهدنة الّذي عقده حبيب مع المنظّمة. في يوم الجمعة ذاك، قرّر مجلس الوزراء إرسال القوّات الجوية لقصف «مركز قيادة الإرهابيين» في بيروت. وفوراً، ردّ الفِلَسطينيون بالمثل وقصفوا شمال إسرائيل. وفي مساء السبت، عُقِد اجتماع المجلس في منزل بيگن حيث كشف رئيس الوزراء ووزير الدفاع النِّقاب عن تفاصيل العمليَّة العسكريّة لحماية المستوطنات الإسرائيلية الشمالية من مدفعية «الإرهابيين» بإنشاء نطاق فاصل يمتد أربعين كيلومتراً شمال حدود إسرائيل. وتضمّنت الأهداف الإضافية تجنّبَ المواجهة مع القوّات السورية الموجودة في لبنان وتحقيق سلام مستقر مع لبنان مستقل وحر. كان هذا تعريفاً بارعاً لأهداف العمليّة (وعندما تحدَّث بيگن في اليوم التالي أمام الكِنيسِتْ، أطلق على الخطة اسم عمليَّة السَّلام من أجل الجليل). وأكّد شارون بعد ذلك أن المجلس وافق على خطته كاملة، بينما جادل الوزراء، الّذين أنكروا لاحقاً أي مسؤولية لهم عن الحرب، أن قرار إحلال السّلام لا يعني أمراً بالعمليّات العسكريّة بل هو إعلان عام عن كوننا في حالة سلام مع الدّول المجاورة. وحتى قبل اجتماع مجلس الوزراء، كانت وحدات إسرائيلية مختارة تحطّ بعيداً شمالي خط الأربعين كيلومتراً المحددة[22].

(22) كانت غالبية قيادات حزب العمل المعارض مؤلّفة من جنرالات سابقين (إسحاق رابين، حاييم بارليف، مردخاي گور، إلخ.) أو من رجال كانوا سابقاً جزءاً من المؤسَّسة الأمنية، مثل شمعون پيريز، والّذين حافظوا على علاقات شبكة الأخ الأكبر (أولدبوي) مع القيادات العسكريّة. لذا، من المحتمل أن يكونوا على علم بكل تطورات =

قال شارون في سيرته الذاتية، وهو مدرك للنقد الموجَّه ضده من مجلس الوزراء ومن بيگن نفسه، أنّه، وعكس عادة وزراء الدفاع السَّابقين، كان مصمّماً «علىٰ أن النّسق السياسي سيحتفظ [في تلك الحرب] بالسيطرة الكاملة علىٰ ساحة المعركة. ونتيجة لذلك، أكّدت لهم أنَّه سيتم إبلاغ المجلس بكل التطورات المهمّة والتطورات المُحْتَمَلة. وكنت أعني بهذا أنّ كل القرارات التي تمّ اتخاذها والأوامر الموجَّهة إلىٰ الجيش قد تمّت الموافقة عليها منهم». في تأكيد واحد كان شارون علىٰ حقّ، فوزراء الدفاع السَّابقين لم يطلبوا يوماً من المجلس المُصادَقة علىٰ كل خطوة يتم اتخاذها خلال المعركة. ومع ذلك وبعكس شارون، لم يقم أي من وزراء الدفاع السابقين يوماً بشنّ حرب علىٰ هذا القدر من المغامرة.

كانت التقديرات العسكريّة على ما يبدو، خاطئة منذ البداية. وكان الوقت المقدَّر للوصول إلىٰ منطقة بيروت حوالي ثلاثة أَيام. لكن القوّات الإسرائيلية واجهت مقاوَمَة فِلَسطينية أعند بكثير من المتوقع (هذه المعارك ولَّدت أسطورة «أَطفال الـ آر. پي. جي RPG» التي تحكي عن الأَطفال الفِلَسطينيين الَّذين واجهوا المدرَّعات الإِسرائيلية) وكانت مرتبطة مع القوّات السورية التي هَاجمت الوحدات الإِسرائيلية (بعد التحريض الإِسرائيلي) وسبَّبت خسائر كبيرة.

كانت أول معركة أرضية مع الفِلَسطينيين في منطقة «صيدا»، حيث

= الخطط والنوايا العسكريّة وأنهم فهموها أكثر بكثير من معظم الوزراء. ولقد استمروا في دعم الحرب طالما لم يكن هناك احتجاجات شعبية.

يوجد سبع مخيمات رئيسية للاجئين، وهي: البص، الحنينة، الرشيدية، بني معشوق، برج الشمالي، عين الحلوة، وشبريخا. استخدم الفِلَسطينيون الاستراتيجية الكلاسيكية لحرب العصابات بالهجوم الَّذي يعتمد علىٰ الضرب والهرب بواسطة وحدات صغيرة ومتحرِّكة. ولم تستخدم الفرق الكبيرة شبه النظامية (مثل القسطل أو الكرامة) نهائياً. ومنذ اليوم الأول للحرب، أَخَّر الفِلَسطينيون الضربة الإِسرائيلية الكاسِحة والمتوقعة بالوقت نفسه علىٰ بيروت، معرّضين القوّات الإِسرائيلية لمقاوَمَة قوية بإِغلاق الطُّرق المتوجهة شمالاً ومتسبّبين بخسائر جسيمة. وعلىٰ مفرق «البص» داخل عين الحلوة، حاصرهم الإِسرائيليون حتىٰ 17 حزيران/ يونيو وسُمِّيت المنطقة «ستالينگراد الفِلَسطينية»، بعد ذلك، وفي معركة علىٰ قلعة «الشقيف»[23] نجح الفِلَسطينيون في إِيقاف الطوابير الإِسرائيلية. وأَصبحت هاتان المعركتان قصتين من قصص البطولة للجانبين. استغرق الطريق إِلىٰ منطقة صيدا ثماني وأَربعين ساعة بدل بضع ساعات في الخطة، وهُزِمَت المقاومة الفِلَسطينية فقط بعد القصف الجوي

(23) كانت قلعة الشقيف حصناً صليبياً محفوراً في الصخر علىٰ ارتفاع حوالي 2,500 قدم فوق سطح البحر. ويشرف علىٰ مناطق الجليل الأعلىٰ في إِسرائيل وعلىٰ المنطقة المركزية لجنوب لبنان وكان يستخدم لقصف الأراضي الإِسرائيلية. حاولت القوّات الجوية الإِسرائيلية عدّة مرّات الاستيلاء علىٰ هذا الحصن، لكنها فشلت. ونجحت وحدات الكوماندوس الإِسرائيلية في الاستيلاء عليه بعد قتال عنيف قُتل فيه المدافعون الثمانية عشر كلهم. ووصل بيگن وشارون بعد المعركة إِلىٰ قلعة الشقيف من أَجل التقاط صورة تذكارية، وأَعلن بيگن أَن الاستيلاء علىٰ الحصن تمّ دون أَي خسائر إِسرائيلية. واتّهم شارون في سيرته الذاتية رافائيل إِيتان بأَنّه من لقّن بيگن هذه المعلومة المضلّلة.

القاسي والعشوائي. وبعد الحرب، استنتج المحلّلون الإسرائيليون أن معظم الزعماء الفِلَسطينيين كانوا تحت المستوىٰ في القيادة الميدانية، بينما كان مستوىٰ القدرة والحركة عند الجنود العاديين عالياً.

في الحادي عشر من حزيران/ يونيو، أُعلن وقف إطلاق النار، لكن القوّات الإسرائيلية استمرت بالتقدّم بٱتجاه بيروت. وبرزت مشكلة أُخرىٰ عندما علم شارون أن بشير الجميّل وكتائبه لا يريدون الاستيلاء علىٰ بيروت الغربية (حيث المسلمين والفِلَسطينيين)، وتوقعوا أن يقوم الجنود الإسرائيليون بذلك من أجلهم. كانت مساهمتهم الوحيدة في حرب «تحرير لبنان من الإرهابيين» هي استيلاءهم، في 16 حزيران/ يونيو، علىٰ بناء كلية العلوم في حي الريحان، ولقد تمّ هذا بفضل الجهود الإسرائيلية للسيطرة علىٰ بيروت الغربية. كان الموارنة متضاربين في تحالفهم مع الإسرائيليين. فكانوا بحاجة للدعم الإسرائيلي لمواجهة الخطر الّذي يهدّد وجودهم كمجتمع في لبنان، ولكنهم كانوا يريدون أن يحافظوا علىٰ اعتبارهم جزءاً من العالَم العربي والثقافة العربية، وبهذا المفهوم يعتبر تحالفهم مع إسرائيل خيانة.

دفع رفض الكتائب السيطرة علىٰ بيروت الغربية أريئيل شارون إلىٰ محاصرة المدينة وطلب ترحيل جميع قوّات منظّمة التحرير الفِلَسطينية وقادتها. في الخامس والعشرين من حزيران/ يونيو، فتحت القوّات الإسرائيلية أخيراً منطقة عاليه بحمدون، وقصر بعبدا الرئاسي ومطار بيروت الدّولي. وفي هذه المرحلة، حاول اثنان من قادة فِرق المظلّيين الّذين أُوكلت إليهم مهمة الاستيلاء علىٰ المدينة إقناع شارون

وإيتان أَن هذه الحركة مجنونة، وسوف ينتج عنها الكثير من الخسائر للجانبين، وأنه من المستحيل فرض حكم ماروني برئاسة بشير الجميّل علىٰ لبنان. وحذّر الضابطان أَنّه سوف يتم اغتيال الجميّل تماماً مثلما اُغتيل الملك عبد الله وأنور السادات. وعندما رفض كل من شارون وإيتان حجة الضابطين، أخبر أحدهما، وهو الكولونيل إيلي جيفا، رئيس الأركان أَنّه سيرفض توجيه مثل هذا الأَمر إِلىٰ جنوده، لكنه بدلاً من ذلك سوف يقاتل إِلىٰ جانبهم كجندي مثلهم. وقام شارون بطرد جيفا مباشرة ورفض طلب الضابط الآخر، الجنرال عمران ميتزان بالانسحاب.

خلال هذه الفترة، حاول المبعوثان الأَمريكيان فيليب حبيب وموريس درابر الوصول إِلىٰ اتّفاق لإِنهاء الحرب، وطالبا بترحيل جميع قوّات منظّمة التحرير الفِلَسطينية وقياداتها من البلاد، ووضع قوّات دولية واُنسحاب القوّات الإِسرائيلية. كانت بيروت المُحَاصَرة تحت قصف عنيف لا يرحم، منذ أَسابيع من المدفعية الإِسرائيلية والسُّفن الحربية والقوىٰ الجوية، الَّذي وصل إِلىٰ ذروته في 12 آب/أغسطس (الخميس الأَسود)، بعد يوم واحد من قبول مجلس الوزراء الإِسرائيلي اتّفاق فيليب حبيب على ترحيل منظّمة التحرير الفِلَسطينية من لبنان. شنّت إِسرائيل غارات لمدة سبع ساعات متواصلة علىٰ المدينة حصدت خلالها 300 من الأَرواح غالبيتهم من المدنيين، في مدينة كانت مناطقها الرئيسية قد دُمّرت سلفاً، وقطعت عنها المياه والكهرباء، وكان سكانها يواجهون المجاعة وانتشار الأَمراض الوبائية

بسبب آلاف الجثث غير المدفونة. كان هذا القصف يشبه الهجوم الَّذي تعرّضت له مدينة درسدن Dresden من الحلفاء في أَواخر الحرب العالَمية الثانية. وفي اليوم نفسه، استدعىٰ شارون مزيداً من فِرق المظلّيّين. وحسب بينزيمان، أنّه عندما سُئِل شارون من مجلس الوزراء، عن سبب تجهيزهم، أَعلن سببين: حماية أَرواح الجنود الإِسرائيليين، وحثّ الفِلَسطينيين علىٰ قبول شروط حبيب. في الواقع، يبدو أَن شارون كان مهتماً، ليس بترحيل منظّمة التحرير الفِلَسطينية من بيروت، ولكن بالمعركة القريبة التي ستؤدي إِلىٰ إِبادتهم الجسدية. هذه المرة، حتىٰ بيگن كان غاضباً من وزير دفاعه، الَّذي تعمّد على نحو واضح تخريب جهود حبيب في ترحيل منظّمة التحرير من لبنان.

أَخيراً، وفي الثالث عشر من آب/ أغسطس، تمّ التوصّل إِلىٰ اتّفاق بعد ضغوط من الولايات المتّحدة ومبعوثَيْها حبيب ودرابر، عكس مخطّطات أَرييل شارون ورغباته. وفي اليوم الأول من أيلول/ سپتمبر، غادرت آخر سفينة تحمل المقاتلين الفِلَسطينيين (مجهزين بالأَسلحة الخفيفة فقط) بيروت ومناطق أُخرىٰ من لبنان في طريقهم إِلىٰ تونس واليمن. وقبل مغادرتهم، طلب عرفات أَن تأتي القوّات المتعدّدة الجنسية لتحمي الفِلَسطينيين من أنتقام الكتائب. ورفض شارون الطلب، بحجّة أَن ما يريده الفِلَسطينيون فعلاً هو تجنّب جمع الأَسلحة المخبأة في أحيائهم ومخيماتهم.

11 ـ الرُّعب في صبرا وشاتيلا

في السابع والعشرين من شهر آب/ أغسطس، اُنتَخَب البرلمان اللبناني بشيرَ الجميّل رئيساً للبنان، تحت «حماية» القوّات المسلّحة الإسرائيلية. وبدا أَن مخطّط شارون الكبير في طريقه إِلىٰ الإِنجاز وأنه سينعم بنصر سياسي كبير، حتىٰ ولو كان علىٰ حساب آلاف الضحايا وخراب بيروت الغربية، إِحدىٰ أَكثر عواصم العالَم العربي حيوية وتطوّراً.

كانت تقديرات الخسائر الكلية التي تكبدتها القوّات الفِلَسطينية والمدنيين الفِلَسطينيين واللبنانيين وأَفراد الجيش السوري تقريبية لكنها بالآلاف. وحسب أَقوال روبيرت فيسك، أَنَّه قُتِل في الأَشهر الثلاثة الأُولىٰ حوالَي ثمانية عشر أَلف شخص في مختلف المناطق المحتلة، بينما قُتل في بيروت الغربية وحدها حوالَي 2,500 شخص نتيجة القصف الجوي والمدفعي والبحري. وعند بدء العمليّات، قدّر مناحيم بيگن الخسائر الإِسرائيلية بخمس وعشرين كحدٍ أَقصىٰ. في 14 حزيران/ يونيو، أَعلن رئيس الأَركان رافائيل إِيتان عن 170 قتيلاً و700 جريح، لكن بعد ثلاثة أَيام ارتفع الرقم إِلىٰ 214 قتيلاً و1,115 جريحاً. عندما بدأ الانسحاب الكبير، سنة 1985، كان هناك أَكثر من أَلف قتيل إِسرائيلي في الحرب التي لُقِّبت بڤييتنام الإِسرائيلية.

ترك مناحيم بيگن الحياة السياسة وأُصيب بالاكتئاب عندما علم إِلىٰ أَي مدىٰ خدعه شارون، لكن علىٰ الأرجح، يبدو أَن بيگن كان علىٰ علم كامل، علىٰ الأَقل، بالخطوط العريضة لعمليّة الصنوبر، عدا

بعض الحالات، مثل غارات القوىٰ الجوية المكثَّفة علىٰ بيروت. علىٰ أي حال، إنَّه يتحمّل كامل المسؤولية القانونية والأخلاقية والسياسية للحرب التي يتحمّلها شارون وليس أَقل. إن انسحاب بيگن من الحياة السياسية كان بسبب الفشل والخسائر الفادِحة للحرب التي كانت، ليس دفاعاً عن النفس، بل لتحقيق أَهداف سياسية. وهي حرب اختار أَن يدعمها بكل ما منحه إِياه منصبه كرئيس لمجلس الوزراء من سلطة وزعامة معنوية.

وبرغم الجهود المتكرّرة لشارون، لم تنتهِ بعد عمليَّة تصفية الفِلَسطينيين، لكنهم عانوا من هزيمة عسكريّة وسياسية ومعنوية كبيرة. وكان الإِنجاز الوحيد لعرفات، إِلىٰ جانب نجاحه في حماية معظم مقاتلي منظّمة التحرير وقياداتهم، هو البند الرابع في وثيقة حبيب ودرابر الَّذي من المفترض أَن يضمن سلامة «الفِلَسطينيين غير المقاتلين والمطيعين للقانون الَّذين بقوا في بيروت»، مع أَنَّه لم يكن واضحاً مَن هو المسؤول عن ضمان سلامتهم.

كان من المبكر جداً أَن يعلن شارون نصره. وتماماً كما توقّع بعض ضبّاطه، في 14 أيلول/سپتمبر، 1982 الساعة 4:30 مساء، تم تفجير عبوة ناسفة شديدة القوة في مركز قيادة الكتائب في الأَشرفية، وقُتِل بشير الجميّل. في تلك اللحظة، انهارت العمليَّة التي تم الإِعداد لها بدقّة كما ينهار بيت من الورق وفقد شارون السيطرة علىٰ التطورات اللاحقة؛ لكن سقوطه الشخصي لم يبدأ إِلاَّ بعد أَن عرف العالَم بمذبحته المروّعة في صبرا وشاتيلا.

مساء السادس عشر من أيلول/ سبتمبر، دخلت إحدىٰ وحدات الكتائب المختارة بقيادة إيلي حبيقة، وهو ضابط مخابرات كبير في الميليشيا المسيحية، بالتعاون مع القوّات العسكريّة الإسرائيلية، مخيمات اللاجئين الفِلَسطينيين في صبرا وشاتيلا (وهي جزء من بيروت). وخلال أربعين ساعة، ذبحوا ما بين 700 إلىٰ 2000 رجل وامرأة وطفل، وضربوا واغتصبوا الآخرين[24]. وبذلوا الجهود لدفن الجثث في قبور جماعية بواسطة الجرافات خلال وجود الكتائب في المخيمات. لقد ارتُكِبَت المجزرة بحرفية عالية، حيث سار رجال الميليشيا بهدوء نسبي من بيت لبيت بشكل يمنع تحذير السكان ويجعلهم غير قادرين علىٰ المقاومة أو الهرب (الاستثناء الوحيد كان تبادل إطلاق نار خفيف مع بعض الشبان الفِلَسطينيين عندما دخلت الميليشيا إلىٰ شاتيلا). خلال هذا الوقت، أحكمت القوّات الإسرائيلية إغلاق المخيمات، ولم يلحظ شيء غير طبيعي قرب مركز الجيش الإسرائيلي الّذي لم يتم إعلامه بما سيحدث، مع أنّه قد ثارت بعض الشكوك وتمّ إبلاغ الضباط المسؤولين عنها.

وبدت هذه المجزرة وكأنّها رد فعل عفوي (أو انتقام) لاغتيال بشير الجميّل قبل يومين، لكن تبقىٰ هذه محاولة مبسّطة لشرح أو لإيجاد عذر لهذه الحادثة المرعبة. تبدو هذه المجزرة أكثر بغضاً

(24) قبِلت لجنة التحقيق الإسرائيلية (لجنة كاهانا) الأرقام التي قدّمها جهاز المخابرات الإسرائيلية، والتي تقدّر عدد الضحايا بحوالي 700 إلىٰ 800 شخص. أمّا الهلال الأحمر الفِلَسطيني فقدّر العدد بحوالي 2000، بينما أعلنت السلطات اللبنانية عن 1,200 شهادة وفاة للضحايا.

عندما ننظر إليها في سياقها السياسي الحقيقي. فبعد خروج منظّمة التحرير الفِلَسطينية والسوريين من بيروت الغربية وضواحيها المُسْلِمة، ظهرت أَسئلة مثل: من سيتولىٰ الأُمور في هذه المناطق وكيف؟ وبخاصّة كما هو مفترض أَن الكثير من أَسلحة «الإِرهابيين» وذخيرتهم قد بقيت هناك. فضّل الإِسرائيليون القوّات المسيحية مثل الجيش اللبناني غير الموجود فعلياً. وكما قال شارون:

نحن [الإِسرائيليين] لا نريد أَن نخسر جنودنا في قتال الشوارع، ويمكن أَن تكون عملية البحث عن الإِرهابيين أَكثر فاعلية إِذا تولاّها اللبنانيون الّذين يتحدَّثون العربية ويعرفون اللهجة المحلية والطريقة المدنية لعمل منظّمة التحرير. لهذا، سيطلب من القوّات اللبنانية التحرّك إِلىٰ بيروت الغربية بالتزامن مع قوَّات الدفاع الإِسرائيلية. وستكون مهمتهم التغلغل في الأحياء وتنظيفها من الإِرهابيين.

أَفضل خيار ثان لهم كان الكتائب، وقد بذلت إِسرائيل، خلال الغزو، الكثير من الجهود لدمج هذين «الجيشين» المسيحيين (وميليشيات أُخرىٰ مسيحية) لكنها لم تنجح. كانت المنظّمتان العسكريتان اللبنانيتان تريدان رؤية بيروت وجميع أرجاء لبنان خالية من «الإِرهابيين»، وتحديداً الفِلَسطينيين، لكنهما أَرادا أَن تقوم إِسرائيل بهذه المهمة. في الواقع، لقد وجّه المسيحيون اللبنانيون اللوم علناً إِلىٰ إِسرائيل باعتبارها السبب في كل مشكلاتهم مع الفِلَسطينيين، معتبرين الصهاينة مسؤولين عن أنتزاع الفِلَسطينيين من أَراضيهم سنة 1948 وهروبهم اللاحق إِلىٰ لبنان.

عندما طالب شارون الكتائب بدخول بيروت الغربية، كان يعرف تماماً الماضي السيئ والأغراض الحالية للميليشيا، عكس شهادته أمام لجنة كاهانا، فلقد تم تحذيره عدّة مرّات من مخبريه وغيرهم من الضباط وحتىٰ من زملائه في المجلس. يجب أَن نتذكر دائماً أَن المجازر وغيرها من الفظاعات التي تُرتَكَب ضد السكان غير المقاتلين، في الحروب الطائفية والصراعات، ليست فقط نتيجة للكراهية والثورات العاطفية، بل هي أيضاً نتيجة لعمليات مدروسة تم التخطيط لها لإِجبار السكان علىٰ الهرب إِلىٰ أَراضٍ أُخرىٰ وتخليص المنطقة من المشكلات اللوجيستية الصعبة لعملية الإِخلاء بالقوّة[25]. لم يُخْفِ المجتمع الماروني يوماً رغبته بإِخراج الفِلَسطينيين من البلاد. ومشكلتهم الوحيدة كانت إِلىٰ أين يذهب الفِلَسطينيون: لا سورية ولا الأردن (ولا إِسرائيل طبعاً) سترحبان بهم. إِضافة إِلىٰ أَن خروجهم من منطقة بيروت إِلىٰ منطقة محيطية لن يكون إِلاَّ نصراً جزئياً للموارنة. كان هناك أيضاً شيء من صراع المصالح بين الإِسرائيليين والموارنة. ولقد كتب شيف وياعاري أَنَّه في المرحلة الأُولىٰ من الغزو كان أحد أهداف بيگن وشارون إِبعاد السكان الفِلَسطينيين عن جنوب لبنان ـ وليس المقاتلين فقط ـ إِلىٰ الشمال، لهذا السبب تم تدمير أَكثر ما يمكن تدميره من المنازل بواسطة المدفعية والسلاح الجوي الإِسرائيلي واتُّخِذَت الإِجراءات لمنع إِعادة

(25) في كتابه «الثورة» تباهىٰ شارون بأن العمليّة التي نفّذتها منظمته شبه العسكريّة ايتزل في دير ياسين شجّعت هروب العرب من البلاد.

بنائها. لكن هذه السياسة لم تستمر طويلاً لأنها تتناقض تناقضاً صارخاً مع مصالح الحليف المُفْتَرَض لإسرائيل.

بعد المجزرة، حاولت الحكومة الإسرائيلية التقليل من أهمية ما حصل وخطورته وحاولت أيضاً التقليل من مسؤوليتها، آملة أن ينتهي سريعاً السخط المحلي والعالَمي. ولقد توضحت الطبيعة العِرْقية والمتلبدة لهذه المجزرة في تصريح بيگن الشهير، «الأغيار يقتلون الأغيار ثم يتّهمون اليهود» ـ فما علاقة اليهود بذلك؟ لكن الغضب الشعبي كان عارماً. ففي الخامس عشر من أيلول/سپتمبر، تجمّع حوالي 400,000 من المتظاهرين الغاضبين في الساحة الرئيسية في تل أبيب مطالبين بتشكيل لجنة تحقيق مستقلّة. وطالب عدد من الشخصيات البارزة والمثقفين والعلماء بالتحقيق في الحادثة وباستقالة المسؤولين عن المجزرة. وبعد عشرة أيام، عيّن بيگن لجنة تحقيق بإشراف رئيس المحكمة، إسحاق كاهان.

شكّل الغضب الشعبي غير المسبوق من المجزرة ذروة الاستياء العام من الحرب بكاملها، سواء على الخطوط الأمامية أم في الوطن. وأدرك الجنود التناقض المتزايد بين ما قاموا به فعلاً، وبين المعلومات الكاذِبة التي أدلى بها الناطق العسكريّ، وتصريحات رئيس الوزراء ووزير الدفاع. بالإضافة إلى أنهم كانوا غير قادرين على فَهم منطق هذه العمليّة العسكريّة. وللمرة الأولى في التاريخ الإسرائيلي، تتجلّى ظاهرة الاعتراض الضميري في رفض الجنود الخدمة على أرض لبنان. المرة الثانية التي ستتجلّى فيها هذه الظاهرة في إسرائيل،

ستكون مرتبطة أيضاً بإحدىٰ محاولات شارون في تصفية الفِلَسطينيين.

تنامىٰ عدم الثقة بالحكومة وسياساتها بسرعة. وبعد محاولة اغتيال السفير آرگوف، والدعاية المبالغة التي تبعتها، وقصف البلدات شمال إسرائيل، دعمت الجماهير والأَحزاب السياسية المعارضة عمليّة السَّلام في الجليل في مراحلها الأولىٰ بشدَّة. وطالما كانت الحرب ناجحة والخسائر قليلة، كان الدعم الشعبي مستمراً. لكن عندما تُعلن الأَرقام المرتفعة للخسائر، يصبح التناقض بين الهدف الرئيسي في إنشاء نطاق عازل للمنطقة الشمالية وبين المجرىٰ الفعلي للحرب القضية الشعبية الأَهم والسبب في الاضطراب المدني.

ودخل مشاركون آخرون في هذه اللعبة بما في ذلك العوامل المختلفة المؤثِّرة في لبنان والمجتمع الدّولي. والتمس عرفات مراراً من سورية أَن تساعده، لكن دون فائدة. فالسوريون خاضوا المعارك القاسية ضد القوّات الإسرائيلية عندما كانوا مُهَدّدين تهديداً مباشراً فقط. لقد بدأ غزو لبنان مباشرة بعد ضمّ مرتفعات الجولان، واعتبرت الشكوك السورية أَن القصد من هاتين الحركتين الإسرائيليتين إثارة حرب ضد سورية وضد نظام حافظ الأَسد، ولم يرغبوا في تقديم أَي حجّة للإسرائيليين[26].

(26) أمل بيگن وشارون، عند مواجهتهما حالة الفوضىٰ في لبنان أَن يتم اقتسام السيطرة أَو النفوذ في البلاد بين سورية وإسرائيل. حيث يكون الجزء الجنوبي من لبنان تحت السيطرة الإسرائيلية، بينما يكون الجزء الشمالي تحت السيطرة السورية. ثم سحب أَخيراً إيهود باراك القوّات الإسرائيلية من جنوب لبنان.

اعتبرت الميليشيا اللبنانية الأُخرىٰ الفِلَسطينيين منافسين وانقلبت ضد إِسرائيل فقط عندما أَطالت فترة بقائها هناك. وعبَّر السوڤييت وبعض الدّول الأوروپية عن تعاطفهم لكنهم كانوا عاجزين تماماً عن تقديم الدعم الدپلوماسي أَو العسكريّ للبنان. أمّا اللاعب الرئيسي الخارجي فكان الولايات المتّحدة برئاسة رونالد ريگان. كان لدىٰ الإِدارة الأَمريكية التزامان مزدوجان تجاه كل من المملكة العربية السعودية وإِسرائيل. لم يكن السعوديون يوماً من المعجبين بمنظّمة التحرير الفِلَسطينية أَو بعرفات، لكن أَمام الغزو الإِسرائيلي شعروا أَن من واجبهم التدخُّل وٱستخدام نفوذهم في الولايات المتّحدة. وكانت واشنطن قد وضحت للإِسرائيليين منذ البداية أَن الهجوم علىٰ السفير آرگوف لا يُبرّر الغزو الشامِل، مع أَن وزير الخارجية ألكسندر هيگ، الجنرال السابق والمؤيِّد للصقور، كان قد وجد أرضية مشتركة مع شارون وأعطاه هو والحكومة الإِسرائيلية انطباعاً بأن إِدارة ريگان ستتسامح مع «عمليَّة تطهير عسكريّة» صغيرة (بمعنىٰ، دون خسائر غير ضرورية) في لبنان. كان هيگ متعاطفاً جداً مع الإِسرائيليين ووعدهم مراراً بأَكثر مما كانت إِدارة ريگان مستعدة لتقديمه وكان مضطرّاً لتقديم إِيضاحات هي في الحقيقة تراجع عن مواقفه الأولية وعن وعوده. واضطر أَخيراً للاستقالة ليحلّ محله جورج شولتز. كان التوتر بين الولايات المتّحدة وإِسرائيل قد بدأ عندما ضمّت إِسرائيل مرتفعات الجولان. وردّاً علىٰ ذلك، عمدت أمريكا إِلىٰ إِيقاف مذكرة

التفاهم الاستراتيجي، وهو حلف عسكريّ مصغّر وُقِّع مؤخراً من شارون ووزير الدفاع كاسبار واينبرگر. ويبدو أَن واشنطن لم تتّخذ مطلقاً سياسة واضحة تجاه الغزو. كان للسفير الأَمريكي في تل أبيب، صموئيل لويز، سلسلة من المباحثات الصعبة مع بيگن. اتّهمه بيگن خلالها بمحاولة التدخُّل بالسياسة الإِسرائيلية، وردّ لويز، بطريقة غير دپلوماسية، أَن بيگن وشارون قد خَدعا الإِدارة الأَمريكية. أَمَّا في ساحة المعركة فقد تصرّف فيليپ حبيب وموريس درابر بطريقة مثيرة للإِعجاب. لقد واجه شارون عَقَبتيْن رئيسيتيْن ساهمتا، ببعض المقاييس، في كبحه ومَنَعَتاه من تنفيذ مخططه الكبير تنفيذاً كاملاً، وهما: الضغط الأَمريكي، والرأي العْام الإِسرائيلي، الَّذي تأثّر على نحو واضح، ليس فقط بهول ما حدث في صبرا وشاتيلا، لكن أيضاً بالخسائر الفادِحة والشعور بأن الحكومة أنتهكت اتّفاقاً اجتماعياً غير مكتوب بأن الجيش المؤلَّفة غالبيته من جنود الاحتياط، يُستخدم فقط في الحروب غير الإِرادية. لقد تعلّم شارون هذا الدرس جيداً كما سيتّضح لاحقاً من خلال مناقشة عودته السياسية سنة 2000.

في التاسع من شباط/فبراير، 1983، تمّ نشر تقرير لجنة كاهانا: وُجِد بعض ضباط الجيش الكبار (بمن فيهم رئيس الأَركان ورئيس المخابرات العسكريّة) متهاونين في تنفيذ واجباتهم، وتمّت التوصية بصرف بعضهم من الخدمة. وأَضافت اللجنة أَن رئيس الوزراء، مع أَنَّه غير متورط مباشرة بما حدث، فإِنه يتحمّل جزءاً من المسؤولية العامّة، لكن لم يُتَّخَذ بحقّه أَي توصية.

تتحمّل الإدارة الأمريكية في الحقيقة قدراً كبيراً من المسؤولية في هذه المجزرة. لقد عرف المفاوضون في منظّمة التحرير الفِلَسطينية تماماً مدىٰ خطورة ترك السكّان الفِلَسطينيين دون حماية. وكانوا مستعدين بعد أربعين يوماً من الحصار الخروج من بيروت، لكنهم طالبوا بضمانات مؤكّدة من الولايات المتّحدة. وفي العشرين من شهر آب/أغسطس، أرسلت الولايات المتّحدة مُذَكّرة إلىٰ منظّمة التحرير الفِلَسطينية تتضمّن التعهدات التالية: «يسمح للفِلَسطينيين المطيعين للقانون وغير المقاتلين بمن في ذلك أُسَر الَّذين غادروا، البقاء في بيروت والعيش بسلام وأمن... وسوف تقدّم الولايات المتّحدة ضماناتها بناء علىٰ تأكيدات من الحكومة الإسرائيلية ومن زعماء بعض الجماعات اللبنانية [الكتائب والجيش اللبناني] الَّذين كانوا علىٰ اتصال مع الولايات المتّحدة». وطرح المؤرخ الفِلَسطيني المعروف رشيد خالدي، الَّذي نشر كتاباً عن عمليَّة صنع القرار في منظَّمة التحرير الفِلَسطينية إبان الحرب، سؤالاً مهمّاً عن مسؤولية القيادة الفِلَسطينية عن المجزرة. فشدَّد علىٰ العزلة الكاملة للفِلَسطينيين بعيداً عن أي دعم بما في ذلك الدعم العربي أو أي قوىٰ رئيسية أُخرىٰ وعلىٰ الاعتقاد في ذلك الوقت أن استمرار المعركة سوف يؤدي إلىٰ تدمير بيروت تدميراً كاملاً ومعاناة هائلة لجميع سكانها. وانتهىٰ الخالدي إلىٰ أنّه «من الصعب أن نرىٰ القيادة السياسية المسؤولة قادِرة علىٰ اتّخاذ أي خِيار آخر غير الَّذي اتّخذته [في الإخلاء]، بالرغم من قسوة نتائجه في النهاية». في كل الأحوال، وجدت لجنة كاهانا أنّ شارون يتحمّل الجزء الأكبر من المسؤولية عن هذه المجزرة:

بناءً علىٰ أَفضل تقديراتنا، نرىٰ أَن المسؤولية تقع علىٰ عاتق وزير الدفاع لأنه تجاهل إِمكانية الأَعمال الانتقامية وإِراقة الدماء التي سيقوم بها الكتائب ضد السكّان في مخيمات اللاجئين ولأنه أَهمل في أخذ هذا الخطر بعين الاعتبار. . . . نحن نعتقد أَن وزير الدفاع يتحمّل مسؤولية شخصية. . . ومن المناسب أَن يتوصّل وزير الدفاع إِلىٰ استنتاجات شخصية مناسِبة عن الأَخطاء التي تكشفت في الكيفية التي أَعفىٰ فيها جنوده من واجباتهم وعلىٰ رئيس الوزراء، في حال الضرورة، أَن يفكّر في اَستخدام صلاحياته وفقاً لهذا. . . وبعد إِبلاغ المجلس عن عزمه في القيام بذلك، تَمَّ إِعفاء وزير الدفاع من منصبه.

بعد نتائج التحقيق والقرار النهائي للجنة كاهانا، أَصبح أَرييل شارون سياسياً حطبة ميتة، من الناحية المعنوية وحتىٰ القانونية. ومع ذلك حقَّقت لجنة كاهانا فقط، وحسب قرار التكليف، بما حدث في صبرا وشاتيلا دون أَن تبحث الحادثة في سياقها الشامل وهو الغزو الإِسرائيلي للبنان والأَسباب السياسية لهذه الحرب ونتائجها الإِنسانية. ولو تمّ مثل هذا التحقيق، لاعتُبِرت مجموعة كبيرة من القيادات السياسية والعسكريّة الإِسرائيلية، مجرمي حرب، علىٰ الأَقل من الناحية الأَخلاقية، ومذنبين، ليس فقط بجرائم ضد الفِلَسطينيين واللبنانيين، ولكن أَيضاً ضد الشعب اليهودي في إِسرائيل.

الفصل الثاني

الطريق إِلى الشارونية

12 ـ من العصيان المَدَني إلىٰ الحرب الشعبية

من الضروري، من أَجل فهم الوضع الراهن في الأَرض المقدَّسة ونتائجه المحتملة، أَن نلقي نظرة عامة ومختصرة علىٰ أَربعة أَحداث محورية ظهرت قبل الانتصار السَّاحق الَّذي حقَّقه أَرييل شارون في أَنتخابات 2001 و2003. وهذه الأَحداث هي: الانتفاضة الأُولىٰ، واتّفاق أوسلو، وفشل المفاوضات بين إِيهود باراك وياسر عرفات في كامپ ديڤيد تحت رعاية بِل كلِنتون، والمرحلة الأُولىٰ من انتفاضة الأَقصىٰ. إِن الغاية الرئيسية من الجزء الثاني في هذا الكتاب هي تقديم رؤية متبصِّرة للأَسباب الأَساسية لاثنين من التغيّرات الدراماتيكية والمتناقضة في العلاقات الفِلَسطينية ـ الإِسرائيلية ـ وتحديداً، المحاولة الرئيسية الأُولىٰ للتسوية وأنهيارها وتحوُّلها إِلىٰ حرب شعبية دموية شوّهت كثيراً وأَضرَّت ضرراً خطيراً كلا المجتمعين، وإِن كان بطُرق مختلفة، والتي يبدو أَن نهايتها غير واضحة حتىٰ الآن.

في التاسع من كانون الأوّل/ ديسمبر 1987، برزَتْ حادثة غير متوقّعة. فبعد عشرين سنة من السكون في الصراع الفِلَسطيني ٱنفجرت ثورة شعبية عامة ضد الاحتلال في قطاع غزة وامتدت إلىٰ الضفَّة الغربية. وفاجأت هذه الثورة قيادة منظّمة التحرير الفِلَسطينية خارج الأَراضي تماماً كما فاجأت إِسرائيل. وعرفت فيما بعد باسم الانتفاضة، بدأت أولاً بهَيَجان عفويّ تحوّل فيما بعد إلىٰ ثورة منظّمة، وتشكَّلت لجان شعبية سرِّيَّة في جميع المناطق وكانت القيادة الموحّدة للثورة، التي تعمل داخل الأَراضي، تعطي التوجيهات للسكّان المحليّين. وتنتشر هذه التوجيهات، المصدَّق عليها رسمياً من قيادة منظّمة التحرير الفِلَسطينية في الخارج، علىٰ شكل بيانات. كانت إِحدىٰ نتائج الانتفاضة، أَنَّه للمرة الأولىٰ منذ سنة 1948، تنتقل القوّة السياسية داخل المجتمع الفِلَسطيني من القيادات في المنفىٰ إلىٰ قيادات لا تزال شابة وغير معروفة داخل البلاد.

لقد كانت ثورة شعبية أصيلة، تجلَّت بالمظاهرات الشعبية في المدن والمخيمات، والإِضرابات، والتلويح بالعَلَم الفِلَسطيني الممنوع، ورمي الحجارة من الأَطفال والشباب وبعض النساء، واستهداف القوَّات الإِسرائيلية العاملة داخل الأَراضي المحتلَّة. وهكذا، حلَّت صورة «أَطفال الحجارة»، محل صورة أَطفال الـ آر. بي. جي. ولقد كانت أيضاً بداية ظاهرة الشهداء، حيث أُطلق اسم الشهداء (وهي كلمة تحمل مضموناً دينياً ودنيوياً وطنياً) علىٰ الشباب الَّذين يُقتلون خلال الثورة. وأَحياناً كان يُطْعَن بعض الأَفراد اليهود

المدنيين أَو العسكريّين بأيدي الصبايا المتسلحات بالسكاكين. وأَحياناً أُخرىٰ تُلقىٰ قنابل المولوتوف. كانت القوّات الإِسرائيلية عاجِزة أَمام أَطفال المقاوَمة هؤلاء، واستخدمت الغاز المسيل للدموع، والهراوات، وأخيراً الرصاص المطاطي في محاولة لتفريق المتظاهرين[1].

ابتعد الفِلَسطينيون عن الأَساليب التقليدية لحرب العصابات وعن الأَعمال الإِرهابية، مع بعض الاستثناءات، ونجحوا في تحييد التفوُّق العسكريّ الإِسرائيلي الواسع بآستخدام وسائل الإِعلام العربية والأَجنبية من أَجل إيصال رسالتهم ومطلبهم العنيد للحرِّيّة إِلىٰ العالَم.

وحاول إِسحاق رابين، وزير الدفاع في حكومة الائتلاف الوطني، خنق الثورة باللجوء إِلىٰ قسوة العنف الجسدي لكن دون آستخدام الأَسلحة النارية. أَمر جنوده بضرب الفِلَسطينيين الَّذين يرمون الحجارة، وكسر أَرجلهم أَو أَياديهم، وحجز الآلاف في المعسكرات دون محاكمة بحجّة التوقيف الإِداري. واتخذت المواجهة الفِلَسطينية ـ الإِسرائيلية منحىً غريباً، قتالاً يحدث في نهاية الأَلفية الثانية بالحجارة والعِصي. ووصل رابين وجنوده، من خلال الثورة الفِلَسطينية وردود الفعل الإِسرائيلية، إِلىٰ استنتاجين رئيسيين. الأَوّل، أَن الاحتلال الطويل كان ضارّاً بالقوّات العسكريّة الإِسرائيلية وبالأَمن

---

(1) الرصاص المطاطي هو نوع من الذخيرة الحيَّة. وهو رصاص مغلّف بالمطاط أَو البلاستيك للتخفيف من نتائج إِصابته بالتقليل من الوفيات. ومع ذلك، قتلت هذه الذخيرة «الخفيفة» عدداً من الفِلَسطينيين وتركت الكثير منهم أَحياء ولكن مشوّهين.

الإِسرائيلي من الناحية الاستراتيجية. وبدلاً من أَن تكون القوّات العسكريّة مدرَّبة علىٰ خوض حروب بأَحدث المعدات وأَكثرها تعقيداً، أَصبح الجيش الإِسرائيلي يعاني من خطورة تحوّله إِلىٰ قوة من الشرطة تفقد مع الوقت قدرتها علىٰ خوض الحروب الحقيقية. واستُخْدِمَت الوسائل العسكريّة المحدودة لحماية العشرات من المستوطنات الصغيرة وطرقاتها، ولحماية الباصات التي تنقل أولاد المستوطنين إِلىٰ المدارس. بالإِضافة إِلىٰ ذلك، طُلِب من الجيش حماية الفِلَسطينيين من المستوطنين المسؤولين عن الأمن. واستنتج رابين أَن هذه الحالة لا تهدر الموارد البشرية الثمينة فقط، لكنها تقوِّض الذهنية العسكريّة الصحيحة أيضاً لأن ترقية الجنود لم تعد مرتبطة بمهارتهم العسكريّة بل بمزاياهم كرجال شرطة. وكان استنتاج رابين الثاني خلال فترته وزيراً للدفاع متناقضاً كلياً مع استنتاجات شارون بعد خمس سنوات، أَنه لا يوجد حلٌّ عسكريٌّ للصراع الإِسرائيلي الفِلَسطيني.

لكن رابين، لا يثق بالعرب عامة وبالفِلَسطينيين بخاصة، مثل شارون. وأَصبحت استنتاجات رابين عموماً ومعتقداته المعقَّدة، أَساس تصرفاته الحاسِمة عندما انتُخب بعد خمس سنوات رئيساً للوزراء.

13 ـ أوسلو

بعد اُنتخابات 1992، عاد إِلىٰ السلطة ائتلاف الأَقلية برئاسة حزب العمل وإِسحاق رابين. ووحَّد حزب العمل قواه مع حزب ميريتز

اليساري المعتدل، واستطاع ائتلاف الأَقلية هذا أَن يشكِّل حكومة مستَقِرَّة مع تأييد حزبين إِضافيين صغيرين مرتبطين بالناخبين العرب والشيوعيين[2]. لقد كان ذلك كافياً لمنع تشكيل ائتلاف يميني.

ومع أَن البرنامج الأنتخابي لحزب العمل كان قد وعد بحلّ للمشكلة الفِلَسطينية، إِلاَّ أنّه لم يكن لدىٰ الحزب خطّة واضحة للقيام بذلك. وعكَس المعارضة التقليدية لحزب العمل ضد إِقامة دولة فِلَسطينية إِلىٰ جانب إِسرائيل، كانت غالبية الميريتز بالإِضافة إِلىٰ الحزبين الداعمين تفضّل على العموم تأسيس هذه الكينونة.

وكما قلنا سابقاً، وصل رابين شخصياً إِلىٰ آستنتاج بأنّه لا يوجد حلّ عسكريّ للأنتفاضة الفِلَسطينية. لهذا السبب تصرّف بجديَّة وتعاطف عندما عُرِض عليه طلبٌ من أَجل الموافقة علىٰ إِجراء محادثات بين الأكاديميين الإِسرائيليين وبعض المسؤولين من المراكز المتوسّطة في منظّمة التحرير الفِلَسطينية. تسَلّمت هذه المحادثات، التي ستجري تحت رعاية الحكومة النرويجية ووزير خارجيتها يوهان جيرگن هولت، من وزير الخارجية الإِسرائيلي شمعون پيريز، ونائب وزير الخارجية يوسي بيلين، تفويضاً استعادياً باستمرار المفاوضات، مع أنّه كان قد تمّ منح الموافقة الرسمية سرّاً. وفي اللحظة التي أعلن

(2) حزب ميريتز هو اتّحاد بين ثلاثة أحزاب تلتف حول حزب حقوق الإِنسان، الَّذي أَسسته شولاميت ألوني. وكان من المفترض أَن ينضم إِلىٰ الائتلاف حزب شاس وهو الحزب التقليدي لليهود الميزاحيم الَّذين هاجروا إِلىٰ إِسرائيل من الأَراضي الإِسلامية. لكن بقي الحزب خارج الائتلاف بعد أَن واجه زعيمه السياسي أرييه ديري، صعوبات قانونية.

فيها الفِلَسطينيون استعدادهم لاتّفاق مؤقت، بدأت الحكومة الإسرائيلية في بحث الخيارات. وقبل وقت قصير، كانت فكرة الانسحاب من قطاع غزّة، وهي منطقة كثيفة السكان وصعبة السيطرة وخالية من الموارد، قد انتشرت انتشاراً واسعاً بين صُنَّاع القرار الإسرائيليين وبعض السياسيين من الجناح اليميني. وكانت الصعوبة تكمن في إيجاد منظّمة تقبل تحمّل المسؤولية والسيطرة علىٰ قطاع غزّة دون أَن تطلب الانسحاب الكامل من جميع الأَراضي المحتلَّة.

ووفِق سجلات المحادثات غير الرسمية في النرويج، أَصبح واضحاً أَن منظّمة التحرير الفِلَسطينية كانت مستعدّة لتحمُّل المسؤولية في قطاع غزّة بالإضافة إلىٰ القسم الرمزي من الضفَّة الغربية دون الإصرار علىٰ المفاوضات المُسْبقة على تفاصيل اتّفاقيات الوضع النهائي. ومن المفترض أن يكون هذا الاستعداد جزءاً من اتّفاق سوف يُنفَّذ علىٰ مراحل ويتضمّن تأسيس السلطة الوطنية الفِلَسطينية في الضفَّة الغربية وقطاع غزَّة والانتقال النهائي للأجزاء الرئيسية من الأَراضي المحتلَّة إلىٰ السيطرة المنفرِدة لمنظّمة التحرير الفِلَسطينية.

أَصبح هذا الاتّفاق رسمياً في شهر آب/ أغسطس سنة 1993، وأَدَّىٰ إلىٰ توقيع إعلان المبادئ في واشنطن العاصمة في 13 أيلول/ سبتمبر. وتلتزم إسرائيل في المرحلة الأُولىٰ من المخطّط التمهيدي لإعلان المبادئ بتسليم القسم الأَكبر من قطاع غزَّة (باستثناء المستوطنات اليهودية في جبهة القطيف، المؤلَّفة من بضع مئات من الأُسَر والتي تحتل حوالي الربع من أَكثر المناطق كثافة سكانية في

العالَم) ومنطقة أريحا (حسب اتّفاق القاهرة في 4 أيار/ مايو 1994) إلىٰ السلطة الوطنية الفِلَسطينية المُعْلَنَة حديثاً. ومن المفترض أن تتسلَّم السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة، في المراحل التالية، السيطرة المنفردة علىٰ كل المدن الفِلَسطينية والمخيمات المأهولة بكثافة في الضفَّة الغربية وقطاع غزَّة (بٱستثناء المناطق اليهودية المستقرة في مدينة الخليل). إن مجموع الأَراضي التي سيتم نقلها إلىٰ سيطرة السُّلطة الفِلَسطينيَّة المنفردة (المنطقة أ) حوالي 4 بالمئة من الضفَّة الغربية وقطاع غزَّة. وتمَّت الموافقة أيضاً علىٰ التقسيم المتوسط لباقي أَراضي الضفَّة الغربية وقطاع غزَّة إلىٰ منطقتين منفصلتي السيطرة. منطقة تحت السيطرة الإسرائيلية المنفردة وتشمل وادي الأُردنّ وكل المستوطنات اليهودية في الضفَّة الغربية والطُّرق المؤدية لها (المنطقة ج)، بينما تشمل المنطقة ذات السيطرة المشتركة معظم المناطق الريفية للضفَّة الغربية، بما فيها حوالي 440 قرية والأَراضي المحيطة بها (المنطقة ب). في المنطقة ب، ستكون سيطرة السُّلطة الفِلَسطينيَّة علىٰ القضايا الإدارية وستحتفظ إسرائيل بالسلطة علىٰ القضايا العسكريّة. وتمّ الأتّفاق أيضاً علىٰ وجود الشرطة الفِلَسطينية ـ الإسرائيلية المشتركة في المنطقة ب.

إن العمل علىٰ أَساس الخطوة خطوة سوف يؤدي إلىٰ بناء الثقة، حيث يهدف الأتّفاق إلىٰ نقل جميع السكان الفِلَسطينيين في الضفَّة الغربية وقطاع غزَّة (بٱستثناء القدس الشرقية والمناطق الحضرية المحيطة بها) تدريجياً إلىٰ السيطرة الفِلَسطينية. وسوف تبقىٰ المستوطنات اليهودية في الأَراضي المحتلَّة (بما في ذلك الطُّرق

المؤدية إليها) وسكانها تحت السيطرة الإسرائيلية. وكان من المفترض أن يستمر هذا الاتّفاق المؤقت خمس سنوات، وخلال هذا الوقت يتم التوصل إلىٰ اتّفاق نهائي علىٰ آلاف القضايا الأُخرىٰ، بما في ذلك الوضع في القدس الشرقية، والحدود، ومشكلة اللاجئين، والوضع النهائي للسلطة الوطنية الفِلَسطينية، وتقسيم المياه الجوفية المشتركة، واستخدام المجال الجوي.

كانت إسرائيل مضطرّة أيضاً إلىٰ منح الفِلَسطينيين ممرّات حرّة وآمنة بين جزئي المناطق التابعة للسلطة الفِلَسطينية، وإطلاق سراح السجناء والمعتقلين. ومَنْح المساعدات (مع الولايات المتّحدة والدّول الأوروپية) من أَجل إقامة المشروعات، مثل المطار الدّولي وميناء غزة، لتطوير الاقتصاد والبُنىٰ التحتية للمجتمع في المناطق الواقعة تحت سيطرة السُّلطة الفِلَسطينيَّة. وفي المقابل، كان الشيء الوحيد الَّذي وعد به الفِلَسطينيون، إلىٰ جانب الاعتراف بإسرائيل، هو إنهاء العمليّات الفدائية ضد إسرائيل وحملةً فعّالةً من أَجل منع العمليّات الإرهابية ضد إسرائيل والإسرائيليين وسكّان المستوطنات اليهودية في الأَراضي المحتلّة. لهذه الأَغراض تمّت الموافقة علىٰ تأسيس قوة الشرطة الفِلَسطينية وأَنواع أُخرىٰ من القوىٰ الأَمنية (مثل قوىٰ الأَمن الوقائي).

كانت السلطة الوطنية الفِلَسطينية مهتمّة بتأسيس مثل هذه الوحدات العسكريّة لعدة أَسباب. لأن تأسيس قوة الشرطة سيجعل عودة قسم كبير من عناصر الوحدات العسكريّة (وأُسرهم) الَّذين تمّ

ترحيلهم من لبنان إلىٰ تونس، ممكنة إلىٰ فِلَسطين. وتمّ السماح أيضاً لوحدات أُخرىٰ من جيش التحرير الفِلَسطيني التي تشتَّتت في بلدان مختلفة بالعودة. وتمّ دمج هذه الوحدات بالإضافة إلىٰ القوّات المحلية (ومعظمهم من جنود فتح) مع الوحدات القادمة من تونس حيث أَصبحت القوّة الرئيسية التي يَعْتَمِد عليها نظام السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة، التي تعتبر نفسها دولة في طور الإنشاء. واليوم يُنْظَر إلىٰ هذه الوحدات علىٰ أنّها الحرس القديم، مقارنة مع الحرس الجديد المحلي.

لقد كانت هذه المنظّمات جزءاً من الآلية البيروقراطية الضخمة، وهي من الخصائص المعتادة للدول النامية غير الصناعية. وفي غياب البُنية التحتية الاقتصادية المنتجة، تؤدي هذه الآلية مهمّة إضافية إلىٰ جانب غاياتها المؤسّساتية المُعْلنة. وباعتبارها مصدر التوظيف والدخل لشريحة واسعة من السكان فلقد شجعت التدفّق الشرعي للثروات النقدية وعملت للحفاظ علىٰ الولاء للنظام. ولقد شكّل «الجيش الفِلَسطيني»، بأسلحته وزيّه (من الرتب الوسطىٰ والدنيا) رمزاً وطنياً ضرورياً ومريحاً للفِلَسطينيين.

وحسب الاتفاق، يمكن أَن يصل عدد فروع هذه الفرق إلىٰ 9,000 رجل، وفي الواقع تجاوز عددهم هذا الرقم بسرعة. فيما بعد، وغالباً بسبب تزايد الثوّار المسلّحين والعمليّات الإرهابية ضد إسرائيل التي بدأت في تشرين الأول/ أكتوبر 2000، أَصبحت الخطوط الفاصِلة، بين الميليشيا الرسمية والمجموعات الأُخرىٰ المسلّحة التي

تتمتّع بدرجات مختلفة من الدَّعم وتخضع للسلطة الوطنية الفِلَسطينية، ضبابية جداً. وأكثر الفِرق شبه الرسمية شهرة كانت فتح ـ التنظيم، أَو «المنظّمة» المؤلَّفة من الشباب المحليين ـ عكس المحاربين القدماء القادمين من تونس ـ الَّذين أَعلنوا ولاءهم الشخصي لفتح، والسُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة وعرفات. لقد اعتبروا أَنفسهم منظّمة أَمنية داخلية مكمّلة للشرطة الزرقاء العاجِزة، وقوّة قادرة علىٰ الالتفاف ضد إِسرائيل إِذا ما دعت الحاجة.

لقد انقسم الشعب الفِلَسطيني بين الاعتراف الفعلي بإِسرائيل وبين طبيعة الاتفاق المؤقَّت الَّذي سوف يؤدي إِلىٰ تشكيل السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة. وكان هناك مَن يرفض الاتّفاق كلية حتىٰ بين مؤسسي حركة فتح نفسها، دون الحاجة إِلىٰ ذكر أَعضاء الجبهة الديمقراطية، والجبهة الشعبية، وحركة حماس. الَّذين اعتبروا موافقة قيادة فتح علىٰ إِقامة السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة، وربما فيما بعد إِقامة دولة مستقلَّة منزوعة السِّلاح في مناطق منفصلة ومفكّكة تشمل جزءاً صغيراً فقط من فِلَسطين التاريخية (البريطانية)، كارثة ونوعاً من الخيانة. وجاءت المعارَضة الرئيسية للاتّفاق من فِلَسطينيي المنفىٰ، الَّذين شعروا أَن قيادة منظّمة التحرير الفِلَسطينية قد خذلتهم بتنازلها عن حقّهم بالعودة. لقد التزموا بالعقيدة المركزية لفِلَسطينيي الشتات، بأن لهم حقّاً في العودة إِلىٰ وطنهم.

وربما كان إِدوارد سعيد، الناقد العنيف للمقترحات «المستشرقة» في العالَم الغربي من أَشهر المعارضين لهذا الاتّفاق، ووقف إِدوارد

سعيد الَّذي دعم منظّمة التحرير الفِلَسطينية وعرفات واُعتُبر معتدلاً، ضد توقيع إعلان المبادئ ورأىٰ في الموافقة عليه استسلاماً كاملاً للصهيونية وللغرب. فبناءً علىٰ هذه الرؤية، تكون إسرائيل قد طبَّقت الاستراتيجية الاستعمارية التقليدية التي تحاول أن تستبدل السيطرة العسكريّة المباشرة بسيطرة غير مباشرة بالاستفادة من المتعاونين الفِلَسطينيين وبالانتفاع من تفوّقها الاَقتصادي والتكنولوجي والعسكريّ.

أما الفِلَسطينيون الآخرون الَّذين انتقدوا الاتِّفاق ومعظمهم من «الداخل» الَّذين أَمضوا معظم حياتهم تحت الاَحتلال الإسرائيلي (مثل الناشِط السياسي الدكتور حيدر عبد الشافي من غزَّة ومحمود درويش الَّذي يعتبر الشاعر الوطني الفِلَسطيني) فلقد كانوا مستعدين للموافقة علىٰ مبادئ اتّفاق السلام معْ إسرائيل والاعتراف بالدّولة، لكنهم انتقدوا الشروط التي قَبِل عرفات والقيادة الرئيسية الموافقة عليها. لقد بدت هذه الشروط غير مُرْضِية أبداً وأَثارت الشكوك في النوايا الإسرائيلية الحقيقية. واحتج المعارضون ضد ترك المستوطنات اليهودية في الأَراضي الفِلَسطينية (وبخاصّة في قلب الخليل وقطاع غزَّة) خلال الفترة المؤقتة وضد تأجيل محادثات الوضع النهائي للقدس، وتأخير إطلاق السجناء الفِلَسطينيين، والمساحة الصغيرة للأَراضي التي سيتم نقلها إلىٰ السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة.

13 ـ تأسيس السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة

لقد عرَّض عرفات ومؤيدوه مواقعهم السياسية، وربما حياتهم، للخطر عندما وافقوا على الشروط الإِسرائيلية، التي اعتبروها، هم أنفسهم، شديدة القسوة. مع ذلك، كانوا يركّزون أكثر على الترتيبات النهائية التي من المفترض أن يكسب الفِلَسطينيون من خلالها دولة مستقلَّة وذات سيادة للمرة الأُولىٰ في التاريخ. ومن المفترض أن تغطي هذه الدّولة معظم أَراضي الضفَّة الغربية وقطاع غزَّة، وعاصمتها القدس الشرقية، وأن تحتوي فقط على أقلية صغيرة من المستوطنين اليهود والمستوطنات داخل حدودها. وكانت ستضع قانونها الخاص في العودة وستشجع تشجيعاً انتقائياً هجرة الفِلَسطينيين من المنفىٰ إلىٰ الدّولة الجديدة، وفقاً لإِمكانياتها الاقتصادية في الاستيعاب، ولحاجاتها الإِيديولوجية، والسرعة التي تراها مناسبة.

عندما وقَّعت القيادة الفِلَسطينية الرئيسية الاتّفاق، يبدو أنّها كانت تعتبره برنامجاً اختيارياً وفي حدِّه الأدنىٰ لمرحلة قصيرة[3]. ولأَول مرة يصل الفِلَسطينيون إلىٰ هذا القرب من حالة الدولة: بمعنىٰ إنشاء كيان

(3) وافق المجلس الوطني الفِلَسطينيّ، كجزء من تنفيذ الاتّفاق في 14 كانون الأول/ ديسمبر 1998، وبحضور رئيس الولايات المتّحدة، علىٰ إلغاء بند من الدستور الوطني الفِلَسطيني ينص على تدمير إسرائيل وعلىٰ تعيين لجنة من أَجل تعديل الدستور. وبسبب التطورات اللاحقة، لم يتم ذلك، ولا يزال الوضع القانوني للدستور غير واضح حتىٰ الآن. قبل ذلك بيومين، في 12 كانون الأول/ ديسمبر اجتمعت ثمانية فصائل من المعارضة من داخل منظّمة التحرير الفِلَسطينية، وحماس والجهاد، في دمشق لتأكيد معارضتها لعمليّة أوسلو وتغيير الدستور الوطني.

سياسي له سيطرة مركزية مستقلَّة ضمن أَراض معطاة له، والتي هي جزء من فِلَسطين التاريخية، علىٰ أَمل توسيع سيطرته وسلطته علىٰ هذه المناطق وسكانها.

وللمرة الأُولىٰ منذ سنة 1948، تعود القيادة الفِلَسطينية أَو علىٰ الأَقل جزء منها إِلىٰ فِلَسطين وتستقر بين الناس، وهو شيء لم يكن مريحاً دائماً سواء للناس أو للقيادة. فالسنوات الطويلة من العيش المنفصل في ظروف متفاوتة أَدَّت إِلىٰ فروقات في الثقافة وفي تفسير المصلحة الوطنية، وهي اختلافات تفاقمت كثيراً بسبب الفجوة بين الأَجيال.

تبنَّت السلطة الوطنية طقوس الدّولة وأساليبها الرسمية. وأَصبح رئيس منظّمة التحرير الفِلَسطينية «رئيس الدّولة»، والمسؤولون عن الحقائب الوزارية (الَّذين ارتفع عددهم إِلىٰ خمسة وثلاثين سنة 2002)، وزراء، والدوائر المختلفة وزارات. وتبنَّت السلطة الوطنية العَلَم والنشيد الوطني، وأَرسلت ممثلين ديلوماسيين إِلىٰ الخارج. وأَسَّست محطة إِذاعية وعدّة محطات تلفزيونية إِقليمية، تبث معظم الأَحيان البيانات الحكومية الرسمية وتنقل أَحياناً نقلاً مباشراً ٱجتماعات المجلس التشريعي، الَّذي كان عمله رمزياً فقط. وأَسّست الحكومة الجديدة سلطة قضائية حاولت أَن تبدو مستقلَّة عن السلطة التنفيذية ولكنها لم تنجح في ذلك. وبعد وقت قصير من توقيع ٱتّفاق أوسلو، في 25 كانون الثاني/يناير 1996، جرت ٱنتخابات عامّة في أَراضي السلطة الوطنية تحت إِشراف غربي. واعتبر الفِلَسطينيون

المجلس التشريعي، بمقاعده الثمانية والثمانين والمُنْتَخَب حديثاً، برلماناً صالحاً لكل الأغراض والأهداف.

حصلت فتح والمرشّحون المدعومون منها علىٰ أَغلبية كبيرة من الأَصوات. وحتىٰ هذا التاريخ، كانت هذه الانتخابات هي الوحيدة التي جرت. وكان من الأَهداف الأولية للسلطة الوطنية الفِلَسطينية بناء الوعي الوطني المشترك بين جميع مواطنيها، وبين فِلَسطينيي المنفىٰ أيضاً إذا أمكن. وكانت الأَداة الرئيسية لتحقيق هذا التطلُّع المشترك بناء نظام تعليمي بمنهاج دراسي خاص بها وكتب مدرسية، تحدِّد الهوية الفِلَسطينية الجديدة التي من المفترض أن تنبثق من الكينونة الاجتماعية السياسية المتمثِّلة بالسُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة. وحتىٰ هذا الوقت، لا يزال النظام التعليمي يعتمد علىٰ المنهاج الدراسي الأُردنيّ ويشدِّد علىٰ تحضير الطلبة لامتحان القبول في الجامعة الأردنية (التوجيهي). أَمَّا باقي المناهج فلقد أُخذت ودُرست وفق نظام مدارس وكالة الغوث التابِعة للأُمم المتحدة. وبدأ إعداد منهاج فلسطيني مستقل ـ من ضمن أهدافه تدريس التاريخ الوطني وتكوين وعي وطني ـ في الستينيات في الكويت ولبنان. ولكن نقص الحكم الذاتي جعل إتمام هذه العملية من المستحيلات وحاولت السُّلطة الوطنية توظيف أَفضل التربويين والمثقفين المحليين لتطوير المناهج وإِعداد الكتب المدرسية، ولكن تبيّن لها أَنَّها عملية طويلة ومكلفة.

وكبديل مؤقت، كانت هناك محاولات لتجنيد وسائل الإِعلام في مهمة بناء الهوية الفِلَسطينية. ومع أَنّه لا يوجد نقص في الخصوم

والمناوئين لاَستخدامهم في بناء صورة «الآخر» كنقيض لـ«نحن»، ما تزال هناك حاجة للابتعاد عن وصف الأجنبي بأسلوب شديد السوقية.

هكذا، وفي مرحلة مبكرة، واجهت وسائل الإعلام مأزق الحاجة إلىٰ بثّ دعاية إيجابية لعمليَّة السَّلام (قبل أن تنهار وتُستبدل بالمواجهة المسلَّحة) والبحث عن تسوية مع إسرائيل، والحاجة إلىٰ تقديم الصهيونية وإسرائيل والَّذين يتعاونون معها علىٰ أنهم أَعداء ألدّاء. وأَصبحت عمليَّة التوازن هذه أَصعب عندما توقّفت عمليّة السَّلام بعد اغتيال رابين.

قبل هذا، كان الصراع على شخصية الدّولة والمجتمع الفِلَسطيني ومستقبلهما قد اَستؤنف وأَصبح ملازماً للصراع العنيف حول طبيعة علاقاتها مع إسرائيل ومع اليهودية. وناضل التيّار الرئيسي، الَّذي بدا منتصراً، ضد عدد من الجماعات المعارضة، ذات الصبغة الإسلامية بخاصة. وكانت حركة حماس تعاني من اَنقسام داخلي بين الذين يفضلون، علىٰ الأَقل خلال المرحلة الأولية النشِطة من عمليَّة السَّلام، الاندماج مع نظام عرفات الشعبي الجديد، وبين المؤيدين للالتزام بالأَهداف التقليدية للحرب المقدَّسة (الجهاد) ضد اليهود: تحرير الأَراضي المقدَّسة، وبعد ذلك إقامة دولة ثيوقراطية إسلامية.

وأخذت حماس بعين الاعتبار مصالحها الشخصية، واعترفت بوجود جدل بين اَستئناف الجهاد وإيقافه. إن الاندماج سوف يجبر فتح علىٰ أَخذ حماس بعين الاعتبار ويضمن لها مكانتها المناسبة في السلطة (نظاماً أَو حكومة)، وهذا يعني الاعتراف والتمثيل المناسب في

المؤسَّسات الوطنية والحفاظ علىٰ القِيَم التقليدية للمجتمع الفِلَسطيني، والأَهم من ذلك كله، حصة في المناصب المهمة وفي الميزانية. أمَّا عند معارضي الاتّفاق، فكان استئناف حرب العصابات يعني انهيار الاتّفاق مع إِسرائيل وتقديم الدليل علىٰ أَن السُلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة لا تحكم الأَراضي ولا تستطيع أَن تقدّم لإِسرائيل أَهم ما تحتاجه، وهو الأَمن الإِسرائيلي الداخلي. وبين التاسع من نيسان/ أپريل 1994، والواحد والعشرين من آب/ أغسطس 1996، نجحت حماس وحركة الجهاد في تنفيذ عدد من الهجمات الإِرهابية في المدن الإِسرائيلية الرئيسية باستخدام عناصر يفجِّرون أنفسهم (القنابل البشرية). فقُتِل عشرات من الناس وجُرح المئات وسط المدن الإِسرائيلية المركزية. إن العملية المتزامنة لإِسرائيل وقوات الأمن الفلسطينية المعتمدة في الاتفاقيات بين الجانبين. والتي كانت تنظر إليها الحكومة الإسرائيلية والرأي العام شرطاً أساسياً لاستمرار العملية، أصبحت بلا جدوى لأن السلطات الفِلَسطينية كانت تفتقر إِما إِلىٰ القدرة أَو إِلىٰ الرغبة بالتصرُّف ضد إِخوانها. وبدا كأن حركة حماس قد مارست الڤيتو علىٰ الاتّفاق الّذي يعد بالتسوية بين الإِسرائيليين والفِلَسطينيين. وشعرت القيادتان بالخجل أَمام أَنصارهما الشخصيين وأَمام بعضهما البعض.

كان ردّ فعل القيادة الإِسرائيلية والرأي العام، في تلك المرحلة، معتدلاً نِسْبياً ومقيداً. فقبل سنتين فقط، كان التخلي عن مناطق داخل الأَرض الإِسرائيلية للفِلَسطينيين، والاعتراف بمنظّمة التحرير الفِلَسطينية والحوار مع عرفات (الّذي صُوِّر للشعب

الإسرائيلي علىٰ أنَّه شيطان وأكبر عدو لإسرائيل واليهود منذ النظام النازي في ألمانيا)، تصرّفات لا تصدَّق من وجهة نظر اليهود الإسرائيليين تماماً كما كانت فكرة التخلّي عن فِلَسطين الكبرىٰ من وجهة النظر الفِلَسطينية. وبرغم ذلك فقد استقبل الجانبان الاتّفاق المذهل والمفاجئ، بين إسحاق رابين (الَّذي يعتبره اليهود أكثر القادة العسكريّين الإسرائيليين وطنية وإجلالاً)، وبين ياسر عرفات، الرمز الحقيقي للنضال الوطني الفِلَسطيني، بمزيج من الارتياح والأَمل والتساؤل والشك والرفض. لم يكن لدىٰ المعارضة في إسرائيل سياسة بديلة، والحشود من الجانبين التي تعارض عادة هذه «الخيانة» لم تخرج بعد إلىٰ الشوارع احتجاجاً (بٱستثناء الجناح اليميني الراديكالي، والجماعات الصهيونية الدينيَّة وبعض اليهود المسيحيين الأرثوذوكس، وبخاصة شاباد).

ومع ذلك، فقد أدَّىٰ الأذىٰ الكبير، الَّذي أَصاب المواطنين الإسرائيليين في المناطق الرئيسية من المدن الكبرىٰ، إلىٰ تغيّر إيجابي في الرأي العام الَّذي كان يفضل سلسلة من الاتّفاقات. وأثبت أدعياء المعارضة أن هذا ليس سلاماً. ومع كل تأكيد كانت تُستأنف الأعمال الإرهابية، وفرضت إسرائيل إغلاق مناطق محدّدة، وتطويق الأقاليم كلها، وعقوبات جماعية أُخرىٰ في مناطق السُّلطة الفِلَسطينيَّة بالإضافة إلىٰ المناطق التي بقيت تحت السيطرة الإسرائيلية. وأخَّرت إسرائيل تنفيذ المراحل الإضافية من الاتّفاقيات (تلك التي ستبحث نقلَ مناطق أُخرىٰ إلىٰ سيطرة السُّلطة الفِلَسطينيَّة، وإطلاقَ سراح السجناء

والمعتقلين، وحريةَ الحركة للتلاميذ المتنقّلين بين الضفَّة الغربية وقطاع غزَّة، ونقلَ ضرائب الودائع المصرفية إلىٰ السُّلطة الفِلَسطينيَّة، وحريةَ المرور للعمّال الفِلَسطينيين الذين يعملون في إِسرائيل) وأوقفت المحادثات. وزادت هذه التأخيرات وغيرها من الكره الفِلَسطيني لإِسرائيل وشجّعت المزيد من الأَفراد والجماعات علىٰ الانضمام إِلىٰ صفوف النضال المسلَّح الَّذي ٱستؤنف. وبعد تزايد الهجمات الإِرهابية سنة 2000، قرَّرت إِسرائيل ٱستخدام القوَّات العسكريّة المحدودة ضد كل الخصوم وضد كل من يتبيَّن أنّه مسؤول عن المجموعات المقاتِلة الفِلَسطينية وتصفيتهم بطريقة منهجية.

ولقد أَدَّت دائرة العنف الشديد والإِغلاق إِلىٰ تدهور الوضع الٱقتصادي للسكان في الأَراضي المحتلَّة (كانت هناك تقارير عن مجاعات في قطاع غزَّة) وٱزدياد نفوذ حركتي الجهاد وحماس، الَّذي أَدَّىٰ بالتالي إِلىٰ ظهور أَبطال فِلَسطينيين جُدد ـ الشهداء. كان أَشهرهم يحيىٰ عياش، المعروف أيضاً بٱسم «المهندس»، والمشتبه الأول بمسؤوليته عن التحضير والإِشراف علىٰ معظم الهجمات التي حدثت خلال تلك الفترة. وأُضيف مقتله أَخيراً علىٰ أَيدي المخابرات الإِسرائيلية إِلىٰ هالة البطولة المحيطة به.

في البداية، لم يكن لدىٰ السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة وكالة استخبارات فعَّالة لمنع هذه النشاطات، التي تهدّد سلطتها ووجودها الفعلي. ولم يكن عرفات يريد المواجهة العنيفة والمباشرة مع هذه الجماعات، بل كان يفضل تفريقها والسيطرة عليها عن طريق خيار

مشترك يجعلهم تحت سيطرته بمنحهم مناصب وامتيازات. ومن المرجّح وجود معارضة طبيعية ضد ملاحقة وٱعتقال الأفراد والجماعات المؤيدة للكفاح المسلّح والّذين يُعتبرون أَبطالاً عند بعض أَبناء الشعب الفِلَسطيني علىٰ الأَقل. بالإِضافة إِلىٰ أَن جزءاً من الميليشيات التي جاءت مع السُلطة الوطنية من الخارج لم تستطع كسب ثقة الشعب وتأييده دائماً. وبدا هؤلاء الفِلَسطينيون، الّذين وُلد معظمهم في الخارج، غرباء عن المجتمع المحلّي. وعندما أَعلنت السلطة نيّتها جمع الأَسلحة النارية والذخيرة وأَدوات الحرب من السكّان المحليين عارضت ما تُسمّىٰ بالجماعة الإِسلامية ذلك مباشرة. وفي الثاني والعشرين من تشرين الثاني/ نوڤمبر 1994، ٱنفجر صراعٌ دامٍ بين القوّات الفِلَسطينية والسكّان المحليين في غزّة، أَدّىٰ إِلىٰ مقتل عشرة أَشخاص.

كان الفِلَسطينيون يأملون أن الانتقال من السيطرة الإِسرائيلية إِلىٰ سيطرة السُلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة سوف يحسّن مستواهم المعيشي، الّذي انخفض منذ الأنتفاضة الأُولىٰ ومنذ إِخراج الفِلَسطينيين من الكويت وتوقّف تدفّق الأموال التي يرسلها العاملون هناك إِلىٰ الأهالي في الأَراضي المحتلّة. فلقد بنيت الآمال علىٰ أَساس الوعود بتدفّق الرأسمال الخارجي والقروض من أَجل تطوير البُنىٰ التحتية الاَقتصادية والمنشآت الاَجتماعية. ولقد تمّت عمليَّة السّلام كلها بٱفتراضات غير مؤكّدة بأن للجانبين مصالح ٱقتصادية في إِحلال السّلام، ولو أَن هذه المصالح الاَقتصادية غير موجودة، لعُمِل علىٰ تأمينها آنذاك. لقد بُنيت

رؤية شمعون پيريز «للشرق الأَوسط الجديد» علىٰ تلك الافتراضات. وعندما تصل الأُمور إِلىٰ صراعات إثنية ودينية عميقة، وحتى لو وُجدت مصالح اقتصادية مشتركة، فلن تكفي هذه المصالح لتحطيم المشاعر الأَصلية، وبخاصة في مثل هذا الوقت القصير. يجب أَن نتذكّر أيضاً أَن الفِلَسطينيين، مثل كثيرين غيرهم من العرب يخشون تطوّر نوع من الاستعمار التجاري، يمكن أَن يحل محل الحكم العسكريّ الإِسرائيلي في المنطقة، مع السيطرة التكنولوجية والاْقتصادية.

تحقّق تحسُّن اقتصادي فعلي بحلول سنة 1998، عندما تدفّقت المساعدات، لكنها ما لبثت أن انقطعت فجأة في أيلول/ سپتمبر 2000 مع تصاعد الاْنتفاضة الثانية وما تلاها من ركود اْقتصادي عميق لحق باْقتصاد السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة. واْنخفض الدخل الفردي الفعلي سنة 2000، بنسبة 12 بالمئة وتبعه اْنخفاض آخر بنسبة 19 بالمئة سنة 2001، ومع نهاية 2001 كان الدخل الفردي أَقل بنسبة 30 بالمئة عنه سنة 1994، عندما وُقِّع اْتّفاق غزة وأريحا. وقدَّر البنك الدّولي أَن نصف سكان السُّلطة الفِلَسطينيَّة يعيشون تحت خط الفقر. وبحلول أيلول/ سپتمبر 2000، فقد ما بين خمسة وسبعين وثمانين أَلف فِلَسطيني وظائفهم في إِسرائيل والمستوطنات وحوالي ستين ألفاً آخرين في أَراضي السُّلطة الفِلَسطينيَّة نفسها.

لا شك أَن الاستقلال رفع الآمال في مستوىٰ حياة أَفضل في البداية، لكن هذه الآمال تبدّدت إلا عند طبقة صغيرة من المجتمع

الفِلَسطيني استفادت من نقل السلطة من الحكم العسكريّ الإِسرائيلي إلىٰ السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة. وحدث العكس تماماً، فقد آنخفض المستوىٰ المعيشي لمعظم الفِلَسطينيين، وبخاصة في قطاع غزَّة، وسُجِّل انخفاض عام بنسبة 25 بالمئة في مستوىٰ المعيشة منذ بداية الإِغلاق الطويل. ولم تشجع الشائعات عن الفساد، التي تفشت بسرعة، والتي كانت مرتبطة أكثر الأَحيان بأَسماء قيادات من السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة، إِمكانيةَ تحسين المستويات الأَدنىٰ؛ وعوضاً عن ذلك زودت المعارضة بالقوّة وأَسهمت في إِضعاف معنويات السكّان وساعدت في آرتفاع مستوىٰ الجريمة.

تميَّز المجتمع الفِلَسطيني، خلال السنوات العشرين السابقة من زمن الاَحتلال بتوسّع المؤسَّسات والمنظّمات التطوُّعية غير الحكومية. وكان معظم النشطاء في هذه المنظّمات الَّذين يقدمون الخدمات يتلقّون رواتب أَو تعويضات أُخرىٰ تقديراً لجهودهم. ووظّفت هذه المنظّمات، في بداية التسعينيات، ما بين عشرين إلىٰ ثلاثين أَلف شخص. هكذا، وفي غياب الدّولة، طوَّر الفِلَسطينيون آلية بديلة تتمتّع ببعض ميزات المجتمع المدني. وعلاوة علىٰ ذلك كان يأتي القسم الأَكبر من ميزانية هذه المؤسَّسات والجمعيات من مصادر أَجنبية. ولعبت هذه المنظّمات، خلال الانتفاضة الأُولىٰ، دوراً كبيراً ومتزايداً، وفي منتصف التسعينيات قدَّمت تقريباً نصف الخدمات الطبية وحوالي ثلث الخدمات التعليمية بالإِضافة إلىٰ الاستشارات والدعم للسجناء السابقين والمُعْوِزين والمساعدات وخدمات إِعادة تأهيل المعوَّقين.

ومع تأسيس السُلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة، كان من الطبيعي أَن تأخذ علىٰ عاتقها قسماً كبيراً، إِن لم يكن كل المهمات التي تقوم بها هذه الجمعيات. وبالفعل، أُسّست وزارات مختلفة ضمن هيكلية السلطة لهذا الغرض تحديداً. ومع ذلك، كان من الصعب بناء خدمات مؤسَّساتية مدنية تعمل وفق القواعد، وأَصبحت هذه المكاتب تُعرف بأَسماء الأشخاص الَّذين يترأسونها، وهم من المخلصين والمقرّبين من الرئيس. وبدأت السُلطة الوطنية بفرض سلطتها علىٰ المنظّمات التطوُّعية فرضاً صارماً، إِما لإِثبات قوّتها أَو لخوفها من أَن تنشأ مع الوقت آلية موازية أَو مخرِّبة. وفي كلتا الحالتين، كانت الدّولة الوليدة أَقل فاعلية بكثير، علىٰ الأَقل في المراحل الأُولىٰ، ولم تقدّم إِلاَّ نسبة ضئيلة من الخدمات التي كانت تقدّمها المنظّمات التطوُّعية إِلىٰ درجة أَنّها لم تكن قادرة علىٰ حلّ معضلة الجمعيات القديمة، وهل من المفروض أَن يتم دمجها بالدّولة أم مجابهتها أم إِلغاؤها.

15 ـ من الاتّفاق القريب إِلىٰ المأزق

في الرابع من تشرين الثاني/ نوڤمبر سنة 1995، اغتيل رئيس الوزراء الإِسرائيلي، إِسحاق رابين، علىٰ يد شاب قومي متديّن أَمل أَن يوقف عمليَّة نقل الأَراضي إِلىٰ سيطرة السُلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة. وشكّلت هذه الحادثة الذروة في التحريض والمظاهرات العنيفة غير المسبوقة ضد اتّفاقيات أوسلو عامّة وضد رابين شخصياً، بسبب

خيانته لفكرة أرض إسرائيل الكبرىٰ. وكان من أَساليب التحريض توزيع الصور التي تظهر رابين بزي SS (وحدات مختارة شبه عسكريّة من الحزب النازي كانت تعمل حرساً خاصاً لهتلر وقوّات الأَمن الخاصة في أَلمانيا وفي الدّول التي احتلتها). ولعب أَفراد من المعارضة مثل شارون والنجم السياسي الجديد بنيامين نتنياهو دوراً رئيسياً في هذا التحريض بأستخدام عبارات مسرفة مثل الدَّم والأَرض والخيانة[4]. كان اندماج المصالح المشتركة بين حركة حماس والجهاد ونظرائهما من الجناح اليميني العلماني الإسرائيلي والمسيحيين المتعصبين أَقوىٰ بكثير من المصالح المشتركة بين المؤيدين لاتّفاقيات أوسلو الإشكالية.

وكما ذكرنا سابقاً، كانت إدارة رابين حكومة أَقلية. وبعد أغتيال رابين، لم يكن شريكه شمعون پيريز قادراً علىٰ الفوز في أنتخابات 1996. وكان السبب الوحيد لهزيمته الانتخابية سلسلةَ ردودِ الفعل التي تبعت أغتيال يحيىٰ عياش في كانون الثاني/ يناير 1996. لقد أقرَّ پيريز، الَّذي كان يقوم بمهمة رئيس الوزراء، أنّ «الهدف» من قتل يحيى عياش، خبير المتفجرات وصانع القنابل لدىٰ حماس والبطل في نظر الكثيرين في قطاع غزَّة، هو رسم صورة له أَكثر صرامة قبل

(4) في الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1995، حضر كل من شارون ونتنياهو ورافائيل إيتان أجتماعاً حاشداً في القدس وأَلهبوا مشاعر المشاركين إلىٰ درجة أَنهم نادوا بموت «مجرميْ أوسلو» رابين وپيريز. وأَصبحت هذه الحادثة جزءاً من الذاكرة الجماعية الإسرائيلية.

الأنتخابات[5]. وكانت حماس هادئة ولم تنفِّذ أي عمليَّة مهمة قبل الاغتيال بعدة أَشهر. واستمرت هذه الهدنة إِلىٰ ما بعد اغتيال رابين. لكن بعد مرور الأَربعين يوماً المعتادة في الحداد عند المسلمين، نفَّذت حماس انتقامها بسلسلة من التفجيرات العنيفة داخل إِسرائيل. وكانت ردّة فعل الشعب الإِسرائيلي اليهودي مباشرة. وتبدَّدت الدعوة الكبيرة لحزب العمل في دعم عمليَّة التسوية في استطلاع الرأي، بينما حصل الليكود وجناحه اليميني المتشدِّد علىٰ كثير من الدّعم.

خسر بيريز ومعه حزب العمل دعم الإِسرائيليين العرب. وقرَّر كثير من الناخبين الإِسرائيليين العرب (وبعض اليهود) الامتناع عن التصويت احتجاجاً علىٰ عمليَّة عناقيد الغضب، وهي سلسلة من الهجمات الجوية نُفِّذت ضد جنوب لبنان انتقاماً من قصف «حزب الله». وتسبَّبت هذه الهجمات في هجر حوالي 200,000 من السكان بيوتهم بينما تسبّب الخطأ الذي ارتُكِب بقصف بلدة قانا في وفاة 100 مواطن لبناني.

في هذه المرحلة، استعاد المستوطنون واليمينيون حيويتهم السياسية. واستثمروا كلّ الجهود لأنتخاب بنيامين نتنياهو رئيساً للوزراء. وعلىٰ عكس توقعات كثير من مؤيديه، لم يتخلَّ نتنياهو عن «الأتّفاقيات الدّولية» (أوسلو)، بل تابع، أيضاً، المحادثات مع

---

(5) على عكس الممارَسات السابقة في مثل هذه الحالات، اعترفت الحكومة الإِسرائيلية بمسؤوليتها عن الاغتيال وعبَّرت وسائل الإِعلام عن بهجتها بالتصفية الناجحة.

الفِلَسطينيين تحت الرعاية الأَمريكية. وتفاوض على ٱتّفاقيات مرحلية إِضافية، تحقّق بعضها، مثل إِعادة الخليل (بٱستثناء المقاطعة اليهودية)، ومذكرة واي ريڤر Wye River (في 23 تشرين الأول/ أكتوبر 1998). وكان في إِطار ٱتّفاق واي ريڤر، نقل السيطرة في بعض المناطق الإِضافية إِلىٰ السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة، وبالتالي وضع جميع سكان المدن الفِلَسطينية (بٱستثناء القدس) ومعظم سكان مخيمات اللاجئين تحت سيطرة السُّلطة الوطنية. ونُفّذت لاحقاً، أجزاء من هذا الاتّفاق على عهد حكومة باراك القصيرة. ومع ذلك، ونتيجة لاتّفاق واي ريڤر، تخلّىٰ اليمين المتطرِّف عن الليكود، وأَسَّس حزب الاتحاد الوطني، الَّذي أَدَّىٰ في النهاية إِلىٰ سقوط نتنياهو.

كان يمكن الشعور بنوع من التغيّر في المناخ وفي العلاقات بين إِسرائيل والفِلَسطينيين حتىٰ في المراحل الأولىٰ من إِدارة نتنياهو. وبدأت الثقة المتبادلة بالانهيار. بالإِضافة إِلىٰ العدائية الواضحة للحكومة الجديدة تجاه الفِلَسطينيين، وقوّض ٱفتتاح نفق الجدار الغربي الاتّفاقيات الهشَّة. وٱعتُبِر هذا النفق، الَّذي امتد تحت الحرم الشريف (جبل الهيكل اليهودي)، وٱفتُتِح في 25 أيلول/ سپتمبر 1996، تهديداً لوضع الأَماكن المقدَّسة. وحرَّض ٱفتتاحه المظاهرات وعمليّات الشغب التي قُتل خلالها حوالي أَربعين فِلَسطينياً وجُرح مئة منهم. وٱزداد التوتر عندما توسّعت خطط البناء في مناطق القدس العربية وفي المستوطنات. وزادت الخطابات القومية المتطرِّفة واحتقار الفِلَسطينيين من مشاعر العزلة وساعدت في تخفيف المراقبة وتقييد

الحريات ضد حركتي حماس والجهاد الإسلامي اللتين استأنفتا هجماتهما على المدن الإسرائيلية. وساهم في سقوط نتنياهو وفي سقوط باراك لاحقاً، الإحساس المتزايد بعدم الأمان الشخصي بين السكان اليهود في إسرائيل، بالإضافة إلىٰ أن السلوك الشخصي للسياسيين من الطرفين وعدم قدرتهم علىٰ الاحتفاظ بعلاقات شخصية محترمة قد ساهم في ذلك أيضاً.

وفي 17 أيار/ مايو 1999، ٱنتُخب إيهود باراك، من لائحة حزب العمل، رئيساً للوزراء تحت شعار واعد هو «متابعة وديعة رابين». وأنعش ٱنتخابه الآمال بإعادة الثقة بين إسرائيل وكل من الفِلَسطينيين بخاصة والعالَم العربي عامة. ومع ذلك، بدا باراك، علىٰ الأَقل خلال بداية فترته، وكأنّه يعمل مذهولاً تحت تأثير صدمة ٱغتيال رابين. فحاول ٱستئناف العمليَّة الدبلوماسية من خلال ائتلاف حكومي مؤلَّف من «غالبية يهودية مستقرَّة»، أي من دون دعم الناخبين العرب الإسرائيليين، الَّذين أَعطوه 95 بالمئة من أَصواتهم وكان لهم الفضل الكبير في نجاحه في الأنتخابات الأولية المباشرة للرئاسة. وعوضاً عن ذلك، تعاونت الحكومة، منذ البداية، مع الأَحزاب الدِّينيَّة ومع ذوي الميول اليمينية (مثل الحزب ٱلوطني الديني، وشاس، وحزب المهاجرين الروس)، وسبَّبت ٱنسحاب ميريتز من الإئتلاف، أَحد أَكثر الأَحزاب الصهيونية إخلاصاً لعمليَّة التسوية، كل ذلك ليتفادىٰ التشابه مع ائتلاف رابين.

بٱستعادة أَحداث الماضي وتأمُّلها، شكَّ كثيرون، بمن فيهم يوسي بيلين علىٰ سبيل المثال، أَنّ باراك يحسب خطواته ليكون قادراً علىٰ جعل مقترحاته تبدو وكأنها تسويات هائلة من جانب إِسرائيل بينما يعرف أنّها ستكون مرفوضة تماماً من الفِلَسطينيين. وهكذا، يستطيع أَن يكشف بوضوح عن الوجه الحقيقي للفِلَسطينيين ويعلن «إِن إِسرائيل لا تملك شريكاً حقيقياً في السَّلام». والاحتمال الأَكبر أَنّ باراك كان يؤمن فعلاً بقدرة إِسرائيل علىٰ إِجبار الفِلَسطينيين بالقبول بٱتفاق يرتكز علىٰ شروطه هو[6]. لهذا أَمضىٰ سنته الأُولىٰ في المكتب محاولاً الوصول إِلىٰ ٱتّفاق مع سورية من أَجل عزل الفِلَسطينيين. وكما قال باراك حرفياً، «إِن تحقيق السَّلام مع سورية سوف يحدّ من قدرة الفِلَسطينيين علىٰ توسيع الصراع». لكن حافظ الأَسد، المُصاب برهاب الأجانب، لم يكن في مزاج مناسب لإِقامة سلام مع إِسرائيل ـ حتّىٰ مقابل كامل الأَراضي المحتلّة سنة 1967 والتي أُعيد ٱحتلالها سنة 1973 ـ لأَنّه في حال إِقامة السَّلام سيكون مضطراً لفتح حدوده أَمام الغرباء وأَمام الأَفكار الجديدة والخطيرة.

في الحقيقة كانت طريقة باراك مختلفة عن طريقة رابين[7]: لقد

---

(6) والسبب الآخر الّذي يجعل تأكيدات بيلين بلا معنىٰ أَنّه، حتىٰ السياسي غير الخبير مثل باراك، لن يضحي بمستقبله السياسي لمجرد أَن يثبت أَن الفِلَسطينيين يمكن أن يرفضوا أَسخىٰ العروض، التي قُدِّمت لهم، (من وجهة النظر الإِسرائيلية) أَو أبعدها تصديقاً.

(7) عارض باراك ٱتّفاق أوسلو بصفته رئيساً للأَركان خلال رئاسة رابين، وهذه حقيقة لم يبرّرها ولم يذكرها حتىٰ خلال حملته الأنتخابية، وتجاهلتها تماماً وسائل الإِعلام التي كانت تدعمه، ضد نتنياهو. ويبدو أَن الرأي العام في إِسرائيل يتجاهل كل الأَحداث =

رفض الاستمرار في تنفيذ الأتّفاق علىٰ مراحل سوف تؤدي في النهاية إِلىٰ الانسحاب الكامل إِلىٰ حدود سنة 1967 حسب التفسير المتّفق عليه لقرار مجلس الأَمن رقم 242 الصادر في 22 تشرين الثاني/ نوڤمبر سنة 1967. وبدلاً عن ذلك، كان يعتقد أنّه مع ائتلاف حاكم من مختلف أَحزاب اليمين والوسط سوف يستطيع التفاوض علىٰ آتّفاق نهائيّ مع الفِلَسطينيين يتضمَّن تأسيسَ دولة فِلَسطينية منزوعة السلاح وموافقتَهم علىٰ «إِنهاء للصراع» دون الحاجة للعودة إِلىٰ حدود 1967. وكان يأمل أَن يقلّل مُشكلات اللاجئين إِلىٰ واحدة تحت عنوان أعتراف مجرّد بالمسؤولية الأَخلاقية للتسبّب بها، والإِبقاء علىٰ جبل الهيكل تحت السيطرة اليهودية المنفردة، وتجنّب إِخلاء المجموعات الكبيرة من المستوطنات اليهودية القريبة من الخط الأَخضر. وأعتقد باراك أَنّه قادر علىٰ تجاهل حكومته وحتىٰ الكِنِيِستْ بالتوجّه مباشرة إِلىٰ الشعب عن طريق الاستفتاء ـ وهو تصرّف غير مسبوق في الموروث السياسي الإِسرائيلي ـ للتصديق علىٰ الأتّفاق الَّذي كان متأكّداً من قدرته علىٰ الوصول إِليه مع القيادة الفِلَسطينية.

في كل الأَحوال، كان نجاحه الأَول (وأَصبح بعد ذلك الوحيد) هو أنسحاب القوّات المسلَّحة الإِسرائيلية من جنوب لبنان، حيث كان «حزب الله» يشنّ حرب عصابات، و«حزب الله» هو جماعة تأسَّست ردّاً علىٰ الغزو الإِسرائيلي سنة 1982، ضد جيش الأحتلال الإِسرائيلي.

= ما عدا القديمة منها والمحاسبة معدومة تقريباً في الموروث السياسي الإِسرائيلي. وهذه حقيقة تتمثّل في أنتخاب وإِعادة أنتخاب أَريل شارون.

يبدو أنّه لم يكن لدىٰ باراك فكرة عن نوع الاتّفاق النهائي الّذي يمكن أَن يقبل به الفِلَسطينيون، وربما لم تكن لديه فكرة عن نوع الاتّفاق الّذي يريده هو سوىٰ أَن يتضمّن الحصول علىٰ الحدّ الأَقصىٰ من التنازل الفِلَسطيني بينما يدفع هو الحد الأَدنىٰ من الثمن السياسي والإِقليمي. كان باراك يفتقد أيضاً إلىٰ التجربة السياسية الفعلية والكادر السياسي الذكي، ولقد أَدار مكتب رئاسة الوزراء كما يدير الأَركان العامة العسكريّة. وعلاوة علىٰ ذلك، لم يكن واضحاً ما إِذا كانت القيادة الفِلَسطينية (أَو الإِسرائيلية) والشعب جاهزين سياسياً للقيام بالتنازلات التي تكفل «إِنهاء الصراع» بعد الشعور بالنشاط الأولي بعد اهتراء اتّفاق أوسلو.

16 ـ انهيار كامپ ديڤيد[8]

بين الحادي عشر والخامس والعشرين من تموز/يوليو سنة 2000، عقد الرئيس الأَمريكي بِل كلِنتون بالتعاون مع إِيهود باراك قمّة إِسرائيلية ـ فِلَسطينية من أَجل السّلام في كامپ ديڤيد، المكان المُثْقَل بالرمزية لأن اتّفاق السّلام المِصري الإِسرائيلي قد نُوقش هناك سنة 1979. وفشلت القمّة وكانت النتائج تراجيدية للطرفين. واعتبر الأَمريكيون والإِسرائيليون أَنّ الفِلَسطينيين عامّة وياسر عرفات شخصياً مسؤولون عن هذا الانهيار، بينما اعتبر الفِلَسطينيون أَنّ

(8) بالإِشارة إلىٰ محادثات كامپ ديڤيد هنا، قصدت سلسلة المفاوضات الكاملة بين الإِسرائيليين والفِلَسطينيين خلال تلك الفترة، بما فيها تلك التي جرت في أيار/مايو 2000 (في استوكهولم)، وفي شباط/فبراير 2001، في الولايات المتّحدة تحديداً ومصر (في طابا).

الفريقين الأَمريكي والإِسرائيلي هما المسؤولان، مع أَنّ كلا الجانبين من وجهة نظر استعادية يتحمّل جزءاً من المسؤولية في سوء الإِدارة علىٰ المستوىٰ التكتيكي. لقد أَصبح إِلقاء اللوم علىٰ طرف أَو آخر جزءاً من الصراع، وليست هذه غاية هذا الفصل. لكن هذه المسألة مهمّة في فهم الأَسباب والديناميكيَّة التي أَدَّت إِلىٰ ٱنهيار معسكر «السَّلام» الإِسرائيلي وتقسيمه وإِلىٰ عودة شارون السياسية غير المُتَوَقَّعَة.

كان لدىٰ ياسر عرفات منذ البداية، تحفظّات على القمّة. ولم يكن يثق بباراك لأَسباب وجيهة. لقد فشل باراك في تنفيذ المراحل الإِضافية للاتّفاقيات المؤقتة (حتىٰ تلك التي وافق عليها نتنياهو) ورفض تجميد المستوطنات، التي ٱزدادت، خلال فترته القصيرة، بنسبة 10 بالمئة؛ ولم يطلق سراح السجناء والموقوفين في المخيمات، وكما ذكرنا سابقاً، قدَّم عرضاً لسورية في محاولة لعزل الفِلَسطينيين. وبالإضافة إلى ذلك، لم يصدق عرفات أَنّ الرئيس الأَمريكي قادر علىٰ لعب دور الوسيط النزيه والشريف بين الإِسرائيليين والفِلَسطينيين. وكان مقتنعاً أَن القمّة الناجحة بحاجة إِلىٰ تحضير أَفضل وأن قمّة باراك وكلنتون غير ناضجة في ضوء العرض الإِسرائيلي غير الرسمي الَّذي قُدِّم في ٱجتماع استوكهولم في أيار/ مايو 2000. قد يكون إِحساس عرفات الأولي، وقد لا يكون، توقعاً شخصياً، ومهما كان، فإن نبرة كلِنتون المدّعية وعجرفة باراك المعروفة لم يساعدا علىٰ توفير جو مناسب من أَجل مفاوضات مثمِرة بين أَطراف متساوية. إِنّ ٱقتراحات باراك في نهاية المحادثات،

وعروض كلِنتون، لم تكن مرفوضة تماماً من الفريق الفِلَسطيني ومن الممكن ٱستخدامها كأساس لمفاوضات لاحقة، لكن يبدو أن عرفات رفضها بسبب الخلل الديناميكي الَّذي تطوّر قبل المحادثات وأثناءها[9]. وقد وصف شلومو بن عامي، كبير مفاوضي باراك، موقف باراك في البداية:

لقد أطلعني باراك على خريطة تتضمّن وادي نهر الأردنّ، وكانت نسخة مدعَّمة من خطة آلون. لقد كان فخوراً بأن خريطته سوف تترك لإسرائيل ثلث الأراضي. وإذا لم تخنّي الذاكرة، فلقد أعطىٰ الفِلَسطينيين 66 بالمئة فقط من الأرض. كان إيهود [باراك] مقتنعاً أن الخريطة منطقية جداً. لقد كان مدعياً ومتفائلاً وساذجاً. وكان يقول لي بحماسة، «انظر، هذه هي الدّولة [الفِلَسطينية]، لكل الأهداف والأغراض تبدو دولة».

ٱجتمعت عوامل كثيرة أخرىٰ ذُكرت، أدَّت إلىٰ هذا الفشل الذريع، أولها، أنَّه لم يكن لدىٰ أحد من المشاركين في المفاوضات

(9) يمكنكم رؤية الخريطة التي تشمل عروض إسرائيل في كامپ ديفيد مقارنة بالعرض الَّذي قُدِّم في محادثات طابا، علىٰ موقع اللوموند ديپلوماتيك الإلكتروني.
ومن الممتع ملاحظة التشابه المدهش في وصف الحركة الداخلية للمحادثات، حتىٰ بين هؤلاء الَّذين لم يتفقوا علىٰ تحديد المسؤول المطلق عن فشلهم. وأُشير هنا، بين آخرين، إلىٰ روبرت مالي مساعد كلنتون الخاص للشؤون العربية الإسرائيلية منذ سنة 1998 إلىٰ سنة 2001، الَّذي حاول وضع المسؤولية الرئيسية للفشل علىٰ الفريقين الأمريكي والإسرائيلي، ودينيس روس مبعوث كلنتون الخاص للشرق الأوسط، الَّذي دعم دعماً مباشراً نسخة كلنتون ـ وباراك، وشلومو بن عامي، أحد المفاوضين الإسرائيليين الرئيسيين، وإيهود باراك شخصياً.

رؤية واضحة ومحدَّدة لأَهدافه هو. كانت الغاية المباشرة للفِلَسطينيين، الَّذين يعرفون مدىٰ ضعفهم، التخفيفَ من أَضرارهم إِلىٰ الحد الأَدنىٰ. وهو ما قادهم إِلىٰ سلبية متعمّدة سبَّبت فشلهم في تقديم مقترحاتهم الخاصّة ورفضهم لكل الاقتراحات التي قدّمها الإِسرائيليون أَو الأَمريكيون المتّهمون بتنسيق عروضهم مع إِسرائيل، وهذا صحيح دون شك. ربما كان هذا تكتيكاً خلال المراحل الأولية، لأنه أَجبر الإِسرائيليين علىٰ تحسين عروضهم اللاحقة، لكن عندما أَصبح الرفض آلياً، فإنّه حتىٰ عندما قدَّم الإِسرائيليون عروضاً أَكثر واقعية، كان الأَمر كارثياً. علىٰ الأَقل، عندما تخلَّىٰ عرفات عن سلبيته المتعمّدة وقدَّم اقتراحاً غير رسمي لكلنتون. كما قال بن عامي:

أمس [17 تموز/ يوليو]، قدَّم عرفات اقتراحاً لكلِنتون يتعلّق بسيناريو الليلة الماضية[10]. إن «[عرفات] مستعد للتنازل عن 8 إلىٰ 10 بالمئة من الأَراضي. قال لكلِنتون: «سأترك مسألة مقايضة [الأَراضي] بين يديك، قرِّر أنت». وكان مستعداً للترتيبات الأَمنية بالطريقة التي يقرّرونها. لكنّه أَكّد علىٰ وجود القوة الدّولية. وسنجد حلاً لقضية اللاجئين أيضاً. كل شيء يتوقف الآن علىٰ مسألة القدس. كان عرفات يريد حلاً يستطيع التعايش معه هناك. . .» لكنه سحب

---

(10) في إِحدىٰ المراحل أَخطأ بن عامي ـ خلال لعبة التظاهر مع بعض أَعضاء الفريق الفِلَسطيني ـ عندما أورد أَن هناك تقدّماً في المفاوضات على الوضع في ما يسمىٰ الحوض المقدّس، الَّذي يشمل الأَماكن المقدّسة للأَديان الثلاثة في القدس.

هذا العرض بعد قليل من الوقت. وأرسل إلىٰ كلِنتون مذكرة يبلغه فيها بانسحابه.

وكردّ فعل علىٰ العناد الفِلَسطيني، تبنّىٰ باراك تكتيكاً قد يكون مناسباً أكثر في البازار وليس في المفاوضات. بدأ بتقديم عرض ثمين للفِلَسطينيين (قريب من خطة آلون) وألمح إلىٰ أنّه البداية فقط. لم يكن الشركاء في هذه المفاوضات، وربما بمن فيهم باراك شخصياً، يعرفون تماماً إلىٰ أين ستنتهي عمليّة المقايضة هذه. ولأن عليه تذكّر وجهة نظر ناخبيه، لم يكن أيٌّ من مقترحات باراك عروضاً حقيقية أو مكتوبة (كانت في المصطلحات الدپلوماسية مجرد بالونات اختبار)، ليستطيع الحفاظ علىٰ موقعه مع وزرائه الصقور والمتدينين. وعلاوة علىٰ ذلك، لم يرسل فريقه يوماً، حتىٰ المراحل الأخيرة من المفاوضات، في كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير، التقاريرَ المطلوبة عن التسويات المقترحة للقضايا الرئيسية التي لم يجدوا لها حلاً بعد. لقد تمّ التعامل مع كل قضية، مثل تبادل الأراضي، والحدود، والمستوطنات، واللاجئين، والمجال الجوي، وحقوق المياه، إلخ. بمفردها وبمفاوضين مختلفين، وهذا التكتيك لا يسمح بالمقايضة أو بالتعويض. كان كل فريق يتحدَّث ويفكِّر من خلال رموزه الأُسطورية والتاريخية الخاصّة. وأفضل مثال علىٰ ذلك كان الجدل الصاخب على بقايا هيكل الملك سليمان التوراتي وفيما إذا كانت موجودة أم غير موجودة تحت المعبد الثاني. أكَّد عرفات أنّه لا

يوجد شيء تحت الحرم الشريف، وإذا كان الهيكل الأَول موجوداً، فهو في نابلس. وأزعج هذا النقاش التاريخي المفاوضين اليهود المتدينين، واستنتجوا مباشرة أَن عرفات يرفض الروابط التاريخية للشعب اليهودي في القدس وفي كامل الأَراضي. وشعر بِل كلِنتون المسيحي الپروتستانتي أيضاً بالإِساءة؛ وقال لعرفات «ليس اليهود فقط، أنا أيضاً أَعتقد أَن بقايا الهيكل المقدَّس موجود تحته. وهذا ما أَخبرني به القس في الكنيسة الأَحد الماضي». في هذه اللحظة لفت أَحد مساعدي كلِنتون اليهود انتباه الرئيس وقال له أَن عليه أَن يوضح لعرفات أَن هذا هو رأيه الشخصي وليس موقفاً رسمياً أَمريكياً. وهكذا، أَصبحت السيطرة علىٰ ما يسمىٰ الحوض المقدَّس (المنطقة الواقعة خارج سور المدينة القديمة والتي تضم مدينة داود وأَضرحة الأَنبياء علىٰ الطريق إِلىٰ جبل الزيتون) قضية رئيسية يبدو من الواضح أَنها أَقل قابلية للتفاوض من حق العودة أَو إِخلاء المستوطنات.

وكانت الضربة القاضية لعمليَّة السَّلام، والتي ترتبط بقوة بالبُعد الميثولوجي للصراع، الزيارة الدراماتيكيَّة والمُعْلنة لأَرييل شارون إِلىٰ جبل الهيكل، القريب من المسجد الأَقصىٰ، ثالث الأَماكن المقدَّسة في الإِسلام. لقد فجَّرت هذه الزيارة ثورة جديدة من الاحتجاج الشعبي الفِلَسطيني العنيف ومن الردّ الإِسرائيلي الأَعنف. وتصاعد الصراع مباشرة إِلىٰ حرب شعبية. وعُقِدت المفاوضات المتبقية في ظل دائرة العنف الجديدة هذه، التي أُطلق عليها فيما بعد ذلك الاسم

المشحون عاطفياً ودينياً، «ٱنتفاضة الأَقصىٰ». كان الإِسرائيليون متأكدين أنّه قد تمّ التخطيط لهذا العنف مسبقاً من أَجل انتزاع مزيد من التنازلات، واعتبرته القيادة الفِلَسطينية تحذيراً شعبياً ضد أَي ٱتّفاق فيه أثر للاستسلام.

في ظل هذه الظروف، لم يكن للمحادثات الفِلَسطينية الإِسرائيلية فرصة للوصول إِلىٰ ٱتّفاق، وبخاصة وأن ٱتّفاقيات أوسلو قد تمّت وَفق مبدأ كيسنگر «الغموض البنّاء»، وهو مفهوم غير صالح أَساساً في مثل هذا النوع من الصراع. والفكرة من الغموض البنّاء هي أَن تجعل الأَطراف المتفاوضة تتفق علىٰ بعض المبادئ العامّة وتترك كل طرف يفسّرها وفق رغباته الخاصّة. قد تكون هذه فكرة رائعة للوصول إِلىٰ ٱتّفاقات بين الولايات المتّحدة والصين أَو ڤييتنام، فهي دول تفصلها عن بعضها آلاف الأَميال، لكن ليس لشعبين مختلفين إِثْنياً يعيش أَحدهما من الآخر في مثل هذا التقارب الكبير. ففي حالة كهذه، يمكن لأي حادث أَو خلاف صغير أَن يسبّب توتراً كبيراً وقد يتحوّل إِلىٰ حريق هائل لا يمكن السيطرة عليه.

وهكذا، كان الفهم الفِلَسطيني لاتّفاقيات أوسلو (المستوىٰ الأَساسي لاتّفاق الوضع النهائي) أَن التخلّي عن 78 بالمئة من الأَراضي الأصلية لفِلَسطين التاريخية والاعتراف بأن للدولة اليهودية الحقّ بالوجود في المنطقة تنازل بعيد المنال ومؤلم والتعويض عنه غير كاف. واعتبر قسم كبير من الشعب الفِلَسطيني أَن توقيع عرفات علىٰ هذا الاتّفاق خيانة وطنية. في الواقع كانت قيادة فتح البراگماتية قد

تصوّرت اتّفاقاً مماثِلاً للصيغة المصرية الإسرائيلية: السَّلام والاعتراف مقابل جميع الأَراضي المحتلَّة خلال حرب 1967. لقد اعتبر الفِلَسطينيون أن انتخاب نتنياهو سنة 1996 إشارة إلىٰ أن غالبية اليهود الإسرائيليين يرفضون جوهر ومبادئ أوسلو، دون الأخذ بعين الاعتبار أن الرفض الشعبي الإسرائيلي للاتّفاقيات والتأخير في تنفيذها كان بسبب العنف الّذي فجّره الفِلَسطينيون (وبخاصة الإسلاميين) المعارضون للاتّفاقيات.

لقد جدّد انتخاب باراك الآمال، لكنها سرعان ما عادت وتبخّرت. حتىٰ عندما سيطرت السُّلطة الوطنية علىٰ معظم سكان المدن الفِلَسطينية، ومخيمات اللاجئين، والقرىٰ، كانت معظم الطرق بينها تحت السيطرة الإسرائيلية. وبعد ست سنوات من أوسلو، ما زالت المخافر الإسرائيلية ونقاط التفتيش والمستوطنون المسلَّحون والإغلاق تقيّد حرية الفِلَسطينيين وتسبّب لهم الإذلال اليومي. لقد وفّرت لهم الحركة الإسلامية مفهوماً بديلاً واحتراماً للذات وأملاً. وكانت انتفاضة الأقصىٰ، وما زالت، ثورة ليس فقط ضد الاضطهاد والاحتلال الإسرائيلي بل ضد قيادتهم ونظامهم (السلطة) أيضاً التي اعْتُبِرَت فاسدة داخلياً وشديدة الخضوع لإسرائيل. إضافة إلىٰ أن مزيج القومية المتعصّبة والأُصولية الدِّينيّة له تأثير قوي وبخاصّة في أَوقات الأَزمات، وهذا يصح علىٰ الجانبين.

كانت الانتفاضة الأولىٰ شعبية خالصة وثورة مدنية أَمّا الثانية فلقد تطورت بسرعة إلىٰ ثورة مسلحة. وبعكس الانتفاضة الأولىٰ، لم يعد

هناك وجود عسكريّ إسرائيلي في المخيمات والبلدات الفِلَسطينية؛ لهذا توجّه العنف ضد المستوطنين علىٰ الطرقات وضد السكّان المدنيين داخل إسرائيل. وشاركت عناصر من القوّات الفِلَسطينية، فردياً أَو جماعياً، مستخدمة الأَسلحة النارية ضد الإِسرائيليين ومصعِّدة من درجة العنف، الَّذي تحوّل إلىٰ حرب إِثْنية بين الإِسرائيليين والسُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة مع مطلع سنة 2002. حاول الإِسرائيليون تفعيل قوّات الأَمن الوقائي الفِلَسطينية ولجان الأَمن العام ضد المهاجمين، ولكن دون فائدة، وحاولوا الانتقام أيضاً دون التنسيق مع القيادة الفِلَسطينية.

كانت أَكثر الأَسلحة رعباً هي (القنابل البشرية) التي استخدمها ما يُسمَّىٰ الجناح العسكريّ للحركتين الإِسلاميتين، حماس والجهاد الإِسلامي. وكانت هاتان الحركتان أول من استخدم (القنابل البشرية)، واستمدّت هذا التكتيك من الإِسلاميين المعارضين للحكم البريطاني في أندونيسيا. وبعد نجاحه تبنّته مجموعات أُخرىٰ منها بعض وحدات فتح.

في البداية، كانت التفجيرات ردّاً علىٰ التفاوت الكبير في القوىٰ بين الجيش الإِسرائيلي والمقاتلين الفِلَسطينيين. ولأنها قذائف بشرية موجَّهة بدقَّة، فقد سبَّبت إِصابات خطيرة بين الإِسرائيليين والمدنيين بخاصّة، وشلَّت الحياة اليومية شللاً شبه كامل، ودمَّرت المعنويات الإِسرائيلية. ونال المفجّرون، الذين يضحون بأرواحهم، وأُسرهم شرفاً عظيماً بين الفِلَسطينيين في سبيل القضية الوطنية. وقبل

المحادثات وأثناءها، واجه عرفات وقيادة السُّلطة الوطنية معضلة خطيرة في الرد إيديولوجياً وأخلاقياً علىٰ هاتين الحركتين وبخاصة علىٰ ظاهرة القنابل البشرية. إن فتح المعركة معهما يعني حرباً أهلية، لكن استمرار جهادهما أعطىٰ الإسرائيليين ورقة مهمة تلعب بها من أجل رفض تنفيذ الاتّفاقيات. وأصبح لدىٰ شارون بعد انتخابه رئيساً للوزراء، حجّة قوية يستخدمها في حثّ الولايات المتّحدة علىٰ وضع عرفات وكامل السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة في حربها ضد «الإرهاب العالَمي» بعد الحادي عشر من أيلول/سپتمبر. ولهذا، حاول عرفات إما احتضان الإسلاميين أو الوصول معهم إلىٰ اتّفاق لوقف الهجمات الإرهابية التي تسبِّب ضرراً لا يمكن إلغاؤه للحركة الوطنية. وقد فشل أخيراً لأن عدم قدرته علىٰ التعامل مع الإسرائيليين بالطريقة التي يريدها الفِلَسطينيون دمّرت هيبته وسلطته. بالإضافة إلىٰ أن رجاله (وبخاصّة ما يسمىٰ فرق الأقصىٰ)، بالتنافس مع فصائل أُخرىٰ، شنّوا هجمات بالقنابل البشرية. وهكذا، وجد عرفات نفسه في الفخ: فهو لا يستطيع إيقاف العنف لأنه كان ضعيفاً ومتردّداً، وقد جعلته الهجمات المستمرة أكثر ضعفاً لأنها عرقلت قدرته علىٰ إدارة مفاوضات مناسبة في كامپ ديڤيد وطابا.

وأخيراً، وجد الإسرائيليون طريقة ليس فقط للتعامل مع (القنابل البشرية)، بل لاستثمارها أيضاً من أجل أغراضهم الخاصّة، كما سيتم شرحه لاحقاً. لقد استُخدم الرعب الّذي تسبَّبت به القنابل البشرية لكسب شرعية محلية وعالمية للاستخدام غير المحدود للقوة

العسكريّة الإِسرائيلية وبعد ذلك لتعرية السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة وإِبطال اتّفاقيات أوسلو.

لم تكن القنابل البشرية بخاصة، وسلسلة العنف المتزايد عامة بأي شكل من الأَشكال، السببَ في فشل المفاوضات في كامپ ديڤيد وطابا، لكنّهم أَضافوا الكثير إِلىٰ الصعوبات التي كانت تواجه كلا من الطرفين[11]. وكانت النتيجة المباشرة لكارثة كامپ ديڤيد والتصعيد في الإِرهاب الفِلَسطيني، تبخّر القليل مما تبقَّىٰ من الدعم الشعبي اليهودي والعربي للإِصلاح والتسوية مع الطرف الآخر. ومهّدت موجة الإِحباط والغضب هذه الطريق لعودة شارون ولفهم انتصاره علىٰ أَنّه تفويض من أَجل «المهمة الوطنية» لإِبطال الاتّفاق مع الفِلَسطينيين، وتدمير السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة تدريجياً، وإِتمام عمليَّة التصفية ضد الفِلَسطينيين، واستعادة السيطرة علىٰ أَرض إِسرائيل بكاملها. لقد كان هذا نصراً غير مسبوق للمعسكر القومي المُعَيَّن ذاتياً في إِسرائيل وزاد من تشويش الوضع الراهن في المنطقة اليوم.

---

(11) في الواقع، لقد سبقت القنابل البشرية المحادثات وبدأت مباشرة تقريباً بعد التصريح العلني عن إِعلان المبادئ. منذ ذلك الوقت، وحسب تقرير المخابرات العسكريّة الإِسرائيلية المنشور في وسائل الإِعلام في نهاية 2002، أَنّه أرسل 206 من القنابل البشرية في هذه المهمات اليائسة في العقد الأَخير. وأُعيق بعضها. وخلال السنتين الأوليين من «انتفاضة الأقصىٰ»، أرسل الفِلَسطينيون 145 قنبلة بشرية، تمّ التعرّف إلىٰ 40 منهم كانت لهم علاقة مع فتح، و52 من رجال حماس، و35 من الجهاد؛ أمَّا الباقي فلم يُلحقوا بأي جماعة محدّدة.

الفصل الثالث

العودة

17 ـ التنوُّع في المجتمع الإِسرائيلي

إِن هيمنة الفلسفة السياسية لأَرييل شارون ـ أَو الموروث الاَجتماعي السياسي والواقع الَّذي سمح بإِعادة اَنتخابه دون معارضة ملحوظة في كانون الثاني/ يناير 2003، ودون تفسير أَو حساب للمصالح ـ لم تكن مصادفة. لقد دخلت إِيديولوجية شارون الخواء الَّذي خلَّفه تأسيس نخبة الأشكيناز السياسية. ولم تكن هذه النخبة متجانسة التكوين وكانت معتقداتها الجوهرية متناقِضة في عدّة نقاط مهمّة. هذه التناقضات، تحديداً، هي التي أَسهمت في النجاح غير المسبوق للمشروع الصهيوني، ومن المفيد دراسة النسخة الأَصلية للهوية القومية الإِسرائيلية من أَجل فهمها.

تتضمَّن هذه الهوية الجمعية توجُّهين أَساسيين يكمل أَحدهما الآخر ويتصارع معه وهما في الواقع، متبادلان كلياً: الأَول بدائي أو

هوية قبلية، وهو خليط من التوجّهات الدِّينيَّة والقومية؛ والثاني هوية مدنية ترتكز علىٰ مفاهيم الإِنسانية العالَمية والمدنية. وكانت الأَهمية النسبية والسِّمة البارِزة لهذه الهوية، التي تشكِّل القواعد التي تحكم سلوك الدّولة الإِسرائيلية، بؤرةَ الصراع المستمر بين الأَجزاء المختلفة للدولة والمجتمع.

تعتمد المشاركة في نظام الحكم البدائي علىٰ الهوية الإِثْنية والدِّينية. وتشمل حدود المجتمع الشرعي كل اليهود (بمن فيهم يهود الشتات)، لكنها تستثني غير اليهود من أَن يكونوا أَعضاء متساوين في الدّولة. وتستند الهيئة التشريعية المثالية علىٰ النص التقليدي للدين اليهودي، الهالاكا (القسم التشريعي من التلمود وهو تفسير لقضايا النص المقدَّس عندهم)؛ علىٰ الأَقل كرغبة طوباوية (مثالية ولكن غير عملية)، والهدف هو تحويل نظام الحكم الحالي إِلىٰ نظام يحكمه القانون اليهودي، حيث العالَم نظام مزدوج مكوَّن من «نحن» (اليهود) مقابل «هم» (باقي العالَم)، والأَخير هو كينونة متجانسة وعدائية. والمِيزة الأَساسية لهذا النظام الكوني هو الصراع الأبدي الحتمي من أَجل البقاء. ولا توجد فروق جوهرية بين كل الأَعداء التاريخيين للشعب اليهودي، مثل الآشوريين والرومان والمسيحيين والنازيين والعرب. فكلّهم محفورون في الذاكرة الجمعية اليهودية علىٰ أَن لديهم نوايا الإِبادة الجماعية. ومع أَن الحرب مؤجَّلة لكنها مع ذلك حتمية. من هذه الزاوية، فإِن بقاء اليهود مهدَّد أَيضاً بالاندفاع الفطري

بٱتجاه تدمير الذات الَّذي يقودهم إِلىٰ التخلّي عن الموروث اليهودي والاتجاه نحو حضارات غير يهودية تؤمن بمذهب المتعة مثل الحضارة الهلينية والمسيحية وحركة «التنوير» وحركة «الحداثة». وبالتالي فإِن الشعب اليهودي مهدَّد بالانحلال الأَخلاقي والتلاشي الحضاري. لهذا تتطلّب معركة البقاء ٱستخدام السيف ضد الأعداء في الخارج وضد الخونة في الداخل. ويعتبر أَي ٱنتقاد لليهود أَو للدولة اليهودية أَو لسياستها معاداة للسامية، بينما يشجب اليهود الخونة بقوّة. وكلما ٱزدادت الأَجزاء البدائية للمجتمع، وبخاصة تلك الجماعات المتطرِّفة الموجودة في نهاية السلسلة المتصلة، التي تفضِّل تفضيلاً مطلقاً اليهودية علىٰ الديمقراطية بٱعتبارها الضوء مرشداً لنظام الحكم، ٱزداد حديث النخبة المتكلّفة عن «الديمقراطية اليهودية»، وهي نظام يكون فيه اليهود فقط مؤهلين للحصول علىٰ الحقوق المدنية الوطنية أَو الجمعية، بينما تتمتّع الأَقليات غير اليهودية في أَحسن الحالات بالحقوق الفردية، في حال الضرورة.

إِن الديمقراطية صراحة ليست قيمة يهودية وإِذا ٱستُخْدِمَت من أَجل العلاقات العامّة الداخلية أَو الخارجية، فهي تعني في الواقع ديمقراطية العِرْق السيِّد[1].

---

(1) يجب علىٰ الدّولة في الموروث السياسي الحالي، أن تدعي أَنّها ديمقراطية، لأن الدّولة غير الديمقراطية تعرّض نفسها للهجوم من دولة أُخرىٰ منافِسة تسعىٰ لجعلها ديمقراطية، وهذا ما حدث لأفغانستان والعراق. في هذا السياق من الضروري ملاحظة أَنّه في 24 حزيران/ يونيو 2002، أَعلن الرئيس جورج دبليو بوش أَنّ تأسيس دولة =

أما القسم الثاني من الهوية الجمعية الإسرائيلية، الهوية المدنية، فهي بالأساس صورة طبق الأصل للهوية الأولىٰ. حيث ترتكز العضوية داخل الحدود الاجتماعية السياسية للدولة علىٰ مفهوم المواطنة. إنّ الواجبات العامّة هنا (دفع الضرائب، والخدمة العسكريّة، وإطاعة القانون) في حالة توازن مع الخدمات العامّة (الإنعاش الاجتماعي، والضمان الاجتماعي، والقانون والنظام، والحريات المدنية، والتحرُّر). ولقد تمّ تبنّي القوانين وفق المبادئ الدنيوية العالَمية من برلمان منتخَب انتخاباً ديمقراطياً، ويتبع قواعد التنوير الغربية كما صاغتها الثورات الفرنسية والأمريكية. والمجتمع مفهوم علىٰ أساس الكينونة المتعددة، ومقسَّم شرعياً بين الثقافات الفرعية التي يمكن أن تتصرّف داخل المجال الاجتماعي المشترك، المسمّىٰ أحياناً المجتمع المدني. إن الصراع المعلن والصراع الخفي هما جزء متمّم للنظام الاجتماعي، لكنهما يخضعان لسيطرة وإدارة وحل عن طريق الآلية السياسية الاجتماعية مثل المحاكم وبيروقراطية الدّولة وممثلي المجتمع المدني (مثل المنظّمات غير الحكومية والأحزاب السياسية ووسائل الإعلام). وترتكز العلاقات الدّولية علىٰ شبكة من المصالح المتعارضة، والدّولة كالممثِّل علىٰ المسرح العالَمي تلعب دورها بانسجام مع مصالحها المتغيرة، وتناور بين

= فِلَسطينية في المستقبل مشروط بانتهاء الإرهاب وبتغيير القيادة الفِلَسطينية الحالية (بانتخابات حرّة)، وبجعل السُلطة الوطنية الفِلَسطينيّة ديمقراطية.

الحلفاء والمنافسين والأعداء. ويمكن تجنّب الحرب عن طريق المزج الذكي بين القوّة العسكريّة (الرادِعة) والدپلوماسية. في الواقع، لقد فصل التوجّه المدني الدّولة الإسرائيلية نفسياً وتصوُّرياً عن محيطها الجغرافي والحضاري وأدّىٰ إلىٰ أن يعتبرها الآخرون في الشّرق الأوسط نوعاً من المصادفة التاريخية[2]. إن السِّمة القبلية للهوية الإسرائيلية وضعت إسرائيل في الشّرق الأوسط وكأنها في صراع أبدي ـ ثقافيًا وسياسياً وعسكريّاً ـ مع محيطها.

ومع أن الطبقات الحاكِمة الأصلية لمجتمع المستوطنين المهاجرين امتلك هذين القسمين، القبلي والعالَمي، من الهوية الجمعية الإسرائيلية، فلقد عرفوا كيف يوازنون بينهما بنجاح وكيف يشكِّلون سياسات الحكومة لتتناسب مع مبادئ المجموعتين، علىٰ الأقل فيما يتعلّق بالوهم اليهودي للمجتمع. لقد جلبت أمواج الهجرة الكبيرة تغيرات ديموگرافية واسعة التأثير تبعتها تغيّرات سياسية وثقافية. وخلال العقود الثلاثة الأُولىٰ من الوجود الإسرائيلي، استطاعت النخبة[3] السياسية من الأشكيناز (اليهود الغربيّين) ـ ذكرنا عدداً منهم في الفصل الأول من الكتاب ـ الحفاظ علىٰ النظام القديم

---

(2) منذ بداية الخمسينيات، كان حلم بن گوريون وكثيرين غيره قبول إسرائيل عضواً كاملاً في الاتحاد الأوروبي الناشئ. لأنّ معظم الأحداث الإسرائيلية العالَمية والثقافية والرياضية ظهرت في أوروپا.

(3) إنهم أقرب إلىٰ سكان أمريكا الشمالية اجتماعياً، إن لم يكن ثقافياً، وهم الطبقة الاجتماعية العليا من الپروتستانت البيض.

عن طريق إخضاع المهاجرين الجُدد، وبخاصّة الَّذين قدموا من الدّول الإسلامية، ثقافياً وسياسياً[4]. وعندما بدأت هذه الطبقة المسيطِرة انحدارها المطّرد، برز تعريف أكثر قبلية وإثْنية للهوية الجمعية. لم يكن لدىٰ هذه الأقليات بعد قوة سياسية أو مهارة كافية لتشكيل منظّماتها المهيمنة الخاصة ولهذا ٱلْتَفَتت نحو المعارضة الشوفينية اليمينية العريقة، لحزب الهيروت (الَّذي أصبح فيما بعد الليكود) بزعامة مناحيم بيگن للتعبير عن كرههم لمضطهديهم «الاشتراكيين» والثقافة العلمانية «غير اليهودية» التي أُجبروا علىٰ اتباعها. ولهذا، لم تكن ٱنتخابات 1977 نتيجة للاستياء الشعبي فقط بعد حرب 1973، بل كانت أيضاً نتيجة تجاوب ائتلاف المجموعات اليهودية الفقيرة مع الشعارات الشوفينية الشعبية مثل «العمل الجيد من أجل الشعب» والالتفاف حول الشخصية الأبوية لمناحيم بيگن. وعزّزت عمليتان سياسيتان إضافيتان تشكيل إئتلاف مستقر ونامٍ من مختلف المجموعات التي تشعر بالمرارة، لا يملكون، كلهم، سبباً وجيهاً للشعور بالاضطهاد. وإحدىٰ هاتين العمليتين كانت تأسيس ونمو حركة شاس، الحركة الاجتماعية السياسية للجيل الثاني من اليهود

(4) استوطن كثير من المهاجرين الجُدد في المواقع المحيطة بالجبهة بما فيها الـ450 قرية عربية وما حولها والتي أُخليت سنة 1948. وأُعيد تأهيلهم أيضاً، وهي عمليّة تعني أن كثيراً من الناس الذين كانوا تجاراً من الطبقة الوسطىٰ أو حِرفيين في بلدهم الأصلي أُجبروا الآن علىٰ أن يصبحوا فلاحين. واعتُبِرت ثقافتهم بدائية وتمّ تعريفهم بيهود الدرجة الثانية. وأُجبِروا علىٰ أن يصبحوا علمانيين بالقوة.

الشرقيين ذوي التوجُّه الديني. وتمسَّكت قيادة حركة شاس وتحديداً مؤسّسها الأب رابي أوفاديا يوسف، بموقف معتدل نسبياً تجاه الصراع اليهودي العربي. ومع ذلك، دفعها الناخبون بشكل متزايد بٱتجاه موقف أَكثر تشدُّداً وهي الآن جزء متمِّم لليمين السياسي.

كانت المجموعة الثانية من المهاجرين صورة طبق الأَصل لليهود الَّذين قدموا من الدّول الإِسلامية، وهم المهاجرون الناطقون بالروسية الَّذين يتجاوز عددهم الحالي المليون شخص. في البداية، كانوا الأَمل السياسي لنخبة الأشكيناز. وكان أَكثرهم حرفيين من الطبقة الوسطىٰ مع أَشكال تشبه أَشكال النخبة الحاكِمة. لكنهم فضّلوا الاندماج داخل الطبقة الوسطىٰ والاحتفاظ بهويتهم الثقافية المتميزة ـ وهذا ما سمح لهم به عددهم الكبير، مع أَن معظمهم كان علمانياً وغير إِكليركي (ضد الكنيسة) ويحملون توجُّهاً قومياً قوياً جلبوه معهم من بلدهم الأَصلي[5]. لقد كانوا أَقليّة مُضْطَهَدَة في الأَراضي السوڤييتية. والآن وبوصفهم جزءاً من الأَكثرية في وطنهم الجديد، أَصبح تفسيرهم للوطنية هو ٱضطهاد وظلم الأَقليات. ولأَنهم أتوا من

(5) إنّ حوالي 30 بالمئة منهم ليسوا يهوداً حسب المعايير الصارمة للهالاكا («يعتبر الشخص يهودياً إِذا وُلد من أُم يهودية، لكن ليس من أب يهودي، أو حوَّل ديانته. والتحويل يتم بالتوافق مع المفهوم الأرثوذكسي للهالاكا»). وأَكثر من ذلك كان حوالي 10 إِلىٰ 15 بالمئة من هؤلاء المهاجرين الجدد قد أُعلنوا مسيحيين. إِنهم يشكّلون فئة جديدة في المجتمع الإِسرائيلي ويعتبرون يهوداً (لا مجرد إِسرائيليين) بالقومية ومسيحيين بالدِّين. ولقد ناقش العالِم السياسي إِيان لوستيك مسألة أَن المشكلة الديموگرافية (التي تمّ شرحها في الفصل الثاني) هي تحوّل إِسرائيل من دولة يهودية إِلىٰ دولة غير عربية.

بلاد كبيرة جغرافياً فلقد شكَّلت لهم أَرض إِسرائيل الصغيرة جداً عائقاً رئيسياً ولم يستطيعوا أَن يفهموا كيف يمكن لأمة سليمة التخلّي عن أَي جزء من أَراضيها. لقد اعتبر الروس استعداد إِسرائيل لمنح الأَراضي للفِلَسطينيين علامة ضعف، وحتىٰ خيانة، وكان سلوكهم السياسي ينوي تخليص الأُمَّة من ضعفها ومرضها.

وتوالىٰ ظهور عدد من التغيّرات الاْجتماعية السياسية خلال العقدين الأَخيرين تجلَّت في اْزدياد النشاط السياسي لجماعات من اليهود الأرثوذكس المعادين للصهيونية الذين انضمّوا إِلىٰ كتلة اليمين البرلمانية. وساعد علىٰ ذلك نشاط الحرس الجديد للصهيونية المتدينة الَّذي كان له دور مركزي في الحياة السياسية الإِسرائيلية في السبعينيات، من خلال دورهم كطليعة لحركة الاستيطان، وبخاصة في الضفَّة الغربية، التي اعتبرت قلب المملكة التوراتية القديمة. وساهمت نشاطات الصهيونية المتدينة في تخفيف الحدود بين الدِّين والقومية، مما سهَّل مشاركة الأَحزاب المناهِضة للصهيونية في الحياة السياسية.

إِن الروابط بين الأُصول الاْجتماعية وعضوية الكتلة السياسية اليمينيَّة هي أَحكام عامّة أَساسية، لكنها صحيحة إِحصائياً، وبخاصة في فترة الأَزمات والتناقضات السياسية، مثل الَّذي حصل بعد فشل مفاوضات كامب ديڤيد. وفي كل الأَحوال، صوَّت كثير من اليهود المنحدرين من أُصول روسية أَو من الدّول الإِسلامية لصالح الأَحزاب اليسارية، أَمّا الآخرون فكانوا غالباً ناخِبين يتنقّلون كثيراً بين الكتلتين اليمينية واليسارية.

كان ٱنسحاب المواطنين العرب الإسرائيليين من العمليَّة الٱنتخابية بعد حوادث تشرين الأول/أكتوبر 2000 السَّبب في الانحدار الحالي للكتلة البرلمانية اليسارية. حيث خرج معظم سكّان البلدات والقرىٰ، في ذلك الشهر، إلىٰ الشوارع بٱحتجاجات غاضبة وقطعوا الطرقات وقذفوا الحجارة ورددوا شعارات تشجب الدّولة وسياساتها. وحدثت اشتباكات في بعض المناطق المختلطة (الناصرة وعكّا وحتىٰ حيفا المدينة المشهورة بعلاقاتها الإثْنية المريحة) بين السكان اليهود والعرب. وردَّت الشرطة بعنف شديد كثيراً ما يُسْتَخْدَم من القوَّات المحتلَّة في الضفَّة الغربية وغزّة، بما في ذلك ٱستخدام الذخيرة الحيَّة. كان الرصاص، هذه المرة، موجهاً نحو مواطنين في الدّولة. حيث قتل ثلاثة عشر عربياً ويهودياً واحداً، وجُرح حوالي 700 شخص، واعتُقِل المئات غيرهم. وشعر المواطنون العرب أنهم يخسرون القوّة السياسية التي بنوها تدريجياً خلال العقدين السابقين، وشعروا أَيضاً بالخيانة من معظم الشركاء اليهود الَّذين حاولوا الوصول معهم إِلىٰ تسوية تاريخية بين اليهود والعرب بالعمل معاً من أَجل تأسيس دولة فِلَسطينية إِلىٰ جانب إِسرائيل.

كل هذه التغيّرات السياسية والديموگرافية هزَّت بندول القومية الإِسرائيلية ـ الَّذي كان في حركة دائمة بين أَقصىٰ طرفيها المدني والقبلي ـ إِلىٰ أَقصىٰ الطرف من مسارها القبلي. هذه هي خلفية التطوّرات السياسية والعسكريّة التي تمّ شرحها في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

18 ـ شارون الجديد

بعد انتخابات شارون الأولىٰ، التي صوّت فيها الناخبون مباشرة لرئيس الوزراء، توقّع بعض المحلّلين داخل إسرائيل وخارجها ولادة جديدة لأرييل شارون، نسخة إسرائيلية من ديكليرك de klerk أو من ديگول de Gaulle، الَّذي سيحرِّر إسرائيل من مستعمراتها وسيخلي الإسرائيليين[6].

لقد وُلد شارون في قلب حزب العمل البراگماتي وكان الرجل الَّذي أخرج المستوطنين اليهود من سيناء. ومن المؤكد في بعض المقاييس أن شارون سنة 2001 ـ 2003 ليس شارون سنة 1982. لقد أدرك أن عليه تحقيق دعم محلي وعالمي لسياساته وأنه من المستحيل

(6) في البداية، كان نظام الأنتخابات الإسرائيلي يشمل كل الدّولة ويتطلب من الناخبين أن يدلوا بأصواتهم لقائمة من السياسيين أو لحزب. ويدعىٰ رئيس الحزب الَّذي يفوز بأكثر المقاعد في الكِنِيستْ من الرئيس لتشكيل ائتلاف الحكومة، وهذه خطوة ضرورية حيث لم ينجح حزب واحد في تاريخ البلد كلّه في الحصول علىٰ أغلبية مطلقة من مقاعد الكِنِيستْ الـ120. ويبدو أن هذا النظام قد شجّع تقسيم الكِنِيستْ إلىٰ عدة أحزاب صغيرة وزاد من قدرة هذه الأحزاب علىٰ أنتزاع التنازلات. ولتجنّب هذا، أجبرت حركة گراس روتس (القاعدة) البرلمان في نهاية التسعينيات علىٰ تبنّي نظام مزدوج للأنتخابات، الأول أنتخابات مباشرة لمنصب رئيس الوزراء، وأنتخاب آخر للأحزاب السياسية المختلفة. وقد جاء نتنياهو وشارون، في الأنتخابات السابقة، إلىٰ السلطة عن طريق نظام الأنتخابات الشخصية. أضعف هذا النظام الجديد الأحزاب الرئيسية أكثر، وسمح للناخبين بالإدلاء بأصواتهم للأحزاب الصغيرة التي تمثّل مصالحها المحدّدة ثم سمح لهم من أجل الرئاسة بالتعبير عن خيارهم العام للكتلة اليمينية أو اليسارية. لهذه الأسباب، أُعيد ترسيخ النظام القديم وكان أنتخاب شارون للمرة الثانية نتيجة لكونه رئيس الليكود، الحزب الَّذي فاز بالعدد الأكبر من المقاعد في الأنتخابات العامة.

الوصول إِلىٰ الأَهداف البعيدة بالقوة المجرَّدة فقط. أما اليوم، فيبدو خطاب شارون معتدلاً نسبياً ومُلْتَبِساً، بخلاف أَفعاله علىٰ الأَرض. لقد أَعلن عدّة مرّات أَن الوصول إِلىٰ سلام ممكن وإنما بعد أَن يخفض الفِلَسطينيون مستوىٰ طموحاتهم وهذا يتطلّب أيضاً تنازلات من إِسرائيل. وقال أنّه يجب تأسيس دولة فِلَسطينية تتمتع بنوع من الحكم الذاتي خلال حوالي خمس سنوات، ورفض أَن يلغي هذا التصريح، حتىٰ تحت ضغط السياسيين من اليمين المتطرّف، ومنهم بنيامين نتنياهو، الَّذي تحدَّاه في الأنتخابات الرئاسية قبل الأنتخابات العامة سنة 2003. وأَقسم أَنّه لن ينتزع أَيَّ مستوطنة يهودية تحت أَي ظرف. ولم يكشف شارون يوماً عن أَي تفصيل صغير لأي خطة، وبرغم ذلك فهو معروف أَنّه رجل تكتيكي جريء وشديد الحنكة. ولم تظهر إِشارة توحي أنّه قد غيّر شيئاً من مفاهيمه الأَساسية المتعلّقة بالصراع الإِسرائيلي ـ الفِلَسطيني.

وأَوضح شارون، في مقابلة صريحة نُشرت السنة الماضية [2002] في مجلة هاآرتز، أَنّ مهمته التاريخية هي إِتمام العمل الَّذي لم يُنجز في حرب 1948:

إِنّ حرب الاستقلال لم تنتهِ، وما سنة 1948 إِلاَّ فصلاً واحداً منها فقط. إِذا سألتموني هل تستطيع دولة إِسرائيل الدفاع عن نفسها اليوم، سوف أَقول نعم، بالتأكيد. وإِذا سألتموني هل تواجه دولة إِسرائيل خطر الحرب، فسوف أَقول لا. لكن هل نعيش نحن هنا بأَمان؟ لا. لهذا يستحيل القول إِنّا أتممنا العمل وإِنّا نستطيع الاعتماد علىٰ أَمجادنا.

لم يسأله الصحفي ماذا يعني بالتحديد بكتابة «فصل آخر» في حرب الاستقلال. لقد ترك في هذه الوثيقة الفريدة، نواياه مفتوحة علىٰ عدة تفسيرات مُحْتَمَلَة، لكنه لم يترك مجالاً للشكّ في إدراكه الشخصي لدوره التاريخي.

ربما كانت أذكىٰ حركاته السياسية قد حدثت مباشرة بعد ٱنتخابه الأوّل للرئاسة، عندما قدَّم لحزب العمل فرصة الانضمام لما يُسمّىٰ حكومة الوحدة الوطنية، برغم أنَّه لا يحتاج لذلك لتشكيل ائتلاف وكان قادراً علىٰ تشكيل حكومة يمين صافية ومستقرّة. وفي الواقع، كانت هذه الحركة محسوبة حساباً جيداً جداً وموجّهة مباشرة إلىٰ شمعون پيريز وبنيامين بن أليعازر. كان بن أليعازر (واسمه فؤاد) الَّذي هاجر طفلاً من العراق إلىٰ إسرائيل سنة 1950، أول رئيس غير أشكينازي لحزب العمل ورمزاً لجهود الأَحزاب في التكيُّف مع الوقائع الاَجتماعية المتغيّرة. وقد أمضىٰ بن أليعازر معظم شبابه (حوالي ثلاثين سنة) في الجيش، وكان تحت قيادة شارون في وقت ما. وكان مشهوراً برغبته بالتعلُّم من رؤسائه (حتىٰ خلال الحرب اللبنانية)، وكان يُعتبر صقراً، وشغل بعض المناصب الخارجية في حكومة باراك. وكانت دعوة شارون له لمنصب وزير الدفاع عرضاً مغرياً، فقد كان يأمل بتقوية مظهره السياسي الضعيف. أَمَّا پيريز فله حكاية أُخرىٰ. إنَّه سياسي كبير، لكنه برغم الاحترام العالَمي له، اعتُبر في إسرائيل خاسراً أبدياً (خسر رئاسة الحزب لصالح بن أليعازر في المرة الأَخيرة) إنَّه سياسي ضعيف الشخصية وساخر. يستطيع

پيريز أَن يكيِّف موقفه وفق أيٍّ من الظروف السياسية، ويصبح بالتناوب مع الصقور أَو الحمائم، مؤيداً للدولة الفِلَسطينية أَو معارِضاً لها. وكما هو متوقّع، وافق كل من بن أليعازر وپيريز علىٰ عروض شارون وبرّرا قرارهما بالمشاركة في وزارته بضرورة كبح شارون وموازنة اليمين المتطرِّف، ومن أَجل تأكيد ٱستمرارية عمليَّة أوسلو[7].

وبرغم المعارضة القوية لبعض الشخصيات البارزة في حزب العمل، أجبر بن أليعازر وپيريز الحزب المهزوم علىٰ المشاركة في حكومة الوحدة الوطنية[8]. وسرعان ما اتّضح أنّه حتّىٰ لو أَراد وزراء حزب العمل التأثير علىٰ وزارة شارون أَو معارضته من الداخل، وهذا أَمر مشكوك فيه، فلن يجدوا فرصة لذلك. وأَخيراً، ٱنهارت حكومة الوحدة الوطنية في 30 تشرين الأول/ أكتوبر 2002، عندما صوّت حزب العمل ضد الميزانية بحجّة أنّها خصّصت كمية كبيرة من المبالغ للأَراضي المحتلَّة علىٰ حساب الخدمات الاُجتماعية والتنمية في

(7) وقع بنيامين نتنياهو في الفخ نفسه عندما قبل اقتراح شارون بالمشاركة في وزارته وزيراً للخارجية بعد خروج حزب العمل من حكومة الوحدة الوطنية. وربما كان السبب الَّذي جعل نتنياهو يقبل العرض هو اعتقاده بأنه، من موقع وزاري، سيكون قادراً علىٰ مهاجمة شارون بسبب سياسته الشديدة الليونة تجاه الفِلَسطينيين، لكن هجومه فقد المصداقية باعتباره عضواً في مجلس الوزراء.

(8) كان بين المعارضين الرئيسيين من الحمائم يوسي بيلين، وإبراهام بورگ وحاييم رامون، الَّذين انتقدوا بن أليعازر لبيعه إيديولوجية الحزب من أجل الارتقاء بعمله السياسي، وهو تخمين تحقّق تماماً خلال ٱنتخابات 2003. أمّا السياسي الثاني من صقور العمل الَّذي شارك في حكومة شارون فكان الحاكم «المدني» السابق للضفة الغربية، إيفرايم سنيه. ونجح شارون أَيضاً في تجنيد السيدة داليا رابين فيلوسوف، ابنة إسحاق رابين، نائباً لوزير الدفاع.

البلدات الإِسرائيلية. لقد تمّ اتخاذ هذه الخطوة بعد أَن أظهرت عدة تقارير وطنية أَنّ الاستمرار في هذا الائتلاف سيؤدي إِلىٰ اختفاء حزب العمل من الخريطة السياسية الإِسرائيلية. لكن يبدو أَن الوقت كان متأخراً جداً للحزب والبلد، كما أَثبتت نتائج ٱنتخابات كانون الثاني/ يناير سنة 2003[9].

إِن المكاسب التي حقّقها شارون من مشاركة حزب العمل في حكومته الأُولىٰ كانت واضحة: لقد نجح في سحق المعارضة السياسية الداخلية عن طريق تشكيل أوسع حكومة في تاريخ إِسرائيل وٱكتسب ثِقة محليةً غير مسبوقة[10]. وأصبح الرجل الّذي اعتبره الكثيرون مجرم حرب بكل المعايير، والّذي كان السياسي الإِسرائيلي الأردأ سُمعةً خلال عشرين سنة، رئيس البلاد الأَكثر شعبية واحتراماً.

صحيح أَنّ معظم ناخبي شارون ـ الشبان والمهاجرين الجُدد ـ لم يسمعوا بأَفعاله أَبداً وهم يعتبرون هزيمة 1982 مجرد تاريخ قديم، لكن، حتىٰ الّذين عرفوا لم يعتبروا ذلك خطيئة. بل اعتبروا شارون

(9) لقد فضّل أَمرام ميتزنا، رئيس حزب العمل المهزوم، محاولة إِعادة بناء مصداقية حزبه وجمهور ناخبيه من داخل المعارضة. واستبدل شارون بالعمل حزب «الوسط» (وهو في الواقع شوفيني علماني)، شينوي، الّذي أَبلىٰ بلاءً حَسَناً في الٱنتخابات، معتمداً علىٰ جمهور الناخبين الأناني من الطبقة الوسطىٰ، وبرئاسة الصحفي في النسخة الإِسرائيلية من «لو پان» يوسف (تومي) لاپيد.

(10) كان الحزبان اليهوديان الوحيدان متوسطا الحجم اللذان بقيا خارج الائتلاف هما ميريتز اليميني وشينوي الوسط. وترك بعض المتطرفين اليمينيين الوزارة لاحقاً احتجاجاً على سياسة شارون الليّنة تجاه الفِلَسطينيين لكنهم استمروا في دعم الحكومة من الخارج ضد اليسار.

بطلاً ومخلِّصاً استطاع منع مصر من إبادة الدّولة، واعتُبِر «ملك إسرائيل». ومن أعراض المناخ السياسي في تلك الفترة أَن وسائل الإعلام لم تنشر السيرة الذاتية للمرشح قبل أنتخابات 2001، ولم تنشر أبداً سيرة شارون الذاتية الأمينة تماماً باللغة العبرية أبداً، أمَّا السيرة التي كتبها يوزي بينزيمان فكانت متملِّقة نسبياً وركَّزت تركيزاً رئيسياً علىٰ مواصفات شارون الشخصية.

هكذا، كان ميريتز الحزب الصهيوني الوحيد المعارِض، الَّذي يترأسه يوسي ساريد بقبضة من حديد. وعرض ساريد الخطاب والأَوضاع التقليدية لمعسكر السَّلام، لكنه افتقد الشجاعة التي يحتاجها ليصبح قائداً معارضاً حازِماً. كان ساريد، عكس المؤسَّسة الأصلية وزعيمة الحزب، المحامية الناشطة في مجال «الحقوق المدنية» شولاميت آلوني، سياسياً حذِراً، مهتماً جداً بالبقاء داخل الإجماع الصهيوني (الَّذي رسم حدوده المُتَخَيَّلَة ساريد نفسه)، وهو ما قاد الحزب إلىٰ هزيمة كبرىٰ في أنتخابات 2003 وإلىٰ تنازل ساريد عن موقعه كرئيس للحزب. وحدَّ من تأثير الحزب وبخاصّة في الوقت الَّذي كان يمكن أَن يكون فيه بديلاً حقيقياً لكل من الليكود والعمل. وبرغم توجّه العمل نحو المعارضة، إلاَّ أَنَّه لم يعتبر حتىٰ الآن بديلاً إيديولوجياً لليكود.

إِن الَّذي منع ميريتز من أَن يصبح حزباً معارضاً حقيقياً، مع إمكانية تغيير أُسلوب التدمير الذاتي للدولة الإسرائيلية، كان عدم استعداده للمجازفة السياسية ما عدا الخطوات الضرورية لإِنهاء مأزق

المفهوم الحالي. وعكس ما ادّعاه الممثلون الآخرون لميريتز، مثل نعومي كازان أو ممثلتهم السابقة في الدّولة شولاميت آلوني، ابتعد ساريد عن قضيتين رئيسيتين: جرائم الحرب والمعارضين ذوي الضمير الحي. لقد اعتبر ساريد وسياسيون آخرون ومن يُسَمّون القادة الليبراليون للحزب، مثل أمنون روبنشتاين، معارضة جرائم الحرب ودعم المعارضين ذوي الضمير الحي نوعاً من البقاء خارج الإجماع الصهيوني وبالتالي خارج نطاق الجدل المسموح.

19 ـ المحاولة الثالثة للتصفية

برغم عدم معرفة أحد بنوايا شارون، كانت تصرّفاته ـ وأحياناً فشله في التصرّف ـ مباشرة ولا تترك مجالاً كبيراً للتأويل. ففي الليلة الأولىٰ لعيد الفصح اليهودي في 27 آذار/ مارس 2002، أدّىٰ هجوم فدائي إلىٰ مقتل تسعة وعشرين شخصاً وجرح 150 آخرين كانوا يشاركون في (السيدر، وجبة عيد الفصح) في فندق صغير في بلدة ناتانيا الساحلية. وبعد يومين، استدعت إسرائيل عدداً من وحداتها الاحتياطية وأعلنت بداية عمليّة الدرع الدفاعي. كان قد تمّ التخطيط لهذه العمليّة قبل ذلك بكثير، لكن الهجوم الّذي أثار الرأي العام المحلي والعالَمي، قدَّم الحجة المثالية لبدء عملية التصفية ضد الشعب الفِلَسطيني.

إن محاولات تصفية الفِلَسطينيين ليست جديدة ولقد عادت للظهور مراراً لكن عمليّة الدرع الدفاعي كانت نسخة متطورة عن كل

ما سبق. كان الهدف الرسمي للعمليَّة «إبادة شبكة الإرهاب الفِلَسطينية»[11]. وتدفقت أَمواج من وحدات الدبابات والمشاة مدعومة بطائرات الهيلوكوپتر الأپاتشي، إلىٰ داخل أَراضي الضفَّة الغربية، الواقعة تحت سيطرة السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة، ثم إلىٰ أَراضي قطاع غزَّة والمدن ومخيمات اللاجئين وحتىٰ القرى (تاركة فقط الخليل وأريحا).

حاولت القوَّات الإِسرائيلية نزع السلاح من كل عناصر الميليشيا الرسمية وغير الرسمية وإِيجاد مخازن الأَسلحة والمتفجرات. وأَلقت القبض على الآلاف من المشتبه بهم وسجنتهم في معسكرات الإِحتجاز. أُلقي القبض علىٰ 8,500 فِلَسطيني واحتُجِزوا للاستجواب، بين 27 شباط/ فبراير و20 آذار/ مارس 2002، حسب منظمة العفو الدّولية. وأُطلق سراح معظمهم تدريجياً[12]. لكن القوَّات الإِسرائيلية لم تتوقف هنا، بل دمَّرت، تدميراً منهجيّاً، الأبنية والبُنىٰ التحتية ومحطات الإِذاعة والتلفزيون والوثائق والبيانات ـ أُخذ بعضها إِلىٰ

---

(11) إنّ هذه الأَهداف شبيهة بأَهداف عمليّة السّلام من أَجل الجليل.

(12) أُطلق سراح 2,000 مُعْتَقَل في الحجز الإِداري خلال شهري شباط/ فبراير وآذار/ مارس، لكن الذين احتجزوا بعد 29 آذار/ مارس سجنوا مدة أَطول تحت أَصعب الظروف. ووفقاً للأَوامر العسكريّة التي صدرت في 5 نيسان/ أبريل 2002، كان مسموحاً حجز أَي شخص حجزاً إِدارياً مدة ثمانية عشر يوماً دون أمر من المحكمة ودون الاتصال بالمحامي أو بأَفراد الأُسرة. وبعد هذه المدة يمكن طلب التمديد من المحكمة لمدة تسعة عشر يوماً. وفي نهاية أيار/ مايو، بقي أَقل من 1000 رجل في الحجز، وتحسّنت الظروف، وأَصبحت زيارات ممثلي الصليب الأَحمر مسموحة.

إِسرائيل غنائم حرب ـ وهكذا تمّ تدمير سنوات من العمل الفِلَسطيني الشاق خلال فترة ما قبل أوسلو. بالإِضافة إِلىٰ تدمير وسائل معالجة المياه ومحطات توليد الكهرباء والطرق أَو اقتلاعها كلياً بالجرافات. لم تدمّر هذه العمليّة المنظّمات السياسية وأَجهزتها فقط بل دمَّرت أيضاً المؤسَّسات المدنية مثل الجامعات والمدارس والكنائس والمساجد بذريعة أَن الإِرهابيين يختبئون داخلها.

قاومت الميليشيا الفِلَسطينية النظامية وغير النظامية بالحد الأَدنىٰ. وكان واضحاً أنّهم فهموا أَنّ التفوّق العسكريّ الإِسرائيلي كبير جداً وليس من الحكمة تقديم الحجّة لاستخدام كامل قدراته والتسبّب بمزيد من الدمار والخسائر البشرية. وكان المكان الوحيد بالإِضافة إِلىٰ نابلس الّذي نشب فيه القتال بين القوّات الفِلَسطينية غير النظامية والقوّات الإِسرائيلية هو مخيم جنين للاجئين.

قاوم الفِلَسطينيون في نابلس أيضاً، لكن لم تلقَ معركة نابلس كثيراً من الاهتمام حيث لم تقع فيها إِصابات إِسرائيلية. واستمر القتال من 2 حتىٰ 21 نيسان/ أبريل وكان معظمه في المدينة القديمة والقصبة وفي مخيمي بلاطة وعسكر للاجئين. وأَعلن الفِلَسطينيون عن ثمانين قتيلاً و300 جريح. تعتبر نابلس محور المقاومة الفِلَسطينية تقليدياً، ولا يُسمح للأجانب بالدخول إلى القصبة.

قبل دخول الإِسرائيليين إِلىٰ مخيم جنين، كانت مختلف الفصائل مثل فتح وحماس والجهاد، قد وحَّدت قيادة عامة لتحصين المخيم وزرعه بالأَلغام. فوقعت القوّات الإِسرائيلية التي حاولت اختراقه في

الفخ الَّذي نُصب لها وبقيت لمدة ثلاثة أَيام من 2 إِلىٰ 5 نيسان/ أپريل، عاجزة عن الاستيلاء علىٰ المخيم. ورداً علىٰ ذلك، أحضرت إِسرائيل الجرافات وتغلَّبت علىٰ المقاومة بالمرور من بيت إِلىٰ بيت من خلال الجدران التي دمّرتها. ونتج عن هذه الخطة دمار كامل لاثنين من المخيمات المجاورة جنوباً، هما مخيم دمج ومخيم الحواشين.

وفي التاسع من نيسان/ أپريل طالب الإِسرائيليون بوقف إِطلاق النار من أَجل إِخراج ثمانية جنود جرحىٰ وثلاث عشرة جثة من بناء اَنفجر أَثناء وجودهم داخله. وكانت نتيجة حرب الشوارع والعداء الَّذي يخشاه الجانبان الَّذي ظهر في مخيم جنين للاجئين فقط، وبدرجة محدودة في مركز مدينة نابلس، مقتل خمسين فِلَسطينياً وسقوط عدد غير معروف من الجرحىٰ ودمار كبير في الممتلكات أَدَّىٰ إِلىٰ بقاء 5,000 شخص بلا مأوىٰ. أَمَّا علىٰ الجانب الإِسرائيلي، فقد قُتل ثلاثة وعشرون جندياً وجُرِح أَكثر من مئة في معركة جنين.

ولأَن الإِسرائيليين أَغلقوا كل المداخل إِلىٰ المنطقة، حتىٰ في وجه وسائل الإِعلام وفِرق الإِنقاذ، فقد انتشرت شائعات بأن مجزرة كانت تُرتَكب في مخيم جنين وأن كثيراً من جثث الفِلَسطينيين كانت تُدفن في مقابر جماعية شمالي وادي الأردنّ، وثبت فيما بعد أَن لا أَساس لهذه الشائعات. ومع ذلك اَعترفت إِسرائيل أَنَّه قد تمّ استخدام القوّة المفرطة، في هذه المعركة، تجاوزت المعدّل العالَمي، بما في ذلك اَستخدام الدروع البشرية وحجز الرهائن ورفض مساعدة الجرحىٰ، وكل هذه التصرّفات تُعتبر جرائم حرب. وعيّن كوفي عنان

السكرتير العام للأُمم المتَّحدة لجنة للتحقيق في أَحداث جنين، لكن إِسرائيل رفضت السماح لها بدخول المنطقة.

ومهما حدث للفِلَسطينيين في جنين، فلقد كان للأَحداث في مخيم اللاجئين تفسيرات متناقِضة: كانت هناك قصة بطولية عن النصر الفِلَسطيني على الجيش الإِسرائيلي القوي (مثل معركة الكرامة سنة 1968)؛ كما كانت هناك قصة عن البؤس وعن المذبحة (مثل دير ياسين وكفر قاسم وصبرا وشاتيلا وتل الزعتر). وبعد ذلك وقعت حادثة مشابهة ولكنها أَصغر في الخليل. حين كمنت، مساءَ السادس عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، وحدة فِلَسطينية صغيرة لدورية إِسرائيلية في جبل الجورة في جوار الخليل[13]. وقُتل خلال أَربعِ ساعات ونصف الساعة تسعة جنود إِسرائيليين، بمن فيهم قائد المنطقة الإِسرائيلي، وجُرح أَربعة عشر آخرون. وقُتل أيضا ثلاثة مدنيين من اليهود المسلَّحين، وثلاثة من المقاتلين التابعين لحركة الجهاد.

(13) يعيش في مدينة الخليل حوالي 600 من اليهود المتعصبين دينياً بين 160,000 من السكان الفِلَسطينيين. ويتصرّف هؤلاء المستوطنون وكأنهم أسياد المدينة، ويضايقون العرب بأستمرار. وتضمن أَمن هذه المجموعة الصغيرة من المستوطنين فرقة كاملة من الجنود الإِسرائيليين. ولأن المستوطنة قريبة من موقع يُعرف باسم الجامع الإِبراهيمي أَو كهف الآباء (ماكبيلا)، وهو مكان مقدّس لكل من اليهود والمسلمين، تلعب المجموعة اليهودية في الخليل بأنتظام دور المضيف لآلاف من اليهود من أَجل الصلوات التي هي أَقرب إِلى التظاهرات السياسية. ويبقى عدد كبير من سكّان المدينة العرب تحت حالة منع التجول معظم الوقت. ويبلغ تعداد المستوطنين في كريات أَربع، المستوطنة الواقعة على الجانب الشرقي من الخليل، حوالي 6,500 مستوطن.

وبرز أيضاً خلال عمليّة الترس الدفاعي حادثتان مهمتان، الأولىٰ حصار كنيسة الميلاد والثانية حصار مقر قيادة ياسر عرفات. فعند دخول إسرائيل إلىٰ بيت لحم في أوائل شهر نيسان/ أپريل، لجأت مجموعة كبيرة من رجال الفصائل الفِلَسطينية إلىٰ كنيسة الميلاد مفترضين أَن إسرائيل لن تهاجم مكاناً مسيحياً مقدّساً مثل هذا. وأَثارت هذه القضية غضباً شديداً في العالَم المسيحي ضد كلّ من المسلمين واليهود. وأَكّدت أيضاً الطبيعة الحسّاسة والاستثنائية لهذه المعركة علىٰ الأَرض المقدَّسة والعلاقة المعقَّدة بين الأديان الثلاثة. وتدخّل البابا شخصياً عندما انفجرت المعركة حول البناء نفسه، ومعه مسؤولون من بعض الدّول الأوروپية التي وعدت بمنح المقاتلين المسيحيين حق اللجوء السياسي. وانتهت هذه القضية خلال شهر.

وعندما دخلت إسرائيل رام الله، المدينة الأكبر والأَكثر تطوّراً بين المدن الفِلَسطينية، حاصرت القوّات العسكريّة مقر قيادة عرفات (المقاطعة) في المدينة. ووضع عرفات مع عدد من الضبّاط والسياسيين في السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة تحت الإقامة الجبرية[14]. لم ينتهِ حصار المقاطعة في 21 نيسان/ أپريل، عندما انسحبت القوّات الإسرائيلية من أَجزاء أُخرىٰ من المدينة، بل طالبت بتسليم المُتَّهمين

(14) أُحضر مروان البرغوثي أَمين سر حركة فتح إلىٰ إسرائيل، ووُضِع تحت الحجز الإداري لمدة طويلة. وكان البرغوثي متهماً بأنّه قائد الجناح المسلّح السرّي لفتح، فرقة «شهداء الاقصىٰ»، وأخضع بعد ذلك لمحاكمة سياسية شكلية في إسرائيل. لم يعترف البرغوثي بسلطة المحكمة الإسرائيلية فلقد كان قائداً سياسياً مُنتَخباً لشعب آخر ولهذا رفض أن يمثّله أحد من أَجل الدفاع عنه.

المطلوبين المختبئين داخل المُجَمَّع[15]. وخلال فترة الحصار، ناقش السياسيون الإسرائيليون، وعدد من الخبراء والصحفيين إذا كان من المُفْتَرَض قتل عرفات أو ترحيله وإذا كان هناك بديل مقبول. وخلال هذه الفترة، لم يُسْمَح لعرفات حضور مؤتمر القمة العربية في بيروت. وفي هذا المؤتمر، اتُّخِذ قرار باقتراح سلام إقليمي مع إسرائيل مقابل الإنسحاب إلىٰ حدود 1967، وتأسيس الدّولة الفِلَسطينية وعاصمتها القدس الشرقية، وإيجاد حلّ منطقي ومقبول لمشكلة اللاجئين[16]. تجاهلت إسرائيل تماماً هذا القرار غير المسبوق، حتىٰ كأساس لمباحثات قادمة.

أنتهىٰ الحصار عندما ضمن التدخّل الأَمريكي إطلاق سراح عرفات وسلَّم هو بالمقابل الرجال المطلوبين من إسرائيل للأَمريكيين، الَّذين قاموا بسجنهم في أريحا. وسيكون لهذِه القضية نتائج طويلة الأَمد على عرفات، وربما على السلطة الوطنية الفِلَسطينية أيضاً. إن موافقة عرفات علىٰ شراء حريته الشخصية بتسليم آخرين شوّهت

(15) من بين الذين طلبوا اللجوء السياسي كان هناك أَحمد سعدات أَمين سر الجبهة الشعبية والمسؤول عن تنفيذ حكم إعدام وزير السياحة الإسرائيلي ريهافام زئيفي، زعيم حزب موليديت، الَّذي طالب صراحة بالتطهير الإِثْني «ترانسفير» ضد الفِلَسطينيين، وفؤاد الشوبكي، الخبير المالي الَّذي من المفترض أَنَّه نظم رحلة كارين أ، سفينة صغيرة تحمل عتاداً حربياً للسلطة الوطنية الفِلَسطينية. وبعد مفاوضات طويلة، تمّ ترحيل الرجال إلىٰ سجن في أريحا تحت حماية إنكليزية أَمريكية.

(16) يُحْتَمَل أَن عرفات كان غير راغب بالذهاب إلىٰ بيروت إما لأنه يخشىٰ عدم السماح له بالعودة أَو لأنه لم يكن متأكداً من الاقتراح السعودي للسلام. وكان هذا الاقتراح البند الرئيسي في جدول أَعمال القمة الَّذي اعتبره هو مبادرة أَمريكية.

صورته. وأكّد الحصار الطويل علىٰ مدىٰ ضعفه واعتماده علىٰ إسرائيل والأمريكيين والأوروپيين. وللمرة الأولىٰ، طالب أعضاء السُّلطة الوطنية أنفسهم بإصلاحات حكومية وقانونية بعيدة المدىٰ. ومع ذلك، لا يبدو أنَّه من الممكن إجراء إصلاحات حقيقية في هذا الوقت الصعب بخاصّة، حتىٰ لو أيّدها عرفات نفسه وتبنّاها «المجلس التشريعي». وجاءت مطالب أُخرىٰ بالإصلاح من إسرائيل والولايات المتّحدة، مع أن نواياهما كانت معاكسة على نحو دراماتيكي لنوايا «المجلس التشريعي». لقد أرادوا إزاحة عرفات وبناء سلطة أُخرىٰ يمكن أن تقمع المقاومة الفِلَسطينية وتذعن لاتّفاقيات مؤقتة وطويلة الأَجل تتوافق مع المصالح الإسرائيلية.

وطالبت الأَركان العامة للقوّات المسلَّحة الإسرائيلية لمدة أربعة أشهر بأن تسمح لها القيادة السياسية باستعادة السيطرة علىٰ الأَراضي الفِلَسطينية، بما فيها قطاع غزّة. وبدت النافذة السياسية لهذه الخطوة مغلقة، بسبب ردّ الفعل العالَمي غالباً، وفي 21 نيسان/ أپريل أُعلن رسمياً عن انتهاء العمليَّة. ولاحقاً تمّ تسريح القوّات الاحتياطية التي استُدعيت من أَجل احتلال قطاع غزّة. استمرت القوّات الإسرائيلية بالدخول إلىٰ المدن الفِلَسطينية ومخيمات اللاجئين يومياً تقريباً من أَجل اعتقال البعض أو قتلهم أَحياناً. واستمرت إسرائيل في سياستها بمحاصرة الضفَّة الغربية وتقسيمها إلىٰ أجزاء غير متصلة في الوقت الَّذي استمرت فيه الفصائل الفِلَسطينية بأعمال العنف، وإن كانت بدرجة أقل، داخل إسرائيل وضد المستوطنات ووسائل النقل في

الضفّة الغربية. وسرعان ما استؤنفت تفجيرات القنابل البشرية. وبإعادة احتلال كامل المنطقة (أ) أطلقت إسرائيل في حزيران/يونيو، عمليّة الطريق المحدّد المسار لأجل غير محدّد. وأطلقت هذه الحرب المشاعية، التي جعلت الفروق ضبابية بين الجبهة والمؤخرة، وبين المدنيين والعسكريّين، سلسلة من ردود الأفعال أدّت إلىٰ مزيد من العنف. ومن مظاهر هذه الحرب المشاعية أن الأفراد من كِلا الطرفين يملكون مشاعر شخصية قوية عن إدارة الصراع والتورُّط فيه تورُّطاً عميقاً. وما يميّز هذه الصراعات أيضاً غياب أي نوع من التعاطف مع طموحات الطرف الآخر ومشاعره ومواقفه ومعاناته.

وإذا كان رمز الانتفاضة الأولىٰ الأطفال الفِلَسطينيون الّذين يرمون الحجارة (أطفال الحجارة)، فإن رمز «انتفاضة الأقصىٰ»، عند الطرفين، هم القنابل البشرية. إن ردّ فعل الجماعتين تجاه القنابل البشرية يعكس عدم قابلية كل منهما علىٰ فهم خصمه. رأى الإسرائيليون اليهود الظاهرة دليلاً مطلقاً علىٰ الحماسة المتوحشة والطبيعة الفِلَسطينية البدائية واستنتجوا أنّه يستحيل الارتباط بمفاوضات منطقية مع أناس يرسلون أبناءهم ليقتلوا أنفسهم ويقتلوا أبرياء آخرين. وامتلأت الصحافة الإسرائيلية بقصص عن القنابل البشرية الّذين اعتبروا أبطالاً وشهداء بينما حصل أفراد أُسَرهم الّذين بقوا علىٰ قيد الحياة علىٰ الاحترام الاجتماعي والتعويض المادّي. وتجاهل الإسرائيليون، الدراسات الأكاديمية مثل التي قام بها الباحث

في الدراسات الحضارية إِيديت زيرتال، والتي تبيّن أَن إِسرائيل أيضاً تمتلك مزاجية الموت، مع أنّها لا تتجلّىٰ في القنابل البشرية. لقد أَعمىٰ نقص الفهم هذا معظم السكّان الإِسرائيليين عن رؤية الفقر والمضايقات المستمرّة والذُل وفقدان الأَمل والعنف والقتل المستمر الَّذي أَنهىٰ حياة كثير من الفِلَسطينيين وقاد كثيراً من الشبان إِلىٰ هذه التصرّفات اليائسة. وأَعمىٰ فقدانُ التعاطف ذاته الفِلَسطينيين أَيضاً عن الحزن والغضب اليهودي لمقتل المدنيين الأبرياء بسبب التفجيرات، وعن الانفعالات التي تزداد حدّة عندما يعبِّر كثير من الفِلَسطينيين علىٰ الملأ عن سعادتهم بعد نجاح كل عمليَّة. وتتحوّل جنازات الضحايا من كِلا الطرفين إِلىٰ مظاهرات غاضبة وطقس من طقوس الكراهية.

وإِلىٰ جانب منع التجوُّل، الَّذي غالباً ما يدوم أَسابيع، والإِغلاق الَّذي يقسِّم المناطق إِلىٰ كانتونات صغيرة ويمنع حرية حركة الأفراد كما يمنع دخول الغذاء والدواء، فإِن أَكثر الأَعمال شراً من وجهة نظر الفِلَسطينيين، والمساوية بنظرهم للتفجيرات، هي عمليَّات القتل المُسْتَهْدَف. في 17 كانون الأول/ ديسمبر 2000، بدأت إِسرائيل سياسة تنفيذ أَحكام قضائية خاصة (بأَسم القتل المُسْتَهْدَف) لهؤلاء الَّذين تعتبرهم مسؤولين عن أَعمال العنف والمقاوَمة المسلَّحة. ومن أَوائل الَّذين قُتلوا كان ضابط التنظيم سميح الملعبي. وبينما كان معظم الَّذين نُفِّذ فيهم حكم الإِعدام مسؤولين عن أَعمال العنف كان

الآخرون ببساطة مجرد عناصر متوفّرة من القيادات الفِلَسطينية. ولقد شكّ بعض المحلّلين بأن الحكومة الإِسرائيلية ٱستخدمت القتل بطريقة أنانية لتحريض ردّ الفعل الفِلَسطيني وإِحباط أي محاولة من أَجل تخفيف العنف[17]. لقد أَثارت عمليّات القتل هذه المشاعر القوية بين الفِلَسطينيين وبعض اليهود لسببين أولهما: كانت الضحايا شخصيات عامة، وكان معظمها يحظىٰ بإِعجاب الشعب الفِلَسطيني. ثانيهما، لم تكن العمليّات نظيفة، وكانت تؤدي إِلىٰ قتل أَبرياء آخرين إِلىٰ جانب الشخص المُسْتَهْدَف. فعندما قُتِل صلاح شحادة، قُتل معه تسعة أَطفال وعشرة أَشخاص آخرين عندما أُلقيت قنبلة تزن طناً علىٰ البناء الّذي كان بداخله. وأَثنىٰ شارون علىٰ هذه العمليّة المخطّطة بعناية واعتبرها نجاحاً عظيماً.

(17) ويبدو هذا صحيحاً علىٰ الأَقل في بعض الإِعدامات، مثل: الدكتور ثابت ثابت الأمين العام لفتح في 30 كانون الأول/ ديسمبر 2000. ورياض الكرمي، رئيس التنظيم في طولكرم في 14 كانون الثاني/ يناير 2001. وإِياد خضران، قائد حركة الجهاد في جنين، في 4 نيسان/ أبريل. وأبو علي مصطفىٰ أمين عام الجبهة الشعبية في 25 آب/ أغسطس؛ وصلاح شحادة ناشط من حماس في 23 تموز/ يوليو وبعد آخر عمليّات القتل هذه، وكتب أكيڤا يلدار، المعلق واسع الاطلاع في الهاآرتز: «لمّا كان الدليل في هذه القضية قد صُنِّف بأنه سرّي للغاية، فلا توجد طريقة لمعرفة ما إِذا كانت المخابرات الإِسرائيلية، التي تعرف كل خطوة خطاها صلاح شحادة وضيوفه، تعرف أيضاً أن التنظيم عقد ٱجتماعاً في عطلة نهاية الأُسبوع الماضي مع حماس ونوقِش خلاله، بين أَشياء أُخرىٰ، إِرسال شحادة بعيداً في إِجازة طويلة. بكلمات أُخرىٰ، في المناقشات بين ممثلي الاتحاد الأوروبي وأحمد ياسين [الزعيم الروحي والسياسي لحماس] قيل لزعيم حماس أنّه لن يكون كافياً أن يشارك الجناح السياسي لحماس بالاتّفاق، لكن علىٰ الجناح العسكريّ أيضاً أن يوقع.

وبعد هذه العمليّة، صنّف بعض الإسرائيليين هذه الأفعال جرائم حرب، وهذه من المرّات القليلة في التاريخ الإسرائيلي التي يحدث فيها ذلك. ولقد أجاب قائد القوىٰ الجوية الإسرائيلية الجنرال دان حالوتز، عن الاتهامات في مقابلة مع مجلة هاآرتز:

حالوتز: إنّ كل الأشخاص الّذين يتحدّثون عن نظام آثم وغير قانوني ويهدّدون بتسليم الطيارين إلىٰ محكمة لاهاي، قد خرجوا عن السكة في رأيي. أهذا هو الشعب الّذي تقاتل من أجله قوات الدفاع الإسرائيلية يوماً بعد يوم؟ كل هذه القلوب النازفة التي تمتلك الوقاحة لاستخدام طرق المافيا في ابتزاز المقاتلين، لا أتذكّر أنهم هدّدوا بتسليم واحد من الإرهابيين الماكرين، الإرهابيين الّذين قتلوا كثيراً من المدنيين الإسرائيليين، إلىٰ لاهاي. ما أريد أن أقوله عن هؤلاء الناس أن هذه هي الديمقراطية، حيث كل شخص يستطيع التعبير عن رأيه دائماً، لا أن يكون خائناً.

المراسل: هل تقصد أنّه من المفروض تقديم أعضاء الگوش شالوم [كتلة السّلام؛ مجموعة صغيرة من الناشطين الراديكاليين من أجل السّلام] الّذين أطلقوا هذه التعليقات للمحاكمة بتهمة الخيانة؟

حالوتز: يجب علينا أن نجد المادة المناسبة في القانون وأن نقدّمهم للمحاكمة في إسرائيل. نعم. تريد أن تتحدّث عن الأخلاق والمبادئ، وأنا أقول أن الدولة التي لا تحمي نفسها تتصرّف بلا

أَخلاق. إن دولة لا تدعم مقاتليها لن تبقىٰ علىٰ قيد الحياة. ولحسن الحظ، إن دولة إسرائيل تدعم مقاتليها. هذه الأَصوات ليست إلاَّ أَقلية تافهة تعيد إلىٰ الأَذهان الأَوقات المظلمة في تاريخ الشعب اليهودي، عندما ذهبت أَقلية من بيننا وأَبلغت عن قسم آخر من الأُمّة. يجب ألا يحدث هذا ثانية. من سيصدّق أَنّ طيارين من القوّات الجوية سوف يجدون سياراتهم وقد كتب عليها شعارات قاسية بسبب مهمة قاموا بتنفيذها[18].

لقد عبَّر ضباط كبار ومسؤولون في مناصب عالية في إدارة

(18) طُلِبَ من المدعي العام الحكومي محاكمة كتلة السّلام، التي طلبت العون من العسكريّين والمدنيين من أَجل جمع الأَدلة عن جرائم الحرب التي نُفّذت علىٰ أيدي الجنود الإسرائيليين في الأَراضي المحتلّة. ومع ذلك، سرعان ما توقفت التحقيقات، ربما بسبب الخوف من فتح صندوق پاندورا (المليء بالشرور) بإعادة بحث عبارة «جريمة حرب» و«واجب عدم إطاعة الأوامر غير القانونية»، التي أُقِرّت وقُبِلَت من محكمة العدل العليا الإسرائيلية سنة 1957 بعد محاكمة المشاركين في مذبحة كفر قاسم، لكنها لم تُستخدم مطلقاً منذ ذلك الوقت. لقد بحثت الدّول الأجنبية أيضاً في إمكانية محاكمة مسؤولين إسرائيليين بسبب جرائم الحرب. وبدأ الإسكوتلانديارد في 30 أيلول/ سپتمبر 2002، استجواب شاؤول موفاز بناء علىٰ ادعاءات بارتكابه جرائم حرب. كان موفاز في زيارة لبريطانيا من أَجل جمع التبرعات، لكنه عاد إلىٰ إسرائيل بعد أَن عرض عليه شارون منصب وزير الدفاع. في نهاية 2001 قُدّمت دعوىٰ مثيرة للاهتمام للمحكمة البلجيكية ضد أَرييل شارون ورافائيل إيتان وأمير دروري وعاموس ياعرون، وهم الأَشخاص الّذين وُجِدوا، من لجنة إسرائيلية، مسؤولين عن مجزرة صبرا وشاتيلا، ووُجِدوا من أَهالي الضحايا مسؤولين عن جرائم حرب. وقرَّرت المحكمة في حزيران/ يونيو 2002، أَنّها لا تملك السلطة لمحاكمتهم.

شارون مؤخراً عن آراء ينبغي أَن تُفَسَّر علىٰ أَنها محاولة لتهيئة الشعب الإِسرائيلي لإِجراءات طويلة الأَمد ضد الفِلَسطينيين.

علىٰ سبيل المثال، في 30 آب/ أغسطس 2002، قدَّم رئيس الأَركان المُعيَّن حديثاً موشي ياعلون، في أَول ظهور علني، «تشخيصاً» يصعب نسيانه لمجلة هاآرتز قد يكون استُمِدَّ مباشرة من أسلوب نشر دير شتورمر (شتورم أوند درنگ: حركة أَو أسلوب في الأَدب الأَلماني ظهر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر يتميز بأسلوب عنيف وقومية متطرِّفة):

ياعلون: إِن صفات تهديد [الفِلَسطينيين] غير مرئية، مثل السرطان. فعندما تُهاجم من الخارج تستطيع أَن ترىٰ الهجوم، وستصاب. أَمَّا السرطان فهو شيء داخلي. ولهذا فأنا أجده أَكثر إِقلاقاً لأن التشخيص هنا حاسم... أَنا أؤكد أَن هذا هو السرطان... إِن تشخيصي المهني هو أَنّ هذه الظاهرة تشكِّل تهديداً وجودياً.

المراسل: هل يعني هذا أَنّ ما تفعله الآن بصفتك رئيساً للأَركان في الضفَّة الغربية وغزّة هو تطبيق المعالجة الكيميائية؟

ياعلون: يوجد كل أَنواع الحلول للمظاهر السرطانية. قد يقول البعض أَنّه من الضروري بتر الأَعضاء. لكن حالياً، نعم، أَنا أطبِّق المعالجة الكيميائية.

وفي تأكيد إِضافي لرؤية شارون، يقول ياعلون:

ليس لديّ شك أَنّه، عندما سيُنظر إِلىٰ هذه الفترة من ناحية

تاريخية، سيكون الاستنتاج أَنّ حرب الاستقلال كانت أَهم حدث في تاريخنا وأن الحرب الحالية كانت ثاني أَهم حدث. . . [لأنها] أَعادتنا إِلىٰ حقبة ما قبل الدّولة، وإِلىٰ قرار التقسيم وحرب الاستقلال. . . [إِن الفِلَسطينيين لا يريدون] الوصول إِلىٰ اَتّفاق ولا إِلىٰ تحديد مطالبهم، بل يريدون الإِبقاء علىٰ الصراع وترك الزمن يأخذ مجراه وفقاً لاستراتيجيتهم [من أَجل تدمير إِسرائيل علىٰ مراحل].

وكالعادة، تجنّب المراسل توجيه الأسئلة الصعبة، مثل كيف يتوافق الرفض الفِلَسطيني لقبول «أَكثر العروض كرماً» الَّذي قدَّمه باراك مع «الاستراتيجية المرحلية» المُفْتَرَضَة. ولم يوضح المراسل أَيضاً معنىٰ «تهديد غير مرئي» ولماذا هو «داخلي»، ما دامت «الحكمة» الإِرهابية التقليدية وضعت فِلَسطينيي الأَراضي المحتلّة خارج حدود الدّولة الإِسرائيلية. يُحتمل أَن ياعلون كان يتحدَّث أَيضاً عن مواطني إِسرائيل العرب بوصفهم سرطان، وربما ليس عن العرب فقط.

ثمة قضية ثانية شديدة العاطفية للطرفين ـ لكنّها أيضاً أداة تُسْتَخْدَم للتلاعب بالرأي العام العالَمي والمحلي ـ وهي القتل المُتَعَمّد أَو غير المُتَعَمّد للأَطفال. في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر، أدان تقرير لمنظّمة العفو الدّولية طرفي الصراع بسبب «تجاهلهم المُطلق» لحياة 250 طفلاً فِلَسطينياً و72 طفلاً إِسرائيلياً قُتلوا خلال الصراع. منذ بداية انتفاضة الأَقصىٰ حتىٰ أيلول/ سبتمبر 2002، قُتِل أَكثر من 625 إِسرائيلياً خلال 14,280 هجوماً في سنتين. وقُتِل حوالي 1,372 فِلَسطينياً قتلتهم القوّات العسكريّة الإِسرائيلية. وأُصيب 4,500

إسرائيلي بسبب الهجَمَات الفلسطينية، والرقم أكبر بكثير بين الفِلَسطينيين، فقد أبلغت منظّمة الهلال الأَحمر الفِلَسطيني عن حوالي 20,000 مُصاب.

هل بقي شارون، في نهاية فترته الرئاسية الأُولىٰ، لغزاً غامِضاً أم قائداً حدَّد نواياه بوضوح؟ هل هو ديگول أم ميلوسوڤيتش؟ ومهما كان الاستنتاج الَّذي يتصوّره الشخص من هذه الأَسئلة، فمن الواضح أَنَّه حقَّق أَحد أَهدافه الرئيسية من فترته الأُولىٰ، أَن يُعاد اْنتخابه ويكسب أَربع سنوات أُخرىٰ ينفّذ خلالها أَفكاره.

20 ـ ماذا بقي من اليسار؟

قبل تحليل أَهداف شارون المُحْتَمَلَة وإِمكانية تنفيذ هذه الأَهداف ـ وليس من الضروري أَن تكون متطابقة مع أَهداف ناخبيه المخلصين له[19] ـ من المهم أَن نفهم ماذا حدث لليسار الإِسرائيلي، أَو بتحديد أَكثر، لمعسكر السَّلام. إِنّ معسكر السَّلام الَّذي تطوّر خلال العقد الماضي والَّذي غالباً ما عبَّر عن وجهات نظره في صناديق الاقتراع، قد تشكَّل من ائتلاف متقلقل لعدّة مجموعات لكل منها دوافعها ورؤاها شديدة الاختلاف.

---

(19) إنّ قسماً كبيراً من أَنصاره المخلصين لم يصوّتوا له خلال اْنتخابات الليكود الأولية بل صوّتوا لنتنياهو (الّذي حاول أَن يصنع عودته هو باْتخاذ موقف أَكثر تشدّداً)، وفي الاْنتخابات العامة صوتوا لحزب الاتحاد القومي اليساري الأَكثر تطرّفاً أَو للحزب الديني القومي. كان مناسباً جداً لشارون أَن يرسِّخ نفسه كمرشح يساري معتدل. ولقد أثبتت هذه الاستراتيجية جدواها في اْنتخابات كانون الثاني/ يناير 2003، عندما نجح الليكود في الحصول علىٰ تأييد قسم كبير من جمهور الناخبين المعتدلين وفي أَن يصبح (بالمقاعد الثماني والثلاثين) أَكبر حزب في إِسرائيل.

وحاول باراك وشارون والمتدينون المتعصّبون من كِلا الجانبين، كثيراً كسر هذا الائتلاف. كان معسكر السَّلام مؤلَّفاً من أفراد ومجموعات صغيرة، تؤمن بأن ٱحتلال شعب آخر واضطهاده وسرقة أرضه هي أَعمال شريرة بالمعنىٰ الإنساني الْعالَمي، بينما كان آخرون، في معسكر السَّلام يؤمنون بأن الاُحتلال قد حوَّل البلاد إلىٰ ديمقراطية العِرْق السيِّد التي أَفسدت المجتمع الإسرائيلي نفسه. ولقد بدأ تشكُّل معظم هذه الأَفكار والتعبير عنها بعد حرب 1982 مع أَنّ بعضها كان موجوداً قبل ذلك.

إنّ المبرّر الوحيد الَّذي يجبر علىٰ الوصول إلىٰ ٱتّفاق مع الفِلَسطينيين، حتىٰ لو تضمّن ذلك الاُنسحاب من جميع الأَراضي المحتلَّة وتفكيك كل المستوطنات، هو المبرّر العسكريّ. وإنّ دولة فِلَسطينية منزوعة السلاح لا يمكن أَن تشكِّل تهديداً وجودياً لإِسرائيل، لكن تنظيم شعب محتل ثائر يشكِّل تهديداً بعيد الأَمد لأن إِنهاك القوّات الإِسرائيلية الناتِج يشكِّل خطراً حقيقياً في حالة حدوث حرب إِقليمية. وربما كان هذا الفهم هو الَّذي جعل إِسحاق رابين يبدأ عمليَّة أوسلو ويصوغ الاُتّفاقيات بالطريقة التي صاغها، والتي عبَّر عنها المؤرّخ العسكريّ الإِسرائيلي مارتن ڤان كريفيلد مؤخراً، في مقابلة مع التلڤزيون الأسترالي بهذه الطريقة: «هناك دائماً سؤال عن علاقة [توازن] القوىٰ. فإِذا كنت قوياً، وأنت تحارب الضعيف، فأنت نفسك ستصبح ضعيفاً. . . وإِذا كنت قوياً وأَنت تحارب الضعيف، فأي شيء تفعله سيكون جريمة.»

يشكِّل هذا التفكير الأَساس لفهم آخر يؤيده بعض الَّذين يُعرِّفون خطأً أَحياناً بزمرة السَّلام، وهو الفهم الانفصالي. وفي المقابلة نفسها صوَّر تصويراً قوياً الإِيديولوجية الانفصالية:

[إنّ الحل الوحيد هو] بناء جدار بيننا وبين الطرف الآخر، عال جداً حيث لا تستطيع حتىٰ العصافير الطيران فوقه... لتجنّب أي نوع من التقسيم لوقت طويل في المستقبل... ولسوء الحظ، أَصرّ الجيش الإِسرائيلي، بعكس المنطق العسكريّ، علىٰ الوجود علىٰ جانبي الجدار. يمكن أَن ننهي المشكلة رسمياً، علىٰ الأَقل في غزّة، في ثمانٍ وأَربعين ساعة، بالخروج وبناء جدار مناسب. وبعد ذلك طبعاً، إِذا حاول أَي شخص تسلّق الجدار، فسوف نقتله.

أَصبحت الروايات المختلفة لهذه الفكرة شائعة جداً بين الإِسرائيليين اليهود وبدأ تشييد السياج بمبادرة من وزير الدفاع السابق بنيامين بن أليعازر، علىٰ طول حدود 1967 تقريباً. في الواقع، لقد تم إِنجاز السياج حول قطاع غزَّة منذ زمن بعيد وأَصبح القطاع أَكبر معسكر يمكن أَن يوجد للاعتقال. إِنّ الانفصال لا يعود إِلىٰ زمرة السَّلام التي ترغب بالسَّلام وبالحياة المشتركة بين اليهود والعرب، حتىٰ لو عُرِف معظمهم باليساريين لأنهم مستعدون للتخلي عن المستوطنات، والقبول بالتنازل عن الأَراضي والقبول بتأسيس دولة فِلَسطينية حلاً لأَزمة الفِلَسطينيين. قد يؤيد بعض الانفصاليين التخلي عن أَجزاء من الأَراضي الإِسرائيلية المأهولة بكثافة سكانية عربية، إِنهم يرغبون بما هو عكس «التطهير الإِثني» لكن له نتائج عملية

وسيكولوجية مشابهة[20]. إنها متجذِّرة في خليط من المشاعر المتشابكة: عدم الثقة والخوف وكراهية العرب مصحوبة برغبة في نقل إسرائيل من محيطها الحضاري الحالي. وهذا يفسّر لماذا صوّتت غالبية سكان إسرائيل، كما أظهرت استطلاعات الرأي العام بأستمرار في السنوات الأخيرة، لصالح الأحزاب اليمينية أو الدينية التي يتزعمها الليكود، تأييداً لعزل عرفات وموافَقَةً علىٰ تأسيس دولة فِلَسطينية. لقد اختار الانفصاليون أيضاً تأسيس حكومة وحدة وطنية، آملين أنّ صقور العمل وأعضاء الليكود المعتدلين سوف يجعلون العرب يختفون من الدّولة اليهودية عن طريق خطوة أحادية الجانب. كان الانفصاليون حلفاء مؤقتين فقط، لزمرة السَّلام كما برهن تصويتهم لإيهود باراك من الصقور، ومن الممكن أن يعودوا إلىٰ حزب العمل إذا لم يقدِّم شارون الأمن عن طريق «بناء جدار عالٍ جداً لا تستطيع حتىٰ العصافير الطيران فوقه».

كانت أصوات الإسرائيليين العرب وأحزابهم عنصراً أساسياً معسكر السَّلام. وكل مرة ربحت فيها كتلة اليسار الانتخابات في العقد الماضي كان ذلك بفضل الناخبين العرب، الّذين يؤلّفون حوالي 18 بالمئة من مجموع الناخبين. وللناخبين العرب مصلحتان ثابتتان في دعم اليسار اليهودي ومعسكر السَّلام. الأولىٰ هي تحقيق

(20) تشكِّل هذه الطريقة كابوساً للمستوطنين لأنها تعني التخلّي التام، ليس فقط عن المستوطنات والمستوطنين، ولكن أيضاً عن إيديولوجية إسرائيل الكبرىٰ. وهذا هو السبب الّذي يجعل المستوطنين ينظرون إليها علىٰ أنّها «تطهير إثني لليهود من أرضهم».

الحرية وحق تقرير المصير للأخوة الفِلَسطينيين، والثانية هي أملهم في أنّ حلّ الصراع اليهودي الفِلَسطيني سوف يحسّن وضعهم كمواطنين ويوفّر لهم مساواة أكبر، إن لم يكن مساواة كاملة في الدّولة اليهودية. لكن التيار اليساري الرئيسي كان يبعدهم عادة. وحتىٰ خلال فترة رئاسة رابين، لم تكن الأَحزاب الإسرائيلية العربية جزءاً من الائتلاف. كان يُخَصَّص لها ٱعتمادات وليس مناصب، وهذا الوضع جعلهم يشعرون أنهم بمنزلة الزوجة الثانية سياسياً. وقُتل خلال رئاسة باراك عدد من المواطنين العرب الإِسرائيليين خلال المظاهرات. ودفعت الخيبة المبرّرة، من باراك ومن شركاء يساريين آخرين، عدداً كبيراً منهم إلىٰ الانسحاب من الحياة السياسية مسبّبين صدمة مدمِّرة لمعسكر السَّلام.

إنّ السبب الرئيسي في ٱنحدار اليسار كان فشل باراك في الوصول إلىٰ ٱتّفاق في كامب ديڤيد، وإنّ تصريحه «لا شريك»، وقرار حزب العمل المشاركة في حكومة الوحدة الوطنية، وفشل ميريتز وحركته الفرعية «السَّلام الآن» في دعم مبادرتين أَساسيتين كان يمكن أَن يكسرا القاعدة الإِسرائيلية الدائمة في صنع الحرب والسَّلام.

كانت الأُولىٰ حركة من الجنود النظاميين والاحتياط رفضوا الخدمة في الأَراضي المحتلّة. ولم يكن معظم هؤلاء الجنود من دعاة «اللاعنف» بالمعنىٰ المعروف (لم يكن في إِسرائيل يوماً حركة لا عنف حقيقية). إنّ رفضهم انتقائي، وكانوا مستعدين للسَّوْق ولأن يكونوا جنوداً مقاتلين في حرب لا يمكن تجنّبها (وهو ما يُسَمّىٰ لا

خيار) لكنهم يرفضون الاشتراك في إخماد الثورة الفِلَسطينية، وفي الدفاع عن المستوطنات اليهودية غير الشرعية في الأَراضي المحتلَّة، وفي ٱرتكاب ما يرونه جرائم حرب أَو جرائم ضد الإِنسانية. ولقد تعرّض معظم هؤلاء لمحاكمة عسكريّة وحُكم عليهم عدة مرات بالسجن لفترات مختلفة ضمن ظروف قاسية.

وقد أرسل والد أحد المعارضين الشباب ذوي الضمير الحي هذه الرسالة عبر الإِنترنت:

> الأَحد، 10 تشرين الثاني/ نوفمبر، كتب ماتانيا بن آرتزي:
>
> أَصدقائي الأَعزاء: لقد أَنهىٰ [ابني] جوناثان بن آرتزي فترته الرابعة في السجن في 8 شباط/ فبراير 2002. واستدعي مرة أُخرىٰ اليوم الأحد 10 تشرين الثاني/ نوفمبر. لقد طَلَبَ الخدمة المدنية [في الجيش] بدلاً من [الخدمة العسكريّة]، موضحاً أَنّ معتقداته لا تسمح له بالخدمة في الجيش. لكن تمّ رفض هذا الطلب، وحُكم عليه بالسجن للمرة الخامسة، لمدة 28 يوماً.

إنّ العقيد الّذي حَكَم عليه لم يسمح له بالكلام، لكن هذا ما كان ينوي أَن يقوله له (وما طلب مني أَن أنشره):

«استناداً إِلىٰ تقرير منظّمة العفو الدّولية، قُتِل أَكثر من خمسة عشر طفلاً تحت سن الثانية عشرة بنيران الجيش الإِسرائيلي خلال الأَشهر السبعة الأُولىٰ من سنة 2002. وأنتَ لم تُصْدِر حكماً علىٰ أي من

مرتكبي هذه الجرائم. لكنك تُصدر حكماً ضدي للمرة الخامسة، لأني رفضت الاشتراك في مثل هذه الأَعمال»[21].

وهذه بعض المقتطفات من رسالة شهيرة أُخرىٰ، كتبها ييگال برونر إِلىٰ جنرال إِسرائيلي:

الجنرال العزيز،

كتبت في رسالتك لي أَنَّه «بسبب الحرب المستمرة في يهودا والسامرة [الضفَّة الغربية] وقطاع غزَّة، ولما تقتضيه الضرورات العسكريّة»، أَدعوك «للمشاركة في العمليَّات العسكريّة.»... أَكتب إِليك لأَقول أَني لا أَنوي الاستجابة إِلىٰ ندائك.

خلال الثمانينيات، قام أَرييل شارون ببناء عشرات المستعمرات للمستوطنين وسط الأَراضي المحتلَّة، وهي استراتيجية كان هدفها النهائي إِخضاع الشعب الفِلَسطيني وتجريده من أرضه. وتسيطر هذه المستعمرات اليوم علىٰ ما يقارب نصف الأَراضي المحتلَّة وتخنق المدن والقرىٰ الفِلَسطينية وتعرقل (إِن لم تمنع كلياً) حركة سكانها. إِنّ شارون الآن رئيس الوزراء، وفي السنوات السابقة كان يتقدم بٱتجاه المرحلة الحاسمة من المبادرة التي بدأها منذ عشرين سنة مضت. بالتأكيد لقد أَعطىٰ شارون أوامره لتابعه وزير الدفاع [بنيامين بن أليعازر]، ومن هناك تقاطرت سلسلة الأَوامر...

---

(21) بدأ جوناثان بن آرتزي تنفيذ حكمه المتعاقب السابع بالسجن في كانون الثاني/ يناير 2003. لقد حُكِم عليه بما مجموعه 190 يوماً.

أنا رجل من سلاح المدفعية. وأنا برغي صغير في آلة الحرب المثالية. وأَنا أَصغر وآخر حلقة في سلسلة الأوامر. ومن المفروض أَن أتبع الأَوامر ببساطة وأَن أخفض وجودي إِلىٰ الحد الأدنىٰ من الفعل ورد الفعل، لأسمع صوت «النار» وأَضغط الزناد، ولأصل بالخطة الكاملة إِلىٰ النهاية. ومن المُفْتَرَض أَن أَفعل كل هذا ببساطة وطبيعية مثل الروبوت، الروبوت القادر بأَحسن الأَحوال أَن يشعر بٱرتعاش الدبابة لحظة ٱنطلاق الصاروخ بٱتجاه الهدف.

لكن وكما قال برتولد بريخت:

أيها الجنرال، إنّ دبابتك آلة قوية

تسحق الغابات وتقتل مئات الرجال.

لكن هناك عيباً واحداً فيها:

أنّها تحتاج إِلىٰ سائق...

أيها الجنرال، إنّ الإِنسان مفيد جداً.

وهو قادر علىٰ الطيران، وقادر علىٰ القتل.

لكن هناك عيباً واحداً فيه:

أنه قادر علىٰ التفكير.

بالتأكيد أيها الجنرال... أنا أيضاً أَستطيع التفكير... وربما لستُ قادراً علىٰ فعل أَكثر من ذلك. [لكني] أَستطيع أَن أَرىٰ إِلىٰ أين تقودني. لقد عرفت أَنّا سنقتل، وسندمر، ثم نُصاب ونموت، ولا

توجد نهاية في الأُفق. أَعرف أَن «الحرب المستمرة» التي تتحدَّث عنها سوف تستمر وتستمر. وأَستطيع أَن أَرىٰ أَنّ «الضرورات العسكريّة» تقودنا إِلىٰ محاصرة شعب كامل ومطاردته وتجويعه، ولهذا يبدو أَن هناك خطأً فظيعاً ما في هذه «الضرورات». ولهذا أَجد نفسي مُجبراً علىٰ رفض تلبية ندائك. لن أَضغط علىٰ الزناد... هكذا أيها الجنرال، وقبل أَن تطردني، ربما عليك، أنتَ أيضاً، أَن تبدأ بالتفكير.

منذ بداية انتفاضة الأَقصىٰ، أَصبح هناك ما يزيد عن 180 مطلوباً للخدمة العسكريّة رفضوا الخدمة في الأَراضي المحتلّة، ووقَّع كثيرون آخرون قسَماً برفض الخدمة في حال طُلبوا للسَّوْق. إنَّه رقم كبير نسبياً لكنه ليس كافياً لتشكيل مجموعة حاسمة قادرة علىٰ تقويض آلية الاحتلال ومنطقه. لقد تمّ تنظيم ودعم هؤلاء المعارضين من بعض المجموعات اليسارية الراديكالية الصغيرة[22]. لكن حزب ميريتز اليساري وفرعه الكبير والمموّل جيداً «حركة السَّلام الآن»، رفضا دعمهم، بدعوى أَن رفض الخدمة، في النظام الديمقراطي، ليس نوعاً من عدم ولاء فقط لكنه غير أَخلاقي[23].

---

(22) مثال علىٰ هذه المجموعات: ييش غفول («يوجد قيد»، ولكن أيضاً «يوجد حد») التي تأسّست منذ وقت طويل، والصورة الجديدة التي تشكّلت حديثاً وهاأوميتز ليزاريف (شجاعة الرفض).

(23) عادة ما تستكمل هذه الدعوى بجدل مستمر «وماذا إِذا رفض جنود متدينون أَو يمينيون إِطاعة الأوامر في إِخلاء المستوطنات أَو الانسحاب من الأَراضي المحتلّة وفقاً لما يمليه عليهم ضميرهم»؟

لا حاجة للقول، أنّ هذا النقاش هراء تام ولا علاقة له بالواقع الإسرائيلي السياسي الاجتماعي. إنّ تعريف الديمقراطية الإسرائيلية واضح دينياً وقومياً ويشمل اليهود فقط، ويفشل في أن يشمل الملايين ممّن هم تحت السيطرة أو الحكم الإسرائيلي. لقد توقفت إسرائيل منذ زمن طويل عن كونها ديمقراطية عندما توقفت عن اعتبار الاحتلال مؤقتاً وبدأت بدمج الأراضي المحتلّة في الدّولة بينما استبعدت سكان هذه الأراضي من أي نظام يضمن حقوقهم المدنية والإنسانية. وكما قلنا سابقاً، لم يعد بالإمكان اعتبار إسرائيل ديمقراطية ليبرالية، لكنها أصبحت ديمقراطية «العِرْق السيّد». ومع أن إسرائيل بدأت عمليَّة تكريس الديمقراطية بعد اتّفاقيات أوسلو، فقد توقفت عند ذلك بعد اغتيال رابين وتفكّكت المكاسب الديمقراطية التي تحقّقت أثناء حكمه تدريجياً.

لهذا فإن أي عمل لا ينطوي على العنف ويهدف إلى إنهاء الاحتلال يعتبر عملاً ديمقراطياً دون شك. إنّ ما فشل التيار اليساري وحركة السّلام في إدراكه عندما رفضوا خيار دعم المعارضة صاحبة الضمير الحي وتشريعها كان تحديداً هذه النقطة الرئيسية. على سبيل المثال، وجّهت منظّمة العفو الدولية في 18 كانون الأول/ ديسمبر 2002، خطاباً إلى وزير الدفاع الإسرائيلي:

إنّ أعضاء [قوّات الدفاع الإسرائيلية] الّذين ارتكبوا انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان وجرائم حرب، مثل قتل الأطفال والمدنيين العزّل، وأطلقوا النار وقصفوا مناطق سكنية مكتظّة أو فجّروا البيوت

فوق رؤوس أَصحابها وتركوهم ليموتوا تحت الأَنقاض، لم يُسَلَّموا للعدالة ويحاسَبوا علىٰ أَعمالهم. . . وفي الوقت نفسه فإنّ المجنّدين الإِلزاميين والاحتياط الَّذين رفضوا الخدمة، ليتجنّبوا تحديداً المشاركة في مثل هذه الأَعمال، أُرسلوا إِلىٰ السجن لأَشهر. ما هو نوع الرسالة التي ترسلها هذه السياسة إِلىٰ المجتمع الإِسرائيلي؟

كان تقييم المجموعات المُسَالِمة الآنفة الذِّكر أَنّ دعم المعارضة الحيّة سوف يزيد هذه الظاهرة. ومن الصعب رؤية الطريقة التي ستتعامل فيها الحكومة، وبخاصّة الجيش، مع آلاف المعارضين أَصحاب الضمير الحي والأُسر التي تدعمهم[24]. بالتأكيد سيشكِّل هذا نقلة دراماتيكيَّة في الموروث العسكريّ الإِسرائيلي وسوف يتطلّب نوعاً من الشجاعة الأَخلاقية والإِرادة لخوض مجازفات سياسية يفتقدها دائماً اليسار الإِسرائيلي. إِنّ العصيان المدني بهذه النسبة الكبيرة سوف يسبِّب ٱنشقاقاً رئيسياً داخل المجتمع

(24) هناك أَعداد كبيرة من الذين رفضوا السّوْق للخدمة لكنها غير معروفة. تجنّب كثير منهم كانوا مطلوبين تقديم رفضهم علىٰ شكل تصريح أَخلاقي أَو إِيديولوجي وطلبوا الإِعفاء من الخدمة تحت عنوان ظروف صحية أَو شخصية أَو أُسَرية. وكان الجيش علىٰ علم تام بهذه الظاهرة وعادة ما كان يمنح مثل هذه الإِعفاءات لعدم إِظهار المعارضة السياسية أَو الأَخلاقية. ومع ذلك، سيكون مُحْرجاً جداً للنظام سجن آلاف من الناس، معظمهم من الأُسر المتوسطة المتعلّمة والحرفية، بسبب الرفض. إِنّ العقوبة الخفيفة نسبياً 28 يوماً في السجن، وأَحياناً علىٰ عدة مراحل، ثم الإِعفاء إِذا لم يتراجع الشخص، تعكس ارتباك النظام العسكريّ بالتعامل مع ظاهرة غير عادية في منظور الثقافة الإِسرائيلية. وعادة يطلب المعارضون الإِيديولوجيون الخدمة داخل الخط الأَخضر أَو القيام بالخدمة الوطنية غير العسكريّة (وهو خيار مفتوح بخاصّة للنساء الشابات المتدينات)، لكن طلباتهم تُرْفَض ويُقَدّمون للمحكمة.

الإِسرائيلي، ومع ذلك، دون هذا الانقسام، من الصعب التخيّل كيف يمكن أَن ينتهي هذا المأزق التراجيدي الحالي[25]. لقد قدّرت المثقّفة الإِسرائيلية، تانيا راينهارت، أَنّ «معسكر السَّلام الإِيديولوجي» يشكّل ثلث المواطنين الإِسرائيليين، وهو رقم قد يشمل المواطنين العرب والإِسرائيليين، الَّذين لا يُطلبون للخدمة في كل الأَحوال. يشكِّل اليهود المؤيدون إِيديولوجياً للانسحاب الكامل أَو الجزئي من الأَراضي من 15 إِلىٰ 20 بالمئة من السكان اليهود. وهذا الرقم لا يشمل الانفصاليين الَّذين لا يأبهون لا بالتعايش السلمي مع الفِلَسطينيين ولا بالمستوطنات. ومع أَنّ معسكر السَّلام أَقلية، فإِن ضعفه لا يكمن في العدد بل في حقيقة أَن نشاطاتهم نظرية. لقد صُنِّفت الأَقلية الصغيرة الفاعِلة، مثل المعارضين أَصحاب الضمير الحي، مباشرة باليسار الراديكالي حتىٰ من نظرائهم. ولو أَن هذه المجموعة كانت فاعِلة مثل المستوطنين، الَّذين قاموا بتضحيات فردية وجماعية كبيرة وواجهوا مخاطر جسيمة في سبيل معتقداتهم، لكانت النتيجة عصياناً مدنياً واسعاً قادراً علىٰ تدمير نظام القمع والاستعمار تماماً. إِن الخطيئة الرئيسية للميريتز كحزب وليوسي ساريد شخصياً هي تجاهل المعارضين المدعومين

---

(25) إنّ تعارض قِيَم كهذا بين التأويلات المدنية والقبلية لليهودية لا يمكن حله دون نوع من الحرب الأهلية، لكن إِن أَي دعم لأي نوع من العنف ضد السكان المدنيين العزّل يُعتبر عملاً غير أخلاقي. إِن إسرائيل لا تحتمل حرباً أهلية، مع أَنّها تورّطت لوقت طويل في صراع حضاري عنيف وإِن كان غير واضح دائماً. هذا العصيان المدني الواسع هو عكس الحرب الأَهلية لكنه سوف يحصد النتائج نفسها.

من المجموعات الراديكالية الصغيرة، وهكذا ضاعت فرصة نادرة للاختراق.

وثمّة وفرصة أُخرىٰ أَصغر، لكنها مهمّة من الناحية الرمزية، ضاعت عندما فشل حزبا ميريتز والعمل في الضغط علىٰ الحكومة السَّابقة للمصادقة علىٰ تشريع روما للمحكمة الجنائية الدّولية. إِن المعاهدة التي أَسَّست المحكمة الجنائية الدّولية صدّقت عليها 120 دولة، بما فيها روسيا وفرنسا وبريطانيا. وصوَّت ضدها الولايات المتّحدة والصين وليبيا والعراق وقطر واليمن وإِسرائيل. أصبح تشريع روما ساري المفعول منذ الأَول من تموز/ يوليو 2002. وللمشاركة في ترشيح الحكّام والنوّاب العامّين وانتخابهم، علىٰ الدّولة أَن تكون قد أَتمّت عمليَّة التصديق في 31 تشرين الثاني/ نوڤمبر 2002. ودون التصديق يكون التوقيع مجرد عمل إِعلاني[26]. ومع أَنّ إِسرائيل وقَّعت علىٰ قانون «تشريع روما» للمحكمة الجنائية الدّولية في 31 كانون الثاني/ يناير 2000، فإِن توقيع المعاهدة الدّولية مجرّد تعبير عن

---

(26) قوّضت إِسرائيل والولايات المتّحدة المحاولات العالَمية لتأسيس محكمة جنائية ذات سلطة دولية. ففي مداولات المحكمة الجنائية في روما، قالت الولايات المتّحدة، علىٰ سبيل المثال، إنّ علىٰ الدّول أَو مواطنيها القبول بالتحقيقات من المدعي العام للمحكمة. هل يمكن أَن يتصوّر المرء ماذا يمكن أَن يحدث لو أَنّ القانون الأَمريكي يطلب من المتهمين الجنائيين القبول بالتحقيق والمحاكمة؟ لقد خشيت إِسرائيل والولايات المتّحدة من أَنّ النزعة الحماسية الزائدة أَو السياسية للنائب العام قد تحرّف أَو تلفّق الادعاءات ضدهما. وكان الاعتراض الثاني أَن الإِرهاب لم يكن ضمن القانون بصفة جريمة حرب، ربما لأن تعريفه المناسب صعب ومثير للجدل، مثل تعريف إِرهاب الدّولة. وقد عالج عدد من بنود القانون أَعمال العنف مثل الجرائم، مع أَن عبارة الإِرهاب لم تُستخدم بسبب صعوبة تعريفها.

الموافقة المبدئية عليها. والموقِّع غير مُلزم بشروط المعاهدة حتىٰ تصدّق عليها الدّولة، وهذا ما لم تفعله إسرائيل حتىٰ الآن.

يعرِّف «قانون روما» جرائم الحرب بأنها خرق خطير لاتّفاقية جنيڤ الرابعة، ويعرّف أيضاً، ضمن أشياء أُخرىٰ، الجرائم ضد الإنسانية، والجرائم ضد السَّلام، وجرائم العدوان. ويعلن القانون أنّ جرائم الحرب هي انتهاكات خطيرة للقوانين والأعراف المطبَّقة في الصراعات المسلَّحة الدّولية، في إطار القانون الدّولي[27]. إنّ القانون هو ذروة الجهود للحدّ من العنف خلال الحروب والّذي بدأ في منتصف القرن التاسع عشر تقريباً وأخذ شكلاً إضافياً في الاجتماعات والاتّفاقيات الدّولية في لاهاي سنة 1899 و1907. وأكّدت مقدمة معاهدة 1907 أن «يبقىٰ كل من السكان وأفراد القوّات المحارِبة تحت حماية مبادئ قانون الدّول وحكمها كما تنتج من العرف المُتَّبَع بين الشعوب المتحضِّرة، ومن قوانين الإنسانية، وما يمليه الضمير العام».

إنّ الحركة المعارضة الحقيقية التي التزمت بما سُمّي حقوق الإنسان والأخلاق العالَمية عليها أن تنتهز الفرصة التي قدَّمها قانون روما والاهتمام العالَمي به لجعل الشعب الإسرائيلي، وبخاصة

(27) إن انتهاكات القوانين التي تحكم سلوك الصراع طويلة، وأهم هذه الانتهاكات: الهجوم العَمْد على المدنيين الذين لا يقاتلون؛ والهجوم على أهداف مدنية، أو منشآت أو مركبات؛ والهجوم على مكلفين بحفظ السلام؛ وهجوم عمد مع علم سَبَق أن هذا الهجوم سوف يوقع قتلى بين مدنيين، أو ضرراً في ما يملكون، وإيقاع أذىً في البيئة والطبيعة؛ وقصف أحياء أو قرى أو مدن ليس لها صفة عسكرية ولا تتمتّع بحماية؛ وتهجير للسكان تقوم به قوى مُحتلّة بطرق مباشرة وغير مباشرة.

الجيش، علىٰ علم بالطبيعة الحقيقية لجرائم الحرب التي ٱرتُكِبَت.

إنّ كثيراً من الأَسباب تجعل معرفة المجتمع الإِسرائيلي لهذه الجرائم مهمة صعبة. فكثير من اليهود يعتقدون أَن الجيش اليهودي لا يمكن أَن يرتكب مثل هذه الجرائم وأَن جرائم الحرب والجرائم ضد الإِنسانية تُرتكب دائماً ضد اليهود وليس من اليهود. وإِذا قام الجيش الإِسرائيلي بعمل ما لا يتّفق تماماً مع القوانين، فإِن ذلك دائماً بهدف الدفاع عن النفس أَو لسبب ما. ويعتقد آخرون، وليس بالضرورة اعتقاداً صريحاً أَو واعياً، أَنّه بعد كل العذاب الَّذي نزل علىٰ اليهود علىٰ يد غير اليهود، أَصبح اليهود مهيئين تماماً ليكونوا قساة أَو حازمين تجاه غير اليهود[28]. وثمّة عامِل آخر وهو المَيل إِلىٰ إِعطاء نوعٍ من القدسية الدينيَّة للجيش. إنّ مجموعة العوامل هذه قادت السياسيين والأَحزاب السياسية إِلىٰ التراجع عن المناقشات في جرائم الحرب التي يمكن أَن تكون إِسرائيل قد ٱرتكبتها، وهو موقف مفهوم لكنه غير مبرّر. وهكذا فقط حاولت مجموعة صغيرة، لكنها معبّرة، هي كتلة السَّلام، برئاسة صحفي عريق وناشِط لا يساوِم من أَجل السَّلام هو يوري أڤنيري، لفت الانتباه الشعبي إِلىٰ المحكمة الجنائية الدّولية الجديدة وصِلتها بالأَعمال الحربية التي ٱرتُكِبَت من الجانبين في النزاع الفِلَسطيني الإِسرائيلي، وحظيت جهودها بنجاح محدود. ربما لم تكن كتلة السَّلام ساذجة لدرجة اعتقادها أَنَّها قادرة علىٰ إِقناع الضباط

(28) إنّ إِحدىٰ أكثر آليات الظلم المبرّرة هي ذكرىٰ الهولوكوست. والحجة الشائعة في النزاعات الداخلية بين اليهود أَنفسهم عندما يناقشون الصراع بين اليهود وغير اليهود هي «الحديث باسم ضحايا الهولوكوست» أَو الناجين منها.

الإِسرائيليين والزعماء بالمحكمة الجنائية الدّولية (في النهاية، لم يُحاكَم المنتصرون يوماً بسبب جرائم الحرب) لكنها أَمِلت بإِطلاق القضية في المجال الشعبي وربما في منع بعض النشاطات ضد الفِلَسطينيين، مثل الانتقام المدمّر الَّذي لحق بسكان جنين، والإِعدامات المُنَفَّذَة دون محاكمة، والاحتجازات الكثيرة، أَو تجويع السكّان.

إِنّ الخيار المشترك لحزب العمل خلال فترة رئاسة شارون الأُولىٰ، والهجمات غير المميِّزة علىٰ المدنيين الإِسرائيليين وسط البلاد، وفشل محادثات كامپ ديڤيد، كل هذا أَدَّىٰ إِلىٰ تقسيم معسكر السَّلام وإِلىٰ عجز معظم أَعضائه ولكن أيضاً إِلىٰ إِحياء راديكالية المجموعات الصغيرة والمنظّمات الإِنسانية غير الحكومية. وأَدَّىٰ إِلىٰ تأسيس العشرات من المجموعات الجديدة. من بينها «تاعيوش»، الجماعة الحازمة التي تشكّلت في تشرين الأول/ أكتوبر 2000 والتي تشمل كلاً من الشباب اليهود والعرب والطلبة الَّذين ينظمون النشاطات الإِنسانية مثل تأمين حماية المؤن للمحتاجين الفِلَسطينيين، والَّذين ينظّمون أيضاً الاحتجاجات السياسية أَو يشاركون في الاحتجاجات التي تُنظّم من جماعات أُخرىٰ[29]. وأَصبحت «حركة السَّلام الآن»، التي تأسَّست أواخر السبعينيات، مظلة لهذه الجماعات الصغيرة.

---

(29) في كتاب عبري جديد ومدهش بعنوان «أين أنا في هذه الحكاية» كتبت الناشطة في مجال حقوق الإِنسان، دافنا گولان آگنون، عن النشاطات الإِنسانية المتنوعة والحقوق المدنية والسياسية المشغولة بها هي وآخرون. وأَكّدت د. گولان آگمون، المحاضِرة في قسم القانون في الجامعة العبرية، أيضاً علىٰ العدد الكبير للنساء في المنظّمات غير الحكومية.

والتي لها أَمانة سرّ وبعض القادة المثقفين إلىٰ حد ما من الاتجاهات السائِدة والمؤيدين (مثل الكاتب آموس أوز وأ. ب. يوشع) لكنها تفتقد الأجندة السياسية المعاصرة (مع أَنّ لها شعارات معاصرة). إنّ هذه المجموعات العديدة الصغيرة والمجزّأة ملأت الفراغ الّذي خلفته الأَحزاب اليسارية لكنها لم تستطع موازاة الأَحزاب اليمينيّة.

21 ـ الحرب السلميَّة

لقد كرّست هذا الفصل، قبل الأَخير، لعرض نسخة طبق الأَصل لثلاثة تقارير صادِرة عن ثلاث منظّمات غير حكومية، بالإِضافة إلىٰ عرض أَجزاء من دراسة قام بها فريق من الباحثين في المجتمع الفِلَسطيني. وتظهر التقارير الثلاثة التي أَعدَّها شهود عِيان، كلٌّ بأسلوبه، كيف تمّ تقليص النشاطات السياسية إلىٰ مجرد توفير المساعدات الإِنسانية المحلية بواسطة جماعات إِسرائيلية وعالمية. وتعتبر ردود الأَفعال هذه تجاه العنف نوعاً من الحرب السلميَّة ضد النظام المحتل، وقام بهذه النشاطات الإِسرائيليون اليهود والإِسرائيليون الفِلَسطينيون إلىٰ جانب آخرين. وتوثق هذه الدراسة التأثيرات العميقة للعنف علىٰ طلاّب المدارس الفِلَسطينيين بسبب عملية التصفية المستمرّة.

تشترك هذه التقارير بصفتين اثنتين: الأُولىٰ أنّها تصف نشاطات محدّدة داخل السياق العام للحرب الشعبية الفِلَسطينية ـ الإِسرائيلية، والثانية أنّها شهادات قوية وشخصية أَعدّها شهود عِيان تصف بسخرية بارعة كل ما يتعلّق بالحالة وبأَدوار الممثلين فيها. ولقد أخذت القصة

الأُولىٰ من تقرير يوميّ لأحد أَعضاءِ منظّمة غير حكومية بأسم ماشسوم واتش Machsom Watch، وهي كلمة هجينة بين الإِنكليزية واليهودية تعني مراقب حاجز التفتيش. فمن المفترض أَن يقومَ الجنود في هذه المواقع بتفتيش كل فِلَسطيني يريد الخروج من الأَراضي المحتلَّة. وكان المبرّر الرسمي لوجود نقاط التفتيش منع دخول (القنابل البشرية) وغيرهم منَ المشبوهين إِلىٰ داخل إِسرائيل. وفي الحقيقة، لا تستطيع نقاط التفتيش هذه تأمين حماية حقيقية لأن الفِلَسطينيين الَّذين يريدون التسبّب بالأَذىٰ لديهم 100 وسيلة بديلة للدخول إِلىٰ إِسرائيل[30]. وتطوعت بتأسيس هذه المنظّمة مجموعة من النساء ـ يهوديات وفِلَسطينيات ـ في شباط/ فبراير 2001، بهدف مراقبة نقاط التفتيش ومنع الجنود من مضايقة الفِلَسطينيين. وكثيراً ما كانت تتعرّض النسوة المراقبات لسوء المعاملة من الجنود المرابطين علىٰ هذه النقاط. لقد أَعدنا نسخ التقارير مع قليل من الإِعداد من أَجل الحفاظ علىٰ مصداقيتها.

* * *

التقرير رقم 1

صباح الأَحد الثالث من شهر تشرين الثاني/ نوڤمبر 2002، عند متراس طريق الخضر ومدرسة ثانوية للبنات.

---

(30) استهدف بعض المهاجمين نقاط التفتيش المزعجة هذه. واعتبر البعض أن الهدف الحقيقي من هذه النقاط هو تهدئة مخاوف السكان اليهود بإِثبات أن القوىٰ الأَمنية تحميهم.

الفريق: شايا و. ولورين ي. ومايا ر.

فكرة عامّة: تميّز هذا الأُسبوع في إسرائيل بٱحتفال متأخر بنهاية الشراكة/ الائتلاف الحكومي بين حزبَيْ العمل والليكود وحالة من عدم الاستقرار بٱنتظار ما قد يسفر عن ذلك، أَمّا في فِلَسطين فقد تميّز الأُسبوع بالكثير من القتل ومنع التجوّل والإِغلاق والاعتقالات. أَعتقد أَنّ الاعتقالات من الفظاعات التي يجب أَن تلقىٰ اهتماماً خاصّاً: ومن الضروري أَن نتذكر أنّه يصعب أَن يمر يوم دون احتجاز الفِلَسطينيين أَو سَجنهم. ويتراوح، في بعض الأَيام، عدد السجناء بين 3 و5، وفي أَيام أُخرىٰ يرتفع إِلىٰ العشرات. إِن اجتياح جنين الَّذي يكمل اليوم أُسبوعه الثاني، أَسفر عن «محصول» أَكثر من 160 سجيناً جديداً. وهذا يعني أَن مراكز الحجز الإِسرائيلية مليئة حالياً بآلاف الفِلَسطينيين (وأَعتقد أَن العدد يتراوح بين 7,000 و8,000، ويمكن أَن أَكون مخطئة ـ مايا)، اعتُقِل معظمهم في الفترة الممتدة بين عمليَّة الدرع الدفاعي حتىٰ الآن، دون أَن يقدموا للمحاكمة أَمّا الباقي فكان تحت اسم «الحجز الإِداري». ومُنِع الأَهل من زيارة السجناء، وكان بعضهم (وبخاصّة أَهالي السجناء في المراحل الأولىٰ من الأنتفاضة أَو قبلها «السجناء القدماء») لم ير أَولاده أَو إِخوته أَو زوجه أو آباءه منذ أَكثر من سنتين.

أَصبح قصف المنازل عملاً يومياً لقوّات الدفاع الإِسرائيلية، ويبدو هنا أَنّ مجموع المنازل التي دُمِّرت خلال الأَشهر الأَخيرة يفوق عدد مجموع ما دُمِّر منذ نهاية الأنتفاضة الأُولىٰ. وإِذا استمر الوضع

علىٰ هذا الحال فلن يبقىٰ في القريب العاجل الكثير من جنين. . .

فُرِض منع التجول في الخليل لأَربع أَيام متتالية، قبل احتفال المستوطنين وضيوفهم بذكرىٰ خاصة بهم، وأثناءه وبعده. وكانت الترتيبات الأمنية لحماية الاحتفالات بالمناسبة. وشهدت منطقة بيت لحم المجاورة إِغلاقاً محكماً ووجوداً عسكرياً مكثَّفاً منذ يوم الخميس إِلىٰ يوم السبت.

فريق المناوبة:

عندما وصلنا إِلىٰ متراس مفرق الخضر (حوالي الساعة 7:20 صباحاً) لاحظنا «إجراءً» جديداً: جنديان (نظاميان) يقفان وسط عدد كبير من الفِلَسطينيين، الَّذين كانوا يدخلون ويخرجون عبر المتراس، ويأمران المترجِّلين بالوقوف علىٰ شكل طوابير حاملين مذكرة التفتيش. تهرّبت بعض النسوة وبعض الرجال كبار السن من التفتيش وساروا ملتفين حول الجنود، لكن الغالبية «خضعت» للتفتيش دون سؤال أَو إِشارة اُمتعاض واضحة. قال لنا أحد الفِلَسطينيين كما أخبرنا الجنود أَنفسهم أَنّ سبب هذا الإِجراء كان «تحذيراً» [عن هجوم مُحتمل من المنطقة]. يجب الإِشارة هنا إِلىٰ أَن الجنود لم يكونوا وقحين أَبداً ولقد بذلوا الجهود كي لا يؤخّروا الناس (لا تستغرق العمليّة إِلاّ بضع ثوان لإِبراز المذكرة ومتابعة المسير). وبرغم ذلك، أَصبح هذا العرْف، الَّذي امتدّ وترسّخ، في فرض التفتيش الحدودي علىٰ الفِلَسطينيين الَّذين يتحرَّكون داخل مناطق مسطّحة في قطاع واحد من الضفَّة الغربية، إِجراءً لا يُطاق.

علىٰ بُعد أَقل من مئة متر شرق التقاطع، عند محطة انتظار سيارات الأجرة والباصات خلف المتراس الثاني، كنا علىٰ وشك الدخول فيما بدأ نقاش محتدم مع عدد من سائقي السيارات علىٰ طريق الخضر/ رام الله/ الخضر، فعندما وجّهنا إِليهم التحية «صباح الخير» كانت حالة هؤلاء الرجال يائسة جداً وكان بعضهم علىٰ حافة الانفجار. ثم تبيّن لنا أَن صباحهم لم يكن سيئاً فقط، بل إِنَّه بدأ منذ الساعة الواحدة أيضاً، عندما اصطفوا من أَجل «ورديّة» اليوم. وعند الساعة السابعة والنصف، ولم يحرّكوا بعد سياراتهم، كان بعضهم علىٰ وشك الانفجار بالبكاء. في البداية صرخوا علينا من أَجل تطبيق الحقوق الإِنسانية علىٰ «الورديات»، كل هذا بسبب عدم وجودنا (نحن المراقبين) في الزمان والمكان الأَكثر حاجة إِلينا، أَو كما قالوا لنا مباشرة، في وادي النار، صباح أَيام السبت ومساء أَيام الخميس. إنّ صباح السبت هو الوقت الَّذي يخرج فيه الموظفون والعمّال من جنوب الضفَّة الغربية إِلىٰ أَماكن عملهم في مناطق رام الله وأريحا، ومساء الخميس هو وقت عودتهم إِلىٰ بيوتهم في عطلة الأُسبوع. في هذه الأَيام ينزع الجيش وشرطة الحدود إِلىٰ كل ما هو بغيض، فتوقف السيارات لساعات (صرَّح بعضهم أنهم أُجبِروا علىٰ الانتظار لمدة أَربع أَو خمس ساعات وسط أَرض قاحلة يمر خلالها طريق وادي النار). وبعد أَن عبَّر السائقون عن شكواهم من عدم فائدتنا، هدؤوا وقصُّوا علينا الحكاية.

كان الرجال الَّذين نتحدَّث إِليهم جزءاً من مجموعة تُقَدَّر بنحو

خمسة عشر سائقاً من قطاع الخليل. وكانوا يحملون ذكريات جيدة عن زمن ما قبل أيلول/ سپتمبر 2000، كانوا يتنقلون في كل مكان، ويجوبون الطرقات من أدنىٰ الخليل جنوباً إلىٰ جنين شمالاً وجسر اللنبي [علىٰ نهر الأردنّ، الحدود بين الضفَّة الغربية والشرقية] شرقاً، إلىٰ جانب الدخول العَرَضي إلىٰ الأَراضي الإسرائيلية. وبرغم ٱرتفاع الضرائب التي فرضتها السلطة الفِلَسطينية في ذلك الوقت، كانوا قادرين علىٰ كسب ما لا يقل عن 8000 شيكل [ما يعادل 1,500 دولار أَمريكي] في الشهر. وبعد وقت قصير من بدء الاٌنتفاضة وفرض سياسة الإِغلاق الكامل، كما ذكرنا في تقاريرنا مرّات عدة، لم يعد يُسمح لهم بالقيادة علىٰ الطرق الرئيسية الخالية من العرب وأُجبروا علىٰ اتّباع الطُّرق الداخلية الثانوية (غير المعبّدة غالباً) التي ينتشر علىٰ طولها أعداد كبيرة من نقاط التفتيش والمتاريس والعقبات. واختصاراً لحكاية سنتين من الزمن، قرَّر هؤلاء السائقون الخمسة عشر استئجار بيت في الخضر (قرب المتاريس). فقد ٱنخفض عدد الركّاب المسافرين خارج القطاع يومياً إلىٰ مستوىٰ غير مسبوق (بسبب الصعوبات الكثيرة علىٰ الطريق، والأَزمة الاٌقتصادية، أصبح معظم الناس غير قادرين علىٰ دفع أجرة السفر البالغة خمسة عشر شيكل من الخضر إلىٰ رام الله)، وأَصبح من الصعب ضمان أَكثر من سفرة واحدة يومياً (ذهاباً وإِياباً) للسائق الواحد. وحتىٰ هذا يحتاج إلىٰ الاصطفاف بالطابور وإلىٰ غير ذلك من الترتيبات المسبقة بين السائقين لمنع المنافسة والعراك.

تخيّل أَن يبدأ شخص يومه من الساعة الواحدة بعد منتصف الليل

وينتظر سبع أَو ثماني أَو تسع أَو حتىٰ اثنتي عشرة ساعة أَحياناً، من أَجل سفرة واحدة، قد تدوم إِلىٰ الأبد في محنة وادي النار [والاسم يعني صدعاً مفاجئاً في الأَرض]. في الواقع كانوا يمضون كل نهارهم وليلهم تقريباً حول «المحطة»، يأكلون الفلافل المليئة بالزيت والمشكوك بنظافتها، ويشربون القهوة المُرّة، ويتحدَّثون ويتحدَّثون. وفي المساء يعودون إِلىٰ بيتهم المستأجر الَّذي سيخرجون منه بعد عدة ساعات. أَمَّا في نهاية الأُسبوع، فيعودون إِلىٰ حيث أُسرهم لقضاء يوم العطلة. أنّ يوسف، الرجل الَّذي قصّ علينا معظم الحكاية، هو أَب لعشرة أَولاد من قرية ياتا. ودخله الشهري الكامل بعد كل هذه الصعوبات يتراوح بين 1000 [200 دولار] و1500 شيكل [300 دولار] ولا يتجاوز 2000 شيكل.

تركنا السائقين بقلوب مثقلة بالأَسىٰ، وتوجهنا إِلىٰ ثانوية البنات، وهناك كنا محظوظين بلقاء المديرة أم شادي لحظة دخولنا الباحة. كان برفقتها سيدة أَنيقة اللباس، عرفنا فيما بعد أَنَّها مشرفة وزارة التربية علىٰ مادة الثقافة البدنية في منطقة بيت لحم. كانت المديرة والمشرفة متلهّفتين جداً للتحدّث إِلينا، وأَعادت أم شادي مباشرة أَحداث الأَمس (الإِثنين 2 تشرين الثاني/نوڤمبر)، التي بدأت عندما لاحظ الجنود مركبة مشبوهة، متوقفة عند «نادي» الخضر بالقرب من ثانوية البنات، وقرَّروا نسفها دون أَي تحذير أَو تأخير (لم يحاولوا حتىٰ السؤال عن صاحبها). أَسرعت أم شادي لتهدئة البنات. وبعد أَن هدأ الانفجار بقليل، بدأ الجنود بإِطلاق الغاز المسيل للدموع علىٰ مقربة من المدرسة

دون أي سبب واضح. وحملت الرياح سحابات الغاز إلىٰ الباحة، حيث كانت البنات قد بدأن للتو درس الرياضة، وانتقل الغاز إلىٰ الصفوف بسرعة. فأدخلت أم شادي ثلاث مدرّسات حوامل إلىٰ الغرفة الخلفية، ثم أسرعت للعناية بالبنات، اللاتي شعر كثير منهن بالدوار والألم. ومع أنَّها استطاعت تهدئة الجميع، كان من الصعب متابعة الدروس في هذا الجو، ولهذا صرفت أم شادي البنات إلىٰ بيوتهن.

بعد إعادة هذه التفاصيل، كانت أم شادي وربيحة عطا الله (المشرفة)، وخولة (مدرِّسة الرياضة) التي انضمت إليهما سعيدات بالانتقال إلىٰ مواضيع أكثر متعة، تتراوح بين الرياضة إلىٰ التفوّق في اللغات، إلىٰ الاختلافات بين شاؤول موفاز [وزير الدفاع المُعيَّن حديثاً ورئيس الأركان السَّابق] وبنيامين بن أليعازر. كانت المدرّسات الثلاث من لاجئي الجيل الثاني (أو الثالث، في حالة خولة). إنّ أُسرة أم شادي في الأصل من عين كارم [قرب القدس الغربية]، وربيحة من زكريا، وخولة من الجورة (قرب موشاف أورا). لقد كنَّ سيدات نشيطات وعلىٰ علاقة كبيرة بكل ما يجري، وكنَّ متلهِّفات لمزيد من الاتصال والتعاون معنا.

* * *

التقرير الثاني كتبته سيلڤيا پيترمان علىٰ شكل رسالة إلىٰ ابنها بعد مشاركتها في حملة قطاف الزيتون. إنّ شهر تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوڤمبر هما موسم قطاف الزيتون، والزيتون هو المحصول الفِلَسطيني الرئيسي ويشكِّل أساس الصناعات القروية

التقليدية، حيث يعصرون الزيت ويصنعون الصابون والعطور وبعض المنتجات الأُخرىٰ. قرَّر المستوطنون اليهود في خريف 2002، فرض سيطرتهم علىٰ الأَرض والتخلّص من القرويين وقطف الزيتون بأَنفسهم. فقرَّر عدد من جماعات السَّلام الإِسرائيلية، تحت إِشراف الناشط في «حركة السَّلام الآن» ياكوف مانور، والناشطين في كتلة السَّلام آدم كيلير ويهوديت هاريل، وأَعضاء من تاعيوش، مساعدة القرويين الفِلَسطينيين الَّذين سُرِقت محاصيلهم.

* *

التقرير رقم 2

15، تشرين الثاني/ نوفمبر 2002

ولدي العزيز،

ذهبنا أَمس للمرة الثانية لقطاف الزيتون في الأَراضي المحتلَّة، وهذه المرّة كنا نعرِّض حياتنا للخطر. كنا عشرة، إِسرائيليين ومتعددي الجنسيات، بالإِضافة إِلىٰ السائق، وهو فِلَسطيني من القدس الشرقية. وكنا نشكِّل مجموعة صغيرة ولطيفة خلال الأَسابيع القليلة الماضية. لقد أَوقف الجنود المجموعات الأَكبر التي رافقتها عدة مرات علىٰ الطريق، لذلك وصلنا متأخرين جداً إِلىٰ القرىٰ. . . في طريقنا إِلىٰ عين عابوس، وهي قرية صغيرة قرب إِيتزهار، المستوطنة المعروفة بتطرّف سكانها. عندما وصلنا إِلىٰ عين عابوس أَعلنت مكبرات الصوت علىٰ مئذنة الجامع أَنّ مجموعة متطوِّعين من أَجل السَّلام

جاهزة لمساعدتنا في قطاف زيتوننا الناضج. ٱنقسمنا إِلىٰ مجموعتين وتوجهنا إِلىٰ بساتين مختلفة. وانضم إِلىٰ مجموعتنا الصغيرة بعض القرويين الفِلَسطينيين. ٱمرأة متوسطة العمر (وهي أم لاثني عشر طفلاً)، وأُمّها، وطفل يركب حماراً وولد آخر. بالإِضافة إِلىٰ السائق، وهو الشخص الوحيد بيننا الَّذي يتحدَّث العبرية والعربية.

كنا قد مشينا حوالي عشر دقائق عندما رأيناه، من الواضح أَنَّه مستوطن، وكان واقفاً في أَعلىٰ التلة. صرخ علينا بالعبرية، طالباً أَن نعود من حيث أتينا. وتابعنا سيرنا بٱتجاه بستان الزيتون، فبدأ المستوطن بإِطلاق النار علينا. كان الموقف مرعباً إِلىٰ حد ما فتربّصنا قريباً من الأَرض. واستخدم رئيس مجموعتنا هايليل هاتفه الجوّال، واتصل بالجيش، وبالشرطة، وبالإِذاعة وبكل من ٱعتقد أَنَّه قادر علىٰ المساعدة.

وبعد ذلك، بدا أَن المستوطن قد توقّف عن إِطلاق النار فوقفنا. وذهب الفِلَسطينيون، بناء علىٰ طلبنا، إِلىٰ منطقة لا تُرىٰ من أَعلىٰ التلّة. بعد أَن أعطونا السلال وقطعة كبيرة من القماش المشمّع لوضعها علىٰ الأَرض، تحت الأَشجار، من أَجل التقاط الزيتون المتساقط، وتابعنا الصعود بٱتجاه البستان. ووصلنا أَخيراً إِلىٰ الأَشجار وبدأنا قطاف الزيتون.

بعد فترة وجيزة، أَدركنا أَن هناك مجموعة من المستوطنين قادمة نحونا من الجانب المقابل للتلّة. وعندما أَصبحوا قربنا، بدؤوا بالصياح وإِطلاق النار في الهواء. لعنونا ووصفونا بالنازيين،

فتجاهلناهم وتابعنا قطاف الزيتون، في الوقت الَّذي كان فيه رئيس المجموعة يتصل بالجيش والشرطة، طالباً حمايتنا من المستوطنين. وبعد ذلك طلب أحد المستوطنين بلهجة آمرة بطاقاتنا الشخصية. سألناه إِذا كان بحوزته بطاقة الشرطة، وكان واضحاً أَنَّه لا يملكها. قال المستوطن أَنَّه سيقتلنا عندما نأتي في المرة القادمة.

كان المستوطنون ـ رؤوسهم حليقة ومغطاة بقلنسوة كبيرة، مع خصلات شعر طويلة حول وجوههم ـ غاضبين لأنهم فشلوا في حملنا علىٰ التراجع. وحاولوا تخويفنا، قفزوا نحونا حاملين بنادقهم. ثم نزلوا من أَعلىٰ التلة وخشينا أَن يهاجموا الفِلَسطينيين أَسفل الطريق فذهب اثنان منا لتحذير الفلاحين، ولم يكن ذلك ضرورياً، لأنهم لاذوا بالفرار.

وصل الجنود أَخيراً وكانوا ثلاثة شباب. وطلبوا منا المغادرة فوراً لأَنا لم نحصل علىٰ تصريح بالقدوم إِلىٰ هنا من الجيش. رفضنا المغادرة، قائلين إن لدينا تصريحاً وطلبنا منهم التأكّد من ذلك. كنا نتابع قطاف الزيتون طوال الوقت، وقال الجنود أَنَّه إِذا لم نغادر المكان فوراً فإِنهم سيتصلون بالشرطة وسوف يتم اعتقالنا. وتابعنا قطاف الزيتون.

بعد ذلك وصل الفريق الآخر من المتطوِّعين إِلىٰ بستاننا، برئاسة ياكوف، أحد الشخصيات القيادية الرئيسية في حملة قطاف الزيتون، وتبيّن أنّ أحد أَعضاء الفريق قد أُصيب في رأسه بحجر قذفه به مستوطن، وتم نقله إِلىٰ المستشفىٰ بسيارة إِسعاف. وقرّر الفريق عدم

التقدّم أَكثر وعادوا باتجاهنا. في الحقيقة، لم يتبقَّ الكثير من الزيتون: لقد عرّىٰ المستوطنون عدداً كبيراً من الأَشجار وأَخذوا الزيتون. ووضعنا الزيتون الَّذي قطفناه في عدّة سلال وحملناها إِلىٰ أسفل التلة بٱتجاه القرية. عندما عدنا إِلىٰ القرية، استقبلنا الفِلَسطينيون بحرارة شديدة. ومع أَنا لم نستطع التحدّث إِليهم، إِلاَّ أَن لغة الجسد كانت كافية لتقول أنهم يشعرون بالودّ نحونا. وعادت هذا الصباح مجموعة مؤلَّفة من ستين متطوعاً إِلىٰ عين عابوس، من أَجل إِتمام العمل الَّذي بدأناه أَمس... رافقنا إلى الحقل بعض الجنود من جيش الدفاع الإِسرائيلي، برئاسة نقيب احتياط. لقد بقي بضع حبات من الزيتون علىٰ الشجر هناك، ويبدو أَن المستوطنين قد بذلوا جهدهم. ولم أَستطع منع نفسي من سؤال النقيب إِذا كان، برأيه، من العدل ألاَّ يستطيع الفلاحون قطف زيتونهم إِلاَّ إِذا جاء فريق من المتطوِّعين لمساعدتهم، وبهذه الطريقة يكون الجنود مُجْبَرين علىٰ حمايتنا من المستوطنين.

كان النقيب ودوداً جداً، وأَكَّد لي أَنَّه لو طلب الفلاحون حماية الجنود لكانوا قدّموها لهم. لكنهم ببساطة لم يطلبوا. وللأسف، لم يكن في كلامه هذا شيء من الحقيقة. لقد كان الجيش يتعاون تعاوناً وثيقاً مع المستوطنين، ويمنع الفلاحين من الوصول إِلىٰ حقولهم، مستخدماً كل أَنواع الأَعذار. لكن النقيب أَكَّد وجود جماعة حماس الخطيرة في البساتين، ولهذا السبب يحتاج المستوطنون إِلىٰ السلاح. ومن المثير أَنّ الجيش لم يفكّر بمرافقتنا وحمايتنا من هذا الخطر عندما دخلنا إِلىٰ القرية اليوم وأَمس. سألت النقيب أيضاً ماذا يفعل

المستوطنون هنا، فقال إن وجود المستوطنين على هذه التلة مسألة سياسية سيتم اتخاذ قرار بشأنها في 28 كانون الثاني/ يناير [يوم الانتخابات][31]. ولمّا كان النقيب واحداً من مستشاري شارون، فهذا يعني أنّه إذا ربح شارون الانتخابات، فإن إيتزهار، وإيتامار، وتابواش، والخليل [أكثر المستوطنات تعصُّباً في الضفَّة الغربية] لن تكون ضمن «التنازلات المؤلمة من أجل السَّلام» [حسب تعبير شارون]. وستكون فترة تدهور اقتصادي وقتال مستمر.

أتعلم يا بُني، لقد جعلتني زيارة عين عابوس في منتهى الغضب والإحباط، وما زلت لا أدري ماذا أفعل بهذا الغضب والإحباط. هل أجد لديك نصيحة جيدة من أجلي؟ مع حبي.

إيما

* * *

في أمريكا الشمالية، يُعتبر كثير من المسيحيين البروتستانت مؤيّدين لإسرائيل دون قيد أو شرط وقد يعتبرون مسيحيين صهاينة.

---

(31) قالت كاتبة هذه الشهادة لمؤلف هذا الكتاب ما يلي: «في مناسبة أُخرى، أوقفنا الجنود وقاموا بحركة وكأنهم وجدوا متفجرات في السيارة. انتظرنا لأكثر من أربع ساعات ووصلنا إلى القرية الساعة الثالثة بعد الظهر. وفي مثل ذلك الوقت لا تستطيع أن تفعل الكثير. ومع ذلك ذهبنا، نحن، فريق القدس، إلى كفر يانوم وساعدنا إحدى الأُسر في قطاف زيتونها... كانت هذه المتفجرات من أشهر المتفجرات التي «وُجِدَت» خلال الانتفاضة. ولقد أُعلن عنها في الإذاعة عدداً لا يُحصى من المرات وخُصِّصت لها نصف صفحة في هاآرتز» (3 تشرين الثاني/ نوفمبر 2002).

وبرغم ذلك، كرّس بعض المسيحيين حياتهم لتقديم المساعدات الإنسانية للفِلَسطينيين. ويعتبر فريق السَّلام المسيحي أو صانعي السَّلام المسيحيين إحدىٰ هذه المنظّمات غير الحكومية وهي مبادرة عالمية تعمل في مهمة حفظ السَّلام حول العالَم. ويعمل فريق السَّلام المسيحي برعاية الكنيسة المعمودية، اجتماع الأخوة والأَصدقاء. وهذا أحد تقاريرهم:

* * *

التقرير رقم 3

الخليل الآن، الإثنين، 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 2002

يسود منع التجوّل كامل مدينة الخليل. تلقىٰ الفريق عدة مكالمات هاتفية من أُسر بقيت دون طعام بسبب منع التجوّل المُحْكَم. وقام الفريق بجولات لشراء الأطعمة من أَماكن يعرفون أَنَّها ستكون مفتوحة، ثم سلّموا الغذاء، الحليب والخبز غالباً، إِلىٰ أُسر مختلفة في المنطقة.

أَخذ گريگ رولينز وجون لاينس ضيفاً من بتساليم، «الجماعة الإِسرائيلية لحقوق الإِنسان»، إِلىٰ جبل جوهر المجاور من أَجل رؤية مشهد إِطلاق النار في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر. كان المستوطنون قد نصبوا بعض الخيام في المنطقة وأقام الجنود الجدران علىٰ طول الطريق المؤدي إِلىٰ مكان إِطلاق النار. قام رولينز وسو رودس واثنان من الضيوف بإِيصال كمية أَكبر من المؤن إِلىٰ البيوت. وشاهدوا عند

نقطة التفتيش في شارع دوبويا رجلاً فِلَسطينياً وابنه مُحْتَجَزَيْن. لقد أَلقىٰ الجنود القبض علىٰ الرجل وهو في طريقه لأخذ ابنه إِلىٰ الطبيب. وتوسّل أَعضاء الفريق الجنود لمدة عشرين دقيقة قبل أَن يُسْمَحَ للرجل وابنه بالعودة إِلىٰ المنزل.

جمعت لينا كلاوسن معلومات عن ثماني عشرة أُسرة، في مناطق وادي روز ووادي البقاع وجبل جوهر المجاورة، كانت قد تسلّمت أوامر جديدة بهدم منازلها. لم يكن لهذه الأُسر علاقة بالهجوم، لكنها كانت ضمن الطريق المقترح لـ«منطقة العزل» التي توسعت حول مستوطنة كريات أَربعة [قرب الخليل]. ورافق رولينز مجموعة من الأَصدقاء لإِعادة أخيه الَّذي بقي في محطة للوقود قرب نقطة تفتيش أُقيمت مؤخراً في الخليل. في الطريق سمعوا الإِعلان عن وقف منع التجول لبضع ساعات في أجزاء من ها 1 [منطقة من المفترض أَن تكون تحت السيطرة الفِلَسطينية، قرب المستوطنة اليهودية]. وكان منع التجول قد توقّف في المنطقة ها 2 [المنطقة المحيطة بما يسمىٰ كهف البطريرك، تحت السيطرة الإِسرائيلية] منذ 8:30 إِلىٰ 11:00 مساء.

اتّصلت مترجمة الفريق وقالت إنّ الجنود كانوا يدخلون البيوت المجاورة لها. وإنّ أحد الجنود أَمر اَمرأة مسنّة بعدم النظر إِليه. وعندما رفضت الاستجابة له، رمىٰ عليها زوجاً من الأَحذية. بقيت كلاوسن علىٰ الهاتف مع المترجمة حتىٰ استطاعت ماري لورنس وكريستين أندرسون الوصول إِلىٰ المنزل. وسمعت كلاوسن الجنود

يوجهون الإهانات، جسدياً ولفظياً، إلىٰ الناس داخل المنزل. وبعد وصول لورنس وأندرسون بقليل غادر الجنود المنزل.

قال كثير من الأُسر واثنان من المترجمين للمجموعة المعمدانية الـ سي بي تي أَن بلدية الخليل تقوم عادة بإِيصال الغذاء الضروري أَثناء منع التجول، لكن الجيش الإِسرائيلي منعها، وهدَّد بإِطلاق النار إِذا حاول أَحد القيام بذلك[32]. وعرض فريق الكنيسة المعمدانية مرافقة العاملين علىٰ تسليم الغذاء إِذا كانوا مستعدين لمحاولة الخروج.

حوالي الساعة الخامسة مساء استدعت أُسرة [فِلَسطينية] تسكن قرب كريات أَربعة الفريق في حالة فزع، قائلة إنّ المستوطنين قد أَحاطوا بمنزلهم وهم يقذفونهم بالحجارة. (خافت الأُسرة علىٰ حياتها). وهرع كل من لورنس وماري يودر ورودس وأندرسون ولاينس وجيري ليڤين بسرعة إِلىٰ منزل الأُسرة واتصلت كلاوسن وكريستين بشرطة كريات أَربعة، لكنهم كانوا يغلقون الخط في كل مرّة. فاتصلت كلاوسن ببعض الأَصدقاء الإِسرائيليين من الفريق الَّذين اتصلوا بدورهم بالشرطة نيابةً عن الأُسرة. وعندما وصل أَعضاء فريق الكنيسة إِلىٰ المنزل، شاهدوا دائرة من سيارات الجيب التابعة للجيش أَمام البيت، والمستوطنون يقفون جانباً. وأَخبرتهم الأُسرة أَن الجنود قد قمعوا الهجوم، لكن يبدو أَن المستوطنين سيبدؤون هجومهم من جديد بعد مغادرة الجنود. وقرَّرت الجماعة قضاء الليل مع الأُسرة.

---

(32) يجب علىٰ القوّات المحتلّة أَن تمنح السكان تحت الاحتلال حرية الوصول إلى الغذاء والمساعدات الطبية والمساعدات الإِنسانية وفق معاهدة جنيڤ الرابعة.

ذهبت رولينز ومترجم الفريق في التاسعة مساء إلىٰ شارع السَّلام لنقل ابن أخيها. وفي طريق العودة وجدوا بائع خضار في باب الزوايا، وأخذ مترجم الفريق الخضار لأُسر فِلَسطينية في المدينة القديمة.

الأَربعاء، 20 تشرين الثاني/ نوڤمبر 2002

مُنِع التجوُّل في كامل المدينة. وواصل كل من لورنس ويودر ورودس توزيع الغذاء في المدينة القديمة والمنطقة ها 2 من الخليل. التقىٰ رولينز جماعة من البرنامج المرافق للمجلس الدّولي للكنائس، أَتت لزيارة فريق اليوم. وعند الساعة الحادية عشرة صباحاً، لبّىٰ كل من أندرسون وكيتون وليڤين ولاينس نداء لعمليَّة نسف بيت علىٰ وشك الحدوث في منطقة المنارة في الخليل. اتصلت كلاوسن باللجنة الإِسرائيلية المعارضة لتدمير المنازل، التي قالت إنّ المحكمة الإِسرائيلية العليا [للعدل] أَعطت إِذناً بنسف منازل المقاتلين. فجّر الجيش الإِسرائيلي الطابق الأَعلىٰ من المنزل حيث يسكن أَحد المتهمين بإِطلاق النار في 15 تشرين الثاني/ نوڤمبر مع أُسرته. وكانت الأُسرة قد توقّعت ذلك وقامت بنقل أَغراضها من المنزل. وبعد ذلك، نسف الجنود المنزل للمرة الثانية ليتأكدوا أَن الطابق الأَعلىٰ قد دُمِّر تدميراً كاملاً.

الخميس، 21 تشرين الثاني/ نوڤمبر 2002

مُنِع التجوُّل في كامل المدينة. وذهب كل من ليڤين ورولينز ورودس ولاينس بالإِضافة إِلىٰ بعض أَعضاء اللجنة الإِسرائيلية

المناهِضة لتدمير المنازل، لقضاء الليل مع الفِلَسطينيين في جبل جوهر. كان الجنود الإِسرائيليون قد هَدموا جدار مطبخ أَحد البيوت بالجرافة، وقالوا أنهم سيقومون بهدم المنزل كلّه في الصباح. وأَمر الجنود الإِسرائيليون ليڤين ولاينس وكاثرين مايكوك وجيف هالبير من اللجنة بالمغادرة، ووعدوا بحماية المنزل من المستوطنين. استطاعت المجموعة قضاء الليل في بيتين فِلَسطينيين آخرين. ولم يُلاحظ أَي حوادث من المستوطنين.

الجمعة، 22 تشرين الثاني/ نوڤمبر 2002

مُنِع التجوُّل في كامل المدينة. وحصل محام إِسرائيلي من اللجنة علىٰ أَمر قضائي بتأجيل هدم المنزل الَّذي هدَّد الجيش الإِسرائيلي بتدميره أَمس. قامت كلاوسن وأندرسون بإِيصال الغذاء إِلىٰ منطقة جبل جوهر. وعلىٰ الطريق، شاهدا جنوداً إِسرائيليين يحتجزون حوالي عشرين رجلاً فِلَسطينياً خارج الجامع. أخبرهم الجيران أَنّ الرجال يقفون هناك منذ وقت طويل. مرّت جماعة الكنيسة وحَيَّت الجنود والرجال المحتجزين. وبعد تسليم الغذاء كان قد أُطلق سراح الرجال ما عدا ثلاثة. بقيت المجموعة في المنطقة إِلىٰ أَن أُطلق سراح الثلاثة وغادر الجنود. ونام كل من أندرسون ورودس وليڤين ويوبر بالإِضافة إِلىٰ الجماعة الإِسرائيلية في البيوت. وراقبت جماعة الكنيسة الجنود الإِسرائيليين الَّذين استطاعوا السيطرة علىٰ المستوطنين.

* * *

أَخيراً نعيد هنا تقديم جزء من الدراسة التي أَجراها فريق من المجموعة الميدانية الَّذي شارك مع جامعة بيرزيت في سلسلة من الإِحصائيات عن آثار الغارات الإِسرائيلية المتكرِّرة علىٰ الحياة المشتركة والخدمات الاَجتماعية[33]. ويصف جزء من هذا التقرير آثار الغارات علىٰ التعليم:

كانت السنة الدراسية الماضية [2001/ 2002] مؤلمة فقد سيطر الفقر علىٰ الشعب الفِلَسطيني، وأَصبح الخراب البيئي والبنيوي، والدمار السكاني والمؤسَّساتي والموت والجرحىٰ والإِعاقة واعتقال الأحياء وإِعادة احتلال كامل الضفَّة الغربية من الجيش الإِسرائيلي، الطريقة الجديدة والمستمرة للحياة. ولم يُسْتَثْنَ النظام التعليمي من هذا الخراب، فمع نهاية السنة الدراسية 2001/ 2002، أَعلنت وزارة التربية مقتل 216 تلميذاً، وجرح 2514 آخرين، واعتقال 164، ومقتل 17 مدرِّساً ومساعداً من القطاع التعليمي واعتقال 71 آخرين، وأُغلقت 1,289 مدرسة لمدة ثلاثة أَسابيع متتالية علىٰ الأَقل خلال الاَجتياح الإِسرائيلي بين 29 آذار/ مارس ونهاية السنة الدراسية. ومُنِع 50 بالمئة تقريباً من أَطفال المدارس و35,000 موظف في القطاع التعليمي من الوصول إِلىٰ مدارسهم. كان العشرات من الأساتذة والتلاميذ غير

(33) يتألَّف الفريق من ريتا جياكامان وأنيتا عبد الله ورولا أبو صافية ولونا شامية اللاتي كتبن التقرير أيضاً. اختيرت المقاطع من تقرير بعنوان «التعليم في مرمىٰ السلاح: المناخ التعليمي للأَطفال الفِلَسطينيين في ظروف الحرب»، بتاريخ 1 كانون الأول/ ديسمبر 2002.

قادرين علىٰ الانتقال يومياً بين القرىٰ الريفية والمراكز المدنية قبلَ الاجتياح وبعده.

وعانىٰ طلاب السنة الأَخيرة في المرحلة الثانوية [التوجيهي] من صعوبات استثنائية خلال سنة التحضير كلها، وتعطّل برنامج الامتحان بسبب العمليّات العسكريّة وتأجّل أَكثر من شهر. وقضىٰ معظم هؤلاء الطلبة وبخاصة شمال الضفّة الغربية، عطلتهم الصيفية التي امتدت من شهرين إِلىٰ ثلاثة أَشهر في المنازل في ظل منع التجول الصارم والإِغلاق الخارجي. وعانت المناطق المجاورة، وبخاصة المراكز المدنية ذات الكثافة السكانية العالية، ومخيمات اللاجئين والقرىٰ الفقيرة، من غارات عسكريّة متكرِّرة وتفجيرات وإِعدامات خارج المحكمة مترافقة مع عمليّات قتل غير مشروع وجرح المدنيين (نصفهم تقريباً من الأَطفال) بالإِضافة إِلىٰ اقتحامات الجنود الليلية للبيوت واعتقال وتعذيب أَفراد الأُسر. كان هناك التدمير المستمر للبيوت والمحاصيل وغيرها من الممتلكات العامة مثل المحالّ والمكاتب و«الورش» والمؤسَّسات الخدمية. وكما يوضح هذا التقرير، فإِن عواقب الهجوم الإِسرائيلي في السنة الدراسية الماضية علىٰ أَطفال المدارس تجاوزت آثار الضرر في البُنىٰ التحتية، ووصلت إِلىٰ بيوتهم ومدارسهم، وكان لها تأثير سلبي عميق علىٰ قدرة الأَطفال علىٰ التعلُّم وعلىٰ إِحساسهم بالأَمان وعلىٰ صحتهم الذهنية وكرامتهم، وبالتأكيد علىٰ وعيهم. لقد اعتُدِيَ علىٰ هؤلاء الأَطفال بكل الطرق، وهم يكبرون تحت سيطرة الشعور بالكراهية وهو شعور

قادر على تعريضهم لما يسمى «نزعة السلوك العدواني». من المؤكَّد أنّ السلوك العدواني ليس له نزوع جيني، إِنَّه اُجتماعي المنشأ. وفي الحالة الفِلَسطينية يبدأ بناء العنف وينتهي مع الاحتلال العسكريّ الإِسرائيلي.

خاتمة
التصفية مستمرَّة

وصفنا في الفصل الأول من هذا الكتاب الأَزمة المستمرة التي كانت ميزة متأصِّلة للدولة الإِسرائيلية منذ سنة 1967 والتناقضات الإِيديولوجية للجناح اليميني الإِسرائيلي.

إِنّ الحل المنطقي الوحيد لهذه الأَزمة ـ الرغبة في امتلاك كامل أَراضي إِسرائيل دون السكان الفِلَسطينيين الَّذين يشكِّلون خطراً علىٰ الشخصية اليهودية للدولة ـ هو التخلّص من السكان غير المرغوب فيهم أَو الاَنسحاب إِلىٰ حدود 1967، مع احتمال التخلّي عن جزء من الجليل الأَدنىٰ، الَّذي يحتوي عدداً كبيراً من السكان العرب. بتعبير آخر، إِن «التطهير الإِثْني» الجزئي أَو التام هو الجواب الوحيد الحاسم للتنافر غير المُحْتَمَل في إِيديولوجية الجناح اليميني بين الوقائع الموجودة والمرغوبة. والحل الآخر المُحْتَمَل والمقبول عند كل الإِسرائيليين اليهود في ظل ظروف معينة هو تسوية إِقليمية بعيدة المدىٰ.

إنّ الأزمة متجذِّرة في حقيقة أنّ النظام السياسي والثقافي الإِسرائيلي غير قادر علىٰ إدارة عمليَّة «تطهير إِثْني» واسعة النطاق في المنطقة ولا علىٰ إجراء مفاوضات من أَجل تسوية حقيقية تكون مقبولة عند غالبية الفِلَسطينيين. ومع أَنّ السياسة الحالية والكوابح الأَخلاقية لن تسمح «بالتطهير الإِثْني» في الوقت الحاضر، إِلاّ أَنّ عدة عوامل تجعلها أكثر احتمالاً في وقت ما في المستقبل. إِنّ الشعب الإِسرائيلي الآن ـ وعكس الماضي غير البعيد ـ يعتبر «ترحيل» السكان الفِلَسطينيين، التعبير اليهودي اللطيف «للتطهير الإِثْني»، هو موضوع المناقشة[1]. فعلىٰ سبيل المثال، عبَّر رابي بيني إِيلون، وزير النقل الحالي وممثِّل حزب الاتحاد الوطني (الَّذي يحتل ثمانية مقاعد في الكِنِسِتْ) باستمرار عن الرأي القائل إنّ الترحيل ليس الخيار القابل للتطبيق ولا هو الشرط الضروري لبقاء الدّولة الإِسرائيلية علىٰ قيد الحياة فقط بل هو الخيار الإِنساني أيضاً، لأن العودة إِلىٰ الأَراضي

---

(1) انتشرت السنة الماضية شائعات عن خطط مفصّلة «للتطهير الإِثْني» من الجناح اليميني الإِسرائيلي. وأَكثر من ذلك، لقد حذّر الفِلَسطينيون وبعض المثقفين الإِسرائيليين من هذا الاحتمال. ومثال علىٰ ذلك المقابلة التي أجرتها مجلة (ماكور ريشون) الأُسبوعية اليمينية مع بيني إيلون وناقش فيها المحادثات السرّية بين الولايات المتّحدة وإِسرائيل والتي تتعلق بإِعادة توطين مئات الآلاف من الفِلَسطينيين في العراق، كجزء من النظام الجديد المُتَخَيَّل في الشّرق الأَوسط الّذي سيتم تطبيقه بعد الغزو الأَمريكي للعراق. وجاء الدعم الإِسرائيلي المتحمّس للحملة التي شنّتها إدارة بوش ضد العراق في سياق حرب إِقليمية، يعتقد القادة الإِسرائيليون أنها قادرة علىٰ إِلهاء وسائل الإِعلام العالَمية والسماح لهم بالتعامل مع القضية الفِلَسطينية بسهولة أكثر وبأستخدام تدابير أَشد عنفاً.

العربية يوفِّر على الفِلَسطينيين عذاب العيش تحت الحكم اليهودي أَو القتل أَثناء العمليَّات العسكريّة.

لقد أَحاط أَرييل شارون نفسه بالموظَّفين والمستشارين الَّذين يشاركونه وجهة النظر المتطرّفة هذه، مثل وزير الدفاع، شاؤول موفاز. ورئيس الأَركان موشي ياعلون[2]. لهذا لا يمكن استبعاد احتمال أَن يكون أَرييل شارون يحضِّر الآن مخططاً كبيراً، كما فعل سنة 1982، أَو ربما عدة مخطّطات. إِنّ خطته لن تتضمّن إِجراءات عنيفة لسحق الكفاح المسلَّح الفِلَسطيني ومنع الهجمات الإرهابية فقط، بل ستجد حلاً واحداً وإِلى الأبد، للتناقضات المتجذِّرة في الإِيديولوجيات المتشدّدة اليمينية والدِّينيَّة وذلك بتحقيق حلمهم في التخلُّص من العرب في «أرض إِسرائيل». ومع ذلك، فقد شكَّلت إِسرائيل، خلال تاريخها القصير، سابقة في «التطهير الإِثْني».

قال إِيفرام هاليڤي المساعد الشخصي لشارون، ورئيس الموساد السابق، وهو حالياً رئيس مجلس الأَمن القومي الإِسرائيلي، خلال مؤتمر هيرزلايا الَّذي سبق وذكرناه، إِنّ قوانين الارتباط ستتغيّر لأنّ

(2) خلال وجودهما المشترك ـ موفاز رئيساً للأركان وشارون رئيساً للوزراء ـ اشتكى موفاز عدة مرات علناً، من أَن رئيس الوزراء لم يسمح بإِطلاق العنان للجيش لسحق الفِلَسطينيين والتخلّص من عرفات. وعندما لم ينفذ موفاز قرار المجلس، لمرة واحدة فقط، أَنفجر شارون غاضباً، قائلاً لموفاز «يوجد حكومة في القدس». إِنّ الاختلاف بين الرجلين جعل تعيين شارون لموفاز، بعد أَن ترك بنيامين بن أليعازر حكومة الوحدة الوطنية، مفاجئاً. واستنتج بعض المحلّلين أَنّ شارون كان يريد منع موفاز من الانضمام إِلى حزب راديكالي مثل الاتحاد الوطني.

تهديد عمليّات «الإرهاب الضخم»[3] ضد الشعب الإسرائيلي تُعتبر محاولة للإبادة الجماعية ضد الشعب الإسرائيلي وتضعف أساس الدولة ووجودها. وأضاف: إذا استمر الفِلَسطينيون في أعمالهم الإرهابية، فمن الممكن فعلاً أن نقوم بطرد الحركة الوطنية الفِلَسطينية. في هذه الحالة، سيتفهم العالَم ويدعم الإجراءات الإسرائيلية. لكنّ هاليڤي لم يشرح ما هي هذه الإجراءات.

ولقد ٱزداد احتمال تنفيذ إجراءات أكثر تطرُّفاً ضد الفِلَسطينيين مع أَشد إنجازات شارون تأثيراً، محاولة الربط بين النضال الفِلَسطيني المحلي من أَجل تقرير المصير، وبين التحرك الأَمريكي ضد الإرهاب العالَمي. لقد أَسرع شارون، مستغلاً مأساة 11 أيلول/ سپتمبر، بالتصريح أَنّ «عرفات هو بن لادن»، ومع أَن المحلّلين والخبراء الإسرائيليين وجدوا هذه المقارنة سخيفة ومؤذية، إلاّ أَن تبنّي الإدارة الأَمريكية والشعب الأَمريكي اللاحق لها أثبت مرة أُخرىٰ صحة الحدس السياسي عند شارون. مما أَطلق له العِنان لإعادة احتلال معظم المدن الفِلَسطينية ومخيمات اللاجئين وإضعاف

(3) يشير تعبير «الإرهاب الضخم» عادة إلىٰ العمليّات التي يمكن أن تسبّب الآلاف من الإصابات والتدمير الكبير للممتلكات والبُنىٰ التحتية، وغالباً ما يكون سببها هجوم بالأَسلحة البيولوجية والكيميائية، ومن الممكن أيضاً أن تكون هجوماً مذهلاً مثل محاولة الهجوم الفاشلة لضرب الطائرة الإسرائيلية في كينيا بصواريخ أرض/ جو. في بداية 2002، قيل إنّه تم اعتراض محاولة للإرهاب الضخم عندما اكتشف مسؤولو الأَمن عبوة متفجرة مربوطة بصهريج علىٰ وشك الدخول إلىٰ محطة وقود في منطقة كثيفة السكان وسط إسرائيل.

قوة السلطة الفِلَسطينية داخلياً وخارجياً وتدمير البنية التحتية الماديَّة والإِنسانية.

لا شك أنّ الواجب عند كل دولة هو حماية مواطنيها المدنيين بكل الوسائل المشروعة، بما في ذلك ٱستخدام القوّة المسلَّحة. من هذه الزاوية، يمكن ٱعتبار العمليّات العسكريّة الإِسرائيلية مُسَوَّغة تماماً ومُبَرَّرة، إِذا ٱنحصرت أَهدافها في منع الهجمات الإِضافية ضد السكان المدنيين الإِسرائيليين والقضاء علىٰ الإِرهابيين والجماعات الإِرهابية. ومع ذلك يبدو هذا التبرير مضلّلاً وخارج السياق لأنه تجاهَلَ العنف المستمر والمتجذِّر في الأَراضي المحتلَّة والاضطهاد القديم لشعبها. إنّ محاولة الإِقناع بأنّ إِعادة احتلال الأَراضي الفِلَسطينية كان فقط بهدف حماية المواطنين الإِسرائيليين من الأَعمال الإِرهابية تشبه كثيراً الأَهداف المُعْلَنة لعمليَّة السَّلام من أَجل الجليل، لأن الأَهداف الحقيقية لكلا العمليتين تتناقض مع هدف ضمان الأَمن لمواطني الدّولة. ولقد ظهرت الأَهداف الحقيقية لإِعادة الاحتلال في طريقة عمل وكالات الاستخبارات المختلفة، التي خطّطت لعمليَّاتها بطريقة تثير بها الفِلَسطينيين وتزيد كرههم ورغبتهم في الانتقام. هذه السياسة لا تستطيع إِنتاج إِلاَّ المزيد من العنف والإِرهاب، وبخاصّة أَنَّه لم يُقدَّم أَي مبرّر للفِلَسطينيين بالأَمل في ٱستقرار سريع ومقبول. وهذا أَدَّىٰ إِلىٰ سلسلة من العنف المضاد كان لها تأثيرات خطيرة علىٰ المجتمع الفِلَسطيني. وأَصبح الموجودون خارج إسرائيل، بمن فيهم المدنيون الإِسرائيليون والمجتمع اليهودي في الولايات المتّحدة،

حياديين تماماً تجاه هذا الوضع لأن الخسائر المؤلمة التي عانىٰ منها اليهود وما نتج عنها من حزن وحداد دمّر احتمال وجود أي تعاطف يمكن أن يشعروا به تجاه المآسي الشخصية والجماعية، والعوز الاقتصادي والعنف والدمار الّذي يعاني منه الفِلَسطينيون.

لا تدّعي هذه المحاولة التنبؤ بالمستقبل أو التكهّن بنوايا شارون الحقيقية أو مخططاته. ومع ذلك، فإن قراءة متأنية لكلماته، وتحليل العمليّات العسكريّة الأخيرة، ودراسة الموروث الاجتماعي ـ السياسي الحالي في إسرائيل والخارج يكفي لاستنتاج أنّ إسرائيل في الوقت الحاضر تسعىٰ إلىٰ تصفية تدريجية ومتزايدة للشعب الفِلَسطيني. وهذه عمليّة بعيدة المدىٰ، كثيراً ما تكون محكومة بالتجربة والخطأ، تتحرىٰ وتستغل مختلف الفرص التي تقدّمها ميادين الصراع المحلية والعالمية ويقدمها الفِلَسطينيون أنفسهم[4].

إن إمكانية تنفيذ برنامج التصفية هذا تعتمد علىٰ الولايات المتّحدة. ومع أنّ اليمين الإسرائيلي يتهم الولايات المتّحدة دائماً بمناصرتها للعرب بسبب مصالحها النفطية، فإن الليبراليين

---

(4) في الثالث من أيلول/ سبتمبر 2002، تذمّر عزمي بشارة، أحد أكثر المثقفين الفِلَسطينيين الإسرائيليين شهرة، من نقص في استراتيجية التحرير: «إنّ كثيراً من العمليّات كان دافعها الانتقام أو الغضب وليست نتيجة أي استراتيجية. وعندما يُناقش موضوع وجود أو غياب الاستراتيجية الفِلَسطينية تسعىٰ بعض التساؤلات عديمة الصبر لاختصار القضية إلىٰ: هل أنت مع أو ضد تفجيرات القنابل البشرية. إن اختصار الاستراتيجية الوطنية إلىٰ هذا السؤال يمثّل الفقر الحادّ للسياسة الفِلَسطينية في هذه الأوقات العصيبة، والمأساوية تماماً». لقد دعا بشارة إلىٰ حوار فِلَسطيني داخلي حول أهداف النضال ووسائله وآثر بوضوح الانتفاضة الشعبية (بديلاً عن الكفاح المسلّح).

الإِسرائيليين واليساريين يعتبرون أَمريكا شكلاً من الأنا العليا السياسية والأَخلاقية ويثقون بأن ما تسمح به أَمريكا ليس ممكناً سياسياً فقط بل إِنَّه يتوافق أَيضاً مع المقاييس الأَخلاقية الأَرفع، ويرون أَنّ هذه الأُمة هي رمز العالَم الحرّ والنموذج المطلق للديمقراطية ومعقل الحريات المدنية.

إِن التيار المعادي للعرب والمعادي للإِسلام، الَّذي اكتسح أَمريكا بعد أَحداث 11 أيلول/ سپتمبر، والقوة السياسية المتزايدة للصهيونية المسيحية هيّأ مناخاً سياسياً لن تمنع الحكومة الأَمريكية فيه إِسرائيل من فِعل ما تريده بالفِلَسطينيين، وستمدها في الوقت نفسه، بالحماية الدّولية[5].

كان أحد البيانات الرسمية المبكرة لجورج دبليو. بوش عن الصراع مشجّعاً بالتأكيد للجناح اليميني غير المتشدِّد. ففي 24 حزيران/ يونيو 2002، عزَّز بوش طلبه من أَجل إِقامة دولة فِلَسطينية. لكنه لم يحدّد زمناً لإِقامتها ولم يقترح حدوداً بل طالب بوقف كل أَشكال العنف أَو نشاطات المقاومة وبتغيير في القيادة الفِلَسطينية الحالية، وفُهِم من هذا أَنّ علىٰ الفِلَسطينيين التخلّص من عرفات

(5) وفق «النظرية اللاهوتية البروتستانتية» المتعصبة، فإِن عودة المسيح والنهاية السعيدة للتاريخ تتوقف علىٰ عودة اليهود إِلىٰ الأَرض المقدسة واستعادة السيطرة علىٰ القدس. وهذا يفسّر دعم المتعصِّبين الأصوليين الثابت وغير المتردّد لإِسرائيل. وتقول هذه النظرية أيضاً إنّ اليهود سوف يتحوّلون جملة إِلىٰ المسيحية، وهو الوضع الَّذي سيتسبّب فعلياً بالدمار الثقافي للشعب اليهودي. ومع أَن اليمين اليهودي يعرف هذا فلقد رحّب بحرارة بالدعم السياسي للأُصوليين، وكان واثقاً أَن ما سيحدث في تلك الأَيام لا علاقة له بالوضع السياسي الحالي.

والموالين له وإجراء إصلاحات ديمقراطية داخل السُّلطة الوطنية الفِلَسطينيَّة. وقبل هذا البيان، كانت قوَّة عرفات وهيبته قد سقطتا أَرضاً، وكان المثقفون الفِلَسطينيون قد طالبوا بإِصلاح النظام وجعله ديمقراطياً، لكن تصريح بوش أَسكت المعارضة الديمقراطية الفِلَسطينية. وأَصبحت المطالَبة بالديمقراطية، في الوقت الَّذي تشن فيه الولايات المتّحدة حرباً في أَفغانستان وتحاول إثارة حرب ضد العراق، مرادفة للمطالبة بطاعة واشنطن وتبنّي تعريفها للديمقراطية، وهو طلب مرفوض من جميع الفِلَسطينيين مهما كان تقييمهم لنظام عرفات. في نهاية تلك السنة، استُكْمِلت الرؤية الرئاسية لما يسمّىٰ «خريطة الطريق»، التي تدعو إِلىٰ إقامة دولة بحدود مؤقتة مع نهاية 2003 (جُمِّدت لاحقاً الخطة النهائية إِلىٰ حين الاَنتخابات الإِسرائيلية وتشكيل حكومة جديدة)، يتبعها انسحاب القوَّات الإِسرائيلية من أَراضي السُّلطة الفِلَسطينيَّة وإجراء اَنتخابات للمجلس الفِلَسطيني الجديد هناك. وتبدأ الدّولة الفِلَسطينية داخل الحدود المؤقتة مفاوضات مع إِسرائيل من أَجل الاَتّفاق الدائم مع حلول سنة 2005. ووفقاً لخريطة الطريق، ستبدأ إِسرائيل والفِلَسطينيون تشكيل خطة تعاون أَمني جديد في المرحلة الثانية فقط، ربما عندما تكون الحرب علىٰ العراق قد اَنتهت. وسوف يتطلّب ذلك من إِسرائيل إِنهاء منع التجول والحصار ووقف العمليّات في المناطق المأهولة. وسوف يشرف ما سُمّي الرباعي المؤلّف من الولايات المتّحدة والاتّحاد الأوروبي وروسيا والأُمَم المتّحدة علىٰ تنفيذ هذه الخطة. ومع أَنَّ الخطة تدعو إِلىٰ إِقامة كيان مُبهم يُدعىٰ الدّولة الفِلَسطينية، إِلاَّ أَنَّها لم

تتضمّن أي مقترحات إضافية، تاركة كل القضايا الخلافية ـ مثل الحدود واللاجئين ووضع القدس ـ مفتوحة. هذه الاستراتيجية تتناسب مع خطة شارون في استغلال الوقت لمتابعة سياسته في تصفية الفِلَسطينيين، وهي خطة تعتمد علىٰ ٱفتراض أَنّ الغضب الفِلَسطيني سوف يؤدي إلىٰ استمرار الهجمات الفدائية وإلىٰ الردّ العسكريّ الإسرائيلي العنيف المماثِل وهكذا.

من الممكن معرفة مدىٰ فعالية خطة شارون هذه علىٰ الجانبين من خلال استطلاع للرأي العام أُجري أوائل كانون الأول/ ديسمبر 2002. حيث عبّر أكثر من سبعة بالعشرة من الفِلَسطينيين والإسرائيليين عن استعدادهم لقبول عمليّة تسوية شرط أَن يتخلّىٰ الفِلَسطينيون عن العنف وأن يوافق الإسرائيليون علىٰ إقامة دولة فِلَسطينية علىٰ أساس حدود 1967. وكانت نسبة أَقل من واحد بالخمسة من الفِلَسطينيين والإسرائيليين (في الحالتين كانت النِّسب متشابهة تشابهاً ملفتاً للنظر) متمسِّكة بفكرة استعادة فِلَسطين التاريخية أو متمسِّكة بالأَراضي المحتلَّة. ومع ذلك، عبَّر قسم كبير من الفِلَسطينيين والإسرائيليين عن عدم ثقته بٱستعداد الطرف الآخر للتخلّي عن العنف أو لتقديم التنازلات الضرورية. وهكذا، استمرت الغالبية الفِلَسطينية بدعم الطرق العنيفة في الٱنتفاضة بينما استمرت الغالبية الإسرائيلية في تأييد ٱتخاذ الإجراءات الصارمة للجيش الإسرائيلي.

ولأنّه شخص قادر علىٰ قراءة الخرائط قراءة جيدة، وجد أَرييل

شارون خريطة بوش للطريق مناسبة جداً. وقدّم في حديثه خلال الاجتماع السنوي مع لجنة رؤساء تحرير الصحف في 5 تشرين الأول/أكتوبر 2002، وفي اليوم نفسه في مركز الانضباط الداخلي في هرزليا، رؤية واضحة عن كيفية إدارة الصراع قائلاً أنّه بتنفيذ خريطة الطريق المقترحة من الرئيس بوش، فإن إسرائيل سوف تقيم منطقة مجاورة من الأراضي في الضفّة الغربية، تسمح للفِلَسطينيين بالانتقال من جنين إلىٰ الخليل دون المرور علىٰ أي متاريس أو نقاط تفتيش إسرائيلية. ويمكن أن يستكمل هذا بمجموعة من الأنفاق والجسور. وأضاف شارون، أن إسرائيل يمكن أن تتخذ تدابير أُخرىٰ مثل «إقامة تواصل مناطقي بين مراكز السكان الفِلَسطينيين» ـ هذا يعني الانسحاب من مدن مثل جنين ونابلس والخليل ـ في حال تابع الفِلَسطينيون بذل الجهود «المخلصة والحقيقية لوقف الإرهاب». وأضاف شارون، أنّه بعد استكمال الإصلاحات المطلوبة داخل السُّلطة الفِلَسطينيَّة تبدأ فعالية المرحلة الثانية من خطة بوش: إقامة الدّولة الفِلَسطينية.

إنّ المعنىٰ واضح. ستتشكّل الدّولة الفِلَسطينية من ثلاث مقاطعات حول مدن جنين ونابلس والخليل التي تفتقد إلىٰ التواصل الإقليمي. وتعني خطة وصل هذه المقاطعات بالأنفاق والجسور أنّه سيكون هناك وجود إسرائيلي قوي في معظم المناطق الأُخرىٰ من الضفّة الغربية. وبالمقارنة، تبدو بلاد البانتو في جنوب أفريقيا التي قدّمها البيض إلىٰ السكان السود رموزاً للحرية والسيادة وتقرير المصير.

وأَضاف شارون لتوضيح نواياه: «وهذه الدّولة الفِلَسطينية ستكون منزوعة السلاح تماماً. وسيُسْمَح لها بالإِبقاء علىٰ الشرطة ذات السلاح الخفيف والقوّات الداخلية لضمان النظام المدني. وسوف تستمر إِسرائيل في السيطرة علىٰ كل التحركات إِلىٰ داخل وخارج الدّولة الفِلَسطينية، والهيمنة علىٰ مجالها الجوي، ولن تسمح لها بتشكيل أحلاف مع أَعداء إِسرائيل». يعرف شارون جيداً أَنّه لا يمكن لأي قائد فِلَسطيني أَن يوافق علىٰ إِنهاء الصراع مقابل دولة بمثل هذه السيادة المحدودة، لكن مجرد ذكره لـ«الدّولة الفِلَسطينية» ـ وهو تعبير محظور في قاموس الجناح اليميني ـ منحه مظهر المعتدل في المجتمع الدّولي ومكانة في النطاق المحلي[6]. وفي كل الأَحوال، أمّنت هذه الإِيماءات المعتدلة لشارون وقتاً غير محدد لمتابعة عملية التصفية.

---

(6) كان شارون قد هُوجِم من مؤيديه (مثل بنيامين نتنياهو وأوزي لاندو) داخل معسكره، وبخاصّة من الجناح اليميني الديني والراديكاليين وزعماء المستوطنين، بسبب قبوله الواضح بالدّولة الفِلَسطينية. علىٰ سبيل المثال، نشر دوڤيد بن شيم رسالة البغض التالية عبر الإِنترنت: (الرجاء إِرسالها إِلىٰ كل مكان) «أَرييل شارون: المرشح المنشوري (المنغولي). كيف تحب أَن يكون السّم؟ جرعة واحدة أم جرعتين؟ لنكن واضحين جداً بهذا الشأن: الجنرال العام شارون والميتزنا لديهم رؤية متطابقة لإِسرائيل. طرد «المستوطنين» وإقامة الدّولة الفِلَسطينية داخل إِسرائيل. الآن حان الوقت لكل الرجال الطيبين (والسيدات أيضاً) لأخذ زمام الأُمور من الليكود والانضمام إِلىٰ اليمين. اتركوا الذبيحة الميتة لنزوات اليسار. [موشيه] آرينز [وزير الدفاع السابق] غادر بهدوء. أَنتم الآخرون تحدثون بعض الضجيج!! فلديكم شهر ونصف الشهر لتتعاونوا معاً. وإِذا لم تفلحوا بعد ذلك، لديكم كل الوقت للثورة! ضعوا كل ما لديكم من أَجل هذه القضية. ابحثوا عن قائد (أَو اثنين) حتىٰ إِن لم يكن توماس جيفرسون. ويخطر في بالي [أفيگدور] ليبرمان [رئيس الزمرة الروسية من حزب الاتحاد الوطني] و[إِيڤي] إِيتام [قائد الحزب الوطني الروسي]. تذكروا الوصول إِلىٰ أَساس القضية، يقولون =

كما يظهر في هذا الكتاب، فإن التصفية عمليّة متعدّدة المستويات، ولا تعتمد بالضرورة على مبدأ الترابط المنطقي الاجتماعي ـ السياسي. إنه طريق عام، مُضاف إليه عدد من القرارات المتّخذة في الميدان لكن نتائجها التصاعدية ثنائية. النتيجة الأولىٰ هي تدمير النفوذ الشعبي الفِلَسطيني، بما في ذلك قيادته والبنية التحتية الاجتماعية والماديّة. والنتيجة الثانية هي جعل كل يوم من أيام الفِلَسطينيين لا يُطاق وذلك من خلال تدمير المجال الشخصي وأي إمكانية لوجود حالة سويّة أو مستقرّة. إنّ توسيع المجاعة هو طريق آخر للوصول إلىٰ مثل هذه النتائج. لهذا، دمّرت القوّات الإسرائيلية في أواسط تشرين الثاني/ نوفمبر 2002، مخزناً من ثلاثة طوابق في بيت لاهيا، وهي بلدة في شمال قطاع غزّة، فيه من الطحين والزيت المستخدَم للطبخ والأرزّ ما يكفي لإطعام 38,000 شخص لمدة شهر. وكانت هذه المؤن تعود إلىٰ برنامج الغذاء العالَمي التابع للأُمم المتّحدة. وقبل هذا، منعت إسرائيل، مع تقدّم الانتفاضة، معظم العمّال الفِلَسطينيين من الدخول إلىٰ إسرائيل، قاطعةً بذلك مصدر الدخل الرئيسي في قطاع غزّة الفقير ذي الكثافة السكانية العالية، وتاركةً للأُمم المتّحدة مسؤولية تأمين الغذاء للفِلَسطينيين بالحدود الدنيا[7]. وقال موظف في الأُمَم المتّحدة

= «اتبعوا الأموال». إذاً، من المستفيد من جعل إسرائيل سخرية؟ عرفات، والجنرال العام واليسار. وخُذوا اليمين! باركم الله، إنّه الذي أعطىٰ شعب إسرائيل يداً قوية والقدرة علىٰ استخدامها. كونوا أقوياء! كونوا أقوياء! أرجو أن نقوىٰ كلنا! سنسترجعها كلها ونحتفظ بها!!» [الكلمات بالخط العريض جاءت بالأحرف الكبيرة في النص الأصلي].
وهذا الأسلوب العنيف ليس استثنائياً بل هو مألوف جداً بين اليهود المتعصّبين دينياً.

(7) في ليلة 12 تشرين الأول/ أكتوبر 2002، قُتِل خمسة عمال فِلَسطينيين بينما كانوا =

في آب/ أغسطس 2002 إنّ حوالي نصف الـ3,3 ملايين من الفِلَسطينيين يتلقون المساعدات الغذائية، بزيادة تُقدّر بخمسة أَضعاف منذ انفجار العنف.

لقد وُضِعَت كل هذه الشروط، حسب رأي شارون، للتخفيف من قوّة الفِلَسطينيين، وسحق مقاومتهم، وعزلهم، وجعلهم يخضعون لأي ترتيبات يمكن أَن يقترحها الإِسرائيليون، وللتسبّب أَخيراً في هجرتهم الجماعية «الطَّوْعية» من الأَرض. إنّ شارون إِنسان عملي ويعرف تماماً أَن الرأي العام العالَمي لن يقبل بالتصفية الإِثْنية الواسعة النطاق ولا بتحويل المملكة الأردنية الهاشمية إِلىٰ دولة فِلَسطينية، كما تصوّرها في برنامجه الأولي. لكنه يراقب بأنتباه شديد المشهد السياسي العالَمي لاستغلال مختلف المُسْتَجِدّات التي يمكن أَن تظهر. إِنّه لا يسعىٰ إِلىٰ إِضعاف المجتمع الفِلَسطيني فقط بل إِلىٰ إِضعاف المعارضة الإِسرائيلية أيضاً. لقد تداخلت حربه ضد الفِلَسطينيين مع الصراع الثقافي الداخلي ضد بعض العناصر التي تشكّل شخصية الدّولة الإِسرائيلية وهويّتها. أَما المعركة الثانية في هذه الحرب فهي التي شُنّت من أَجل الرأي العام العالَمي، وبخاصّة رأي المجتمعات اليهودية في أَمريكا الشمالية. كان الأَمريكيون، حتىٰ قبل هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، 2001 ـ بعكس الأوروپيين ـ مُقَوْلَبين ضد العرب وضد المسلمين، ولقد أَثَّر هذا

= يحاولون التسلل إِلىٰ داخل إِسرائيل من قطاع غزّة، قرب معبر كارني (وسط القطاع) في محاولة يائسة للبحث عن عمل. راقبتهم دبابة إِسرائيلية وأطلقت قذيفة قتلت الرجال الخمسة مباشرة، ولم يكن أيٌّ منهم مسلّحاً. لم يكونوا مفجرين فدائيين، لكنهم كانوا عمالاً فدائيين.

الموقف علىٰ رؤيتهم للصراع الإسرائيلي الفِلَسطيني. وقدَّمت غالبية الشعب الأَمريكي ووسائل الإعلام دعماً غير مشروط لإِسرائيل دون التفريق بين إِسرائيل وبين سياسات حكومتها. وعلىٰ الرغم من أَنّ الكثير من الأَمريكيين اليهود غير منتسبين إِلىٰ منظّمات يهودية، ولديهم وجهات نظر معتدلة تجاه الصراع الإِسرائيلي الفِلَسطيني، فإِن الناشطين السياسيين داخل المجتمع اليهودي المنظّم غالباً ما يَرفعون صوتهم للتعبير عن وجهات نظرهم المعادية للعرب، كما هو حال بعض الأكاديميين الهامشيين والمحافظين.

بعد 11 أيلول/ سپتمبر، اْزدادت المشاعر المعادية للعرب بصورة دراماتيكية وأَصبحت أَكثر ضراوةً ولا عقلانيةً وتوتراً. واستغل الإِسرائيليون هذا السخط استغلالاً كاملاً من أَجل تكثيف اضطهادهم للفِلَسطينيين. ولقد أَثارت السياسة الإِسرائيلية نقداً شديداً من المثقفين الأوروپيين وبعض الأَصوات المنشقّة في أَمريكا الشمالية. وللأسف كان هذا النقد مرفوضاً غالباً، وغير مدروس، مثل المعاداة للساميّة. لقد أَصبحت تهمة معاداة الساميّة أَداة قوية لإِسكات المعارضة ضد سياسات إِسرائيل المستبدّة ولا شك أَنّ النقد الموجّه للسياسات الإِسرائيلية شجّع بعض العناصر المعادية للساميّة، القديمة والجديدة، في أوروپا وشمال أَمريكا وجنوبها، والعالَم العربي. إِن معاداة الساميّة ظاهرة وينبغي أَن تُشجَب وأن تُعالج بكل الوسائل الاَجتماعية والقانونية المناسبة، مثل أَي مظهر من مظاهر العنصرية. ويجب علىٰ النقّاد المخلصين الانتباه الشديد

إِلىٰ مع من يتحالفون وكيف، وعلىٰ قادة إِسرائيل أيضاً أَن يدركوا مسؤوليتهم في إِيقاظ هذه النزعة.

لقد توضّحت قوة المشاعر المعادية للعرب في الولايات المتّحدة بالملاحظات السياسية والجغرافية للبروفسور أورين ييفتاشيل، من جامعة بن گوريون ـ الَّذي عمل أيضاً ناشط سلام وتسوية ـ خلال جولته التي استمرت ثلاثة أَسابيع وأَلقىٰ فيها عدداً من المحاضرات في أَهم الجامعات الأَمريكية برفقة البروفسورة الفِلَسطينية ريما حمامي من جامعة بيرزيت. قال في جامعة بوسطن گلوب يبدو أَنَ تغييراً جوهرياً يحدث في الفكر الأَمريكي تجاه الصراع الإِسرائيلي الفِلَسطيني وهو تلاشي فِلَسطين. ولقد هُوجم بحقائق مُلْتَبِسَة ودلائل مُفْتَرَضة اختفت منذ زمن بعيد من الخطاب الإِسرائيلي، ولا تُظهِر الجهل فقط بل أيضاً فقدان أَي استعداد للاستماع إِلىٰ الحجج المضادة. وكانت عباراتٌ مثل «الأردنّ هي الدّولة الفِلَسطينية»؛ «[الله؟] أَعطىٰ أَرض إِسرائيل لليهود، ولليهود فقط»؛ «هل يوجد ما يُسَمّىٰ الشعب الفِلَسطيني؟»؛ «القدس لم تذكر في القرآن» عباراتٍ نموذجية.

وكان رد فعل المستمعين في معظم الجامعات متشابهاً.

. . . كانت المحاضرة شديدة التشابك جداً وكان ذلك واضحاً في عدم الاستعداد للاستماع إِلىٰ السرد الفِلَسطيني ـ الإِسرائيلي المشترك. كان يقف أَفراد من الجمهور في كل جامعة تقريباً، ويصرخون: «لماذا لا يناقش أحدكما الآخر؟»، «لقد خُدعنا: وَعدونا بمُنَاظرة ولم نحظ إِلاً بمونولوج».

وأَضاف ييفتاشيل «كان المستمعون الأَمريكيون مهتمين بالنظر إِلىٰ الصلبان المعلّقة علىٰ جدار المكتبة العامة أَكثر من اهتمامهم بالاحتلال الوحشي لفِلَسطين، وبالخرق الإِسرائيلي المستمر للأَعراف وللقانون الدّولي وللقتل الجماعي للأبرياء المدنيين من الفِلَسطينيين والإِسرائيليين».

إِن مصير الدّولة الإِسرائيلية والشعب الفِلَسطيني، بغض النظر عن المواقف الأَمريكية والأوروپية، سوف يقرّر علىٰ الأَرض في الشّرق الأَوسط. أَمّا الحقائق الثابتة فهي أَنّ الشعب الفِلَسطيني موجود، ولا يهم منذ متىٰ، وأن إِمكانية تصفيته ـ أَو «تطهيره الإِثْني» من البلاد ـ دون نتائج خطيرة علىٰ إِسرائيل، معدومة. إِنّ الشعب الفِلَسطيني، مثل كثير من الشعوب الأُخرىٰ في الدّول المستقلة، نتاج النظام الاستعماري العالَمي بالأَساس، وتعرقل تطوُّره الاْجتماعي والسياسي بسبب الإِمبراطورية الاستعمارية ذاتها (البريطانية) وبسبب الاستعمار اليهودي لفِلَسطين (الَّذي بدأ أيضاً تحت مظلة الاستعمار البريطاني، والَّذي دون وجوده لتعذّر ظهور الدّولة اليهودية في المنطقة). قبل بداية الاستعمار اليهودي المعاصر لفِلَسطين، كان البلد مأهولاً بغالبية 600,000 عربي إِلىٰ جانب 20,000 يهودي[8].

من جانب آخر، ليست إِسرائيل حقيقة راسخة في المنطقة

(8) للحصول على معلومات مفصّلة عن التاريخ الفِلَسطيني، راجع كتابي بالتعاون مع جويل س. ميگدال، الشعب الفِلَسطيني: تاريخياً (مطبعة جامعة هارڤرد، 2003).

فحسب، ولكنها أيضاً قوّة عسكريّة وأقتصادية وتكنولوجية عظمىٰ[9].
لقد وُلِدَت الدّولة الإسرائيلية، مثل كثير من المجتمعات المؤلّفة من مستوطنين مهاجرين، من الخطيئة، ومن دمار حضارة أُخرىٰ، حضارة عانت من التصفية ومن «التطهير الإثْني» الجزئي، ومع ذلك لم تنجح هذه الدّولة الجديدة في إبادة الحضارة القَبْلِيَّة الأصليّة مثلما نجح كثير من المجتمعات المهاجرة الأُخرىٰ. في سنة 1948، كانت تفتقر إلىٰ القوة ولم يكن الموروث العالَمي بعد الاستعمار مستعداً لقبول هذه التصرّفات. ولم يستطع الفِلَسطينيون والدّول العربية الأُخرىٰ، عكس الجزائر وزامبيا أَو دولة جنوب أفريقيا، التخلّصَ من مستعمريهم. لقد أَثبتت الدّولة اليهودية في الشّرق الأَوسط قابليتها للحياة في مواجهة كل الخلافات وطوَّرت مجتمعاً غنياً ومزدهراً وحيوياً. وكل ما كانت تحتاجه هو القبول بها كينونة شرعية في المنطقة. إن استقرارها الداخلي وتطورها المستمر يعتمد، في المدىٰ البعيد، علىٰ الاعتراف بها من الشعوب الأُخرىٰ في المنطقة. ولقد بدأت هذه العمليَّة بأتّفاق السّلام الَّذي وُقِّع مع مِصر، والَّذي يمكن اعتباره ثاني أَكبر انتصار للصهيونية. أَمَّا الانتصار الأكبر فكان أتّفاقيات أوسلو، برغم كل التراجعات، لأن الضحية الرئيسية للحركة الصهيونية والعدو الرئيسي قد اعترف بحق الدّولة اليهودية بالوجود

(9) استُخدِم التفوّق العسكريّ الإسرائيلي محلياً باتجاهين: البعض يقول إنّ قوة عسكريّة مثل إسرائيل ليست مضطرة إلىٰ إجراء أي تسوية مع العرب، بينما يقول البعض الآخر إنّ الدولة القويّة قادرة علىٰ إجراء مثل هذه التسوية.

في فِلَسطين. لقد كان هذا التغيّر الثوري في الفكر السياسي الفِلَسطيني السائد، مثل اتّفاق السّلام المِصري مع إِسرائيل، نتيجة متأخّرة لحرب 1967 وحرب 1973.

لكنّ حرب 1967 كان لها نتائج إِضافية ومتناقضة سبَّبت أَزمة مستمرة في المجتمع الإِسرائيلي. إنّ شارون وإِيديولوجيته هما مظهر من مظاهر هذه الأزمة التي كانت تستفحل منذ بداية الاحتلال وتحوّل إِسرائيل إِلىٰ ديمقراطية العِرْق السيِّد؟. وأَكبر مثال علىٰ فساد هذا النظام أَنّه عندما يحتفل 250 يهودياً في الخليل بأعيادهم ويستقبلون الضيوف الَّذين يأتون للتعبير عن تضامنهم وعن تماسكهم. يُسْجَن في المدينة القديمة من الخليل 160,000 فِلَسطيني وهكذا يستغل المستوطنون الأعياد الدينية من أَجل تأكيد سيادتهم. يحدث كل هذا بالتواطؤ مع آلاف الموظفين العسكريّين ومئات المستوطنين المسلّحين.

إِنّ اقتحام الجنود لحزْمة البيوت، غالباً في الليل، أَصبح حادثة شائعة. وتُنَفَّذ هذه الغارات بحجّة التفتيش عن الإِرهابيين أَو الأَسلحة وتكون مترافقة أَحياناً مع النهب والقتل العشوائي. لقد تم تسجيل هذه التعسفات بتقارير كتبها العشرات من شهود العيان جمعتها «بتساليم B' Tselem وغيرها من منظّمات «حقوق الإِنسان». وحتىٰ لو لم تُعطَ الأوامر من الجهات العليا في مثل هذه الحوادث، فإِنّ السلطات العسكريّة ـ عكس العادات التي كانت مُتَّبَعَة سابقاً ـ لا تحقّق ولا تقاضي ولا تتابع هذه التصرّفات المنحرفة والإِجرامية، وهذا مؤشر

كافٍ للجنود بأن أملاك السكان الفِلَسطينيين وخصوصيتهم وحياتهم لا أهمية لها[10].

إنّ الأزمة علىٰ أشدها الآن. فالقيادة المناسبة غير موجودة، والقيادة الفعلية أو المُحْتَمَلة لدىٰ الطرفين مرعبة. وبرغم ذلك، فنحن أقرب من أي وقت مضىٰ إلىٰ تحقيق إنجاز ما، فكلا الجانبان بدأ يفهم أنّه في وضع لا يوجد فيه رابح ولا توجد استراتيجية عسكريّة أو سياسية ـ أو الاثنتان معاً ـ قادرة علىٰ إلغاء الخصم. لا اليهود ولا الفِلَسطينيون سوف يتزحزحون عن قطعة الأرض هذه دون إلحاق كثير من الأذىٰ بالطرف الآخر. وإذا استمرت العداوة، فسوف تؤدي إلىٰ تدمير كلا المجتمعين وزوالهما بسبب الاحتكاك الطويل الأمد، في حال تصاعد الصراع إلىٰ حرب إقليمية، سواء استُخْدِمَت الأسلحة غير التقليدية أم لم تُسْتَخْدَم. وستترافق النكبة (الكارثة) الفِلَسطينية الجديدة بمحرقة (هولوكست) يهودية جديدة إذا فشل الإسرائيليون اليهود والفِلَسطينيون في التوصّل إلىٰ نتيجة أَنّ أقدارهم مترابطة، وأنّ معظم

(10) إن الاحتلال، مثل النظام الاجتماعي، مؤذ ليس فقط للواقع تحت الاحتلال بل للمحتل أيضاً. في بدايات تشرين الثاني/ نوفمبر 2002، وتحت عنوان (ماذا فعلت معالجة مئات الجنود من «أعراض الانتفاضة»؟!)، كتبت صحيفة معاريف أن «قرىٰ خاصة لإعادة التأهيل» أُنشئت للعناية بالجنود المقاتلين السابقين الذين يعانون من أزمات عقلية حادّة، ومازال مئات منهم حتىٰ الآن تحت العلاج المستمر. يعاني البعض من كوابيس، وهم غير قادرين علىٰ مواجهة الهزائم الحربية وإساءاتهم للمدنيين. تمت معالجة المحاربين في الوحدات العريقة في «أيزون» [التوازن] وهي قرية لإعادة التأهيل قرب سيزاريا، من طاقم مؤلّف من سبعة ضباط احتياط. ودعمت المشروع أوريت موفاز، زوج وزير الدفاع الجديد. وموّل المعالجة أهالي الجنود السابقين.

مصالحهم مشتركة، ولكن ليس بصفة حصريّة. إذا قام الطرفان أو أَعادا القيام بالتسويات المؤلمة التي يعتبرونها في الوقت الحاضر غير واردة، لكنها ضرورية لإقامة تسوية مشتركة، تتبنّىٰ القِيَم الإنسانية الأَساسية، ربما لن يتوقفوا عن أن يكونوا أعداء فقط، بل ربما تقودهم مصالحهم المشتركة إلىٰ أَن يكونوا حلفاء مقرَّبين أَيضاً. ومن دون تسوية بين الإِسرائيليين والفِلَسطينيين، ستصبح الدّولة اليهودية المعاصرة مجرد أَثر بعد عين في تاريخ العالَم.

قراءات مقترحة

Uri Ben-Eliezer, *The Making of Israeli Militarism*, Bloomington: Indiana University Press, 1998.

Uzi Benziman, *Sharon: An Israeli Caesar*, New York: Adama Books, 1985.

Nachman Ben-Yehuda, *Sacrificing the Truth: Archeology and Myth of Masada*. New York: Humanity Books, 2002.

Robert Fisk, *Pity the Nation: Lebanon at War*, New York: Simon and Schuster, 1990.

Menachem Hofnung, *Democracy, Law and National Security in Israel*, New York: Dartmouth Publishers, 1996.

Baruch Kimmerling, *The Invention and Decline of Israeliness: State, Culture and Military in Israel*, Los Angeles and Berkeley: University of California Press, 2001.

Baruch Kimmerling and Joel S. Migdal, *The Palestinian People: A History*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003.

Rashid Khalidi, *Under Siege: PLO Decision Making During the 1982 War*, New York: Columbia University Press, 1985.

Ian Lustick, *For the Land and the Lord: Jewish Fundamentalism in Israel*, New York: Council of Foreign Relations, 1988.

—— *Unsettled States/Disputed Lands: Britain and Ireland, France and Algeria, Israel and the West Bank–Gaza*, Ithaca and London: Cornell University Press, 1993.

David Kretzmer, *The Occupation of Justice: The Supreme Court of Israel and the Occupied Territories*, Albany: State University of New York Press, 2002.

Menachem Klein, *The Jerusalem Problem: The Struggle for Permanent Status*, Tampa: University Press of Florida, 2003.

Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947–1949*, Cambridge: Cambridge University Press, 1988.

—— *Israel's Border War 1949–1956: Arab Infiltrators, Israeli Retaliation, and the Countdown to the Suez War*, Oxford and New York: Oxford University Press, 1993.

Laurence J. Silberstein, *The Postzionism Debates: Knowledge and Power in Israeli Culture*, New York: Routledge, 1999.

Ze'ev Schiff and Ehud Ya'ari, *Israel's Lebanon War*, New York: Simon and Schuster, 1985.

Gershon Shafir, *Land, Labour and the Origins of the Israeli–Palestinian Conflict*, Cambridge and New York: Cambridge University Press, 1989.

Avi Shlaim, *War and Peace in the Middle East: A Concise History*, New York: Penguin, 1995.

Ariel Sharon (with David Chanoff), *Warrior: An Autobiography*, New York: Simon and Schuster, 1989.

Ehud Sprinzak, *The Ascendance of Israel's Radical Right*, New York: Oxford University Press, 1991.

Mark Tessler, *A History of the Israeli–Palestinian Conflict*, Bloomington and Indianapolis: Indiana University Press, 1994.

Meira Weiss, *The Chosen Body*, Stanford, CA: Stanford University Press, 2002.

Yael Zerubavel, *Recovered Roots: Collective Memory and the Making of Israeli National Tradition*, Chicago: University of Chicago Press, 1995.

الفهرس

مؤلف الكتاب

هو بروفِسور بحث مُتميّز في قسم العلوم الاجتماعية في جامعة تورنتو وبروفسور العلوم الاجتماعية في الجامعة العبرية. نشرَ عدداً من الكتب والمقالات عن إسرائيل وفلسطين.

صورة الغلاف:

AP/ Wide World Photos

تصميم الغلاف:

Alan Hill Design, New York

إنَّ ما أعنيه بمصطلح «التصفية» هو العملية التي تهدف إلى مسح الوجود الفلسطيني كوحدةٍ إجتماعية وسياسية واقتصادية. قد تعني هذه العملية، ولكن ليس بالضرورة، السحق الكامل أو الجزئي لهذا العِرْق من الأرض المعروفة باسم إسرائيل.

«لا يقدم لنا باروخ كِمّرلنگ، وهو مفكر يهوديٌ توراتي، في كتابه «التصفية» نقداً فاجعاً لأرييل شارون فحسب، بل كتاباً جاداً مبنياً على الفهم لتاريخ الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين.

يكتب كِمّرلنگ بدقة وصدق : ويدُل كتابه على ثقافةٍ واسعة وإحساسٍ عالٍ أتمنى أن يقرأه كثير من الناس»

ـــ هاورد زِن Howard Zinn



ISBN 9953-67-027-7
9 789953 670270 90000

موضوع الكتاب: القضية الفلسطينيَّة ـ الصراع العربي الإسرائيلي

موقعنا على الانترنت:
http://www.interculturalbooks.com